الرواية التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة مان بوكر البريطانية ٢٠١٥

الصيادون

تشيغوزي أوبيوما

ترجمة:

إيهاب عبد الحميد

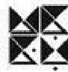


الصيادون

تشيغوزي أوبيوما

ترجمة:

إيهاب عبد الحميد



دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS

الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٨

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر

www.hbkupress.com

الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٩٢٧١١٩٠٥٧

مكتبة قطر الوطنية بيانات الفهرسة- أثناء- النشر (فان)

أوبيوما، تشيغوزي، 1968- مؤلف.

[The fishermen]. Arabic

الصيادون / يشيغوزي أوبيوما ؛ ترجمة إيهاب عبد الحميد. – الطبعة العربية الأولى. – الدوحة : دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، 2018.

صفحة ؛ سم

ترجمة كتاب: The fishermen.

تدمك : 978-9927-119-05-7

1. الأخوة والأخوات -- قصص. 2. القتل -- قصص. 3. القصص النيجيرية -- مترجمات إلى العربية. ب. عبد الحميد، إيهاب، مترجم. ج. العنوان.

PR9387.9.O2756 F57125 2018
823.914-dc23

2018 26219633

إلى إخوتي «وأخواتي»
«الكتيبة»
خالص التقدير.

خُطى رجل واحد لا ترج الأرض.

مثل من الإغبو

اقتحم المجنون بيتنا
مُدنسًا أراضينا المقدسة
زاعمًا امتلاك الحقيقة الوحيدة في العالم
مجبراً كبار كهنتنا على الانحناء بالحديد
آه! نعم، الأطفال،
الذين مشوا فوق قبور أسلافنا
سوف يضربهم الجنون
سوف تنبت لهم مخالب عَظاءة
سوف يلتهم واحدهم الآخر أمام أعيننا
ووفقًا لوصية عتيقة
يُحرَّم علينا إيقافهم!

مازيسي كونين

1

صيادون

نحن صيادون.

أصبحت أنا وإخوتي صيادين، في يناير من عام 1996، بعدما رحل والدنا عن أكوري؛ تلك البلدة الواقعة في غرب نيجيريا، حيث عشنا معًا طيلة حياتنا. أصدر البنك المركزي النيجيري الذي يعمل به والدي، قرارًا بنقله إلى فرع يولا؛ وهي بلدة في الشمال على مسافة تبعد أكثر من ألف كيلومتر، في الأسبوع الأول من نوفمبر من العام السابق. أتذكر ليلة عاد أبي إلى البيت بخطاب النقل، وكانت ليلة جمعة. منذ تلك الجمعة، وحتى السبت، ظل أبي وأمي في مداولات هامسة مثل كهنة المعابد. وعندما حل صباح الأحد، خرجت أمي كائنًا مختلفًا؛ اكتسبت مشية فأر مبلل، وتجنبت النظر إلينا وهي تسير في أرجاء البيت. لم تذهب إلى الكنيسة في ذلك اليوم، وظلت في البيت تغسل وتكوي كومة من ملابس أبي، وقد اعتلى وجهها كدر منيع. لم يوجِّه أيٌّ منهما كلمة لي ولإخوتي، ونحن لم نسأل. تعلمت أنا وإخوتي، إيكينًا وبوجا وأوبمبي، أن أمنا وأبانا في بيتنا مثل البُطينين في القلب؛ عندما يلوذان بالصمت، وحين يُمسكان عن ضخ الدم، فعلينا ألا نزعجهما، وإلا أغرقنا البيت. وهكذا، في مثل تلك الأوقات، نتجنب التلفزيون في خزانته ذات الثمانية أعمدة في غرفة الجلوس، ونلوذ بغُرفِنا، فنراجع دروسنا أو نتظاهر بأننا نفعل ذلك، ويخامرنا القلق، لكننا لا نطرح أسئلة. وبينما نحن هناك، تنتصب قرون استشعارنا لجمع كل ما نستطيع عن الموقف.

بحلول ليل الأحد، التقطنا بعض المعلومات من أمي وهي تناجي نفسها مثل زغبات من طائر كثيف الريش: «أية وظيفة تلك التي تُبعد رجلًا عن بيته وتمنعه من تربية أولاده؟ حتى لو كانت لي سبع أيادٍ، كيف سأتمكن من رعاية هؤلاء الأطفال وحدي؟».

ومع أن أسئلتها المحمومة لم تكن موجهة إلى شخص بعينه، إلا أنها أصابت أذني أبي بكل تأكيد. كان جالسًا وحده على أريكة في غرفة الجلوس، وجهه محجوب بنسخة من «الجارديان»، جريدته المفضلة، يقرأ بنصف وعي، وينصت بالنصف الآخر إلى أمي، وقد سمع كل ما قالته، إلا أنه دائمًا ما يدير أذنًا صماء للكلمات غير الموجهة إليه بشكل مباشر، تلك التي يصفها عادة بـ«الكلمات الجبانة». يواصل القراءة ببساطة، وأحيانًا ينطلق بصوت عالٍ مستنكرًا شيئًا ما قرأه في الجريدة، أو مثنيًا عليه: «لو كان هناك عدل في العالم، لترمَّلت امرأة «أباتشا»، تلك الساحرة»[(1)]، «واو، «فيلا» هذا إله من الآلهة! رحماك يا ربي!»[(2)]، ««ريوبين أباتي» يستحق الطرد!»[(3)]. أي شيء فقط ليعطي انطباعًا أن نواح الأم عقيم، وأنين لا يلتفت إليه أحد.

قبل أن ننام في تلك الليلة، خمَّن إيكينا، الذي أوشك على بلوغ الخامسة عشرة، وكثيرًا ما نعتمد عليه ليفسر لنا معظم الأمور، أن أبي سيُنقل من عمله. أما بوجا، الذي يصغره بعام، فقد خشي أن يبدو أحمق لو لم يخرج بتفسيره للموقف، فقال إن أبي ولا شك مسافر إلى الخارج، «إلى العالم الغربي»، تمامًا كما كنا نخاف أن يفعلها ذات يوم. أما أوبمبي، وهو في الحادية عشرة، ويكبرني بسنتين، فلم يكن له رأي، وكنت مثله. لكننا لم ننتظر طويلًا.

جاء الجواب في الصباح التالي عندما ظهر أبي فجأة في الغرفة التي أتقاسمها مع أوبمبي، مرتديًا قميصًا بُنيًّا، ووضع نظارته على الطاولة، في إشارة لكي ننتبه. «سوف أعيش في يولا بدءًا من اليوم يا أولاد، ولا أريدكم أن تسببوا أي مشاكل لأمكم». التوى وجهه عندما قال ذلك، كما كان يفعل عندما يرغب في إثارة أشباح الخوف بداخلنا. راح يتحدث ببطء، صوته أعمق وأعلى، كل كلمة مثل وتد ينغرس بعمق تسع بوصات في الألواح الخشبية لعقولنا. هكذا، إن عصيناه مرَّة، فسيجعلنا نستحضر اللحظة التي أعطانا فيها التعليمات بكامل تفاصيلها مستخدمًا عبارة بسيطة: «لقد قلت لكم».

«سوف أتصل بها بانتظام، وإن سمعتُ أي أخبار سيئة...»، رفع سبابته ليشدد على كلماته، «أقصد، أي مشكلات تتسببون بها، فسوف أعطيكم **العطيَّة**».

قال كلمة «العطية»، التي يؤكد بها تحذيرًا ما، أو يشدد بها على عقوبة سوء السلوك، بقوة بالغة نفرت معها الأوردة على جانبي وجهه. هذه الكلمة، فور أن تخرج، عادةً ما تكمل الرسالة. ثم أخرج من جيب معطفه العلوي ورقتين من فئة عشرين نايره، وتركهما على طاولة الدراسة الخاصة بنا.

قال: «واحدة لكل منكما»، ثم غادر الغرفة.

كنت أنا وأوبمبي لا نزال جالسين في فراشنا، نحاول أن نفهم كل ذلك، عندما سمعنا أمي تتحدث إليه خارج المنزل بصوت عالٍ للغاية، بدا معه كأنه قد ابتعد كثيرًا بالفعل.

قالت: «إيمي، تذكر أن لديك أولادًا صغارًا هنا. أنا أقول لك، أوه».

كانت لا تزال تتحدث عندما شغَّل والدي محرك سيارته الـ«بيجو 504». وعند انطلاق صوت المحرك، هرعت أنا وأوبمبي من غرفتنا، لكن أبي كان قد خرج بالفعل من البوابة، راحلًا.

خلال عقدين من السنين وحتى الآن، كلما فكرت في قصتنا، وتذكرت ذلك الصباح الذي يُمثِّل المرَّة الأخيرة لكوننا معًا، أسرة واحدة كما كنا دائمًا، تمنيتُ لو أنه لم يرحل، لو أنه لم يتلقَّ قَطُّ خطاب النقل ذاك. قبل وصول الخطاب، كان كل شيء يسير في مساره الطبيعي: أبي يذهب إلى العمل مع كل صباح، وأمي تدير متجرها للطعام الطازج في السوق المفتوحة، ويعتنيان بي وبإخوتي الخمسة، ونذهب نحن إلى المدرسة، مثل أطفال معظم الأُسر في أكوري. لم نكن نفكر كثيرًا فيما مضى من أحداث، ولم يكن الزمن يعني شيئًا في ذاك الوقت. كانت الأيام تأتي بسحابات عالقة في السماء مليئة بحفنات من التراب في مواسم الجفاف، والشمس تظل في السماء حتى الليل. وفي المواسم المطيرة، يبدو لنا كأن يدًا ترسم صورًا مغبشة في السماء، وينهمر المطر في فيضانات نابضة بتقلصات العواصف الرعدية لستة أشهر بلا توقف. ولما كانت الأمور تسير وفقًا لهذا النسق المعروف والمُنظَّم، لم يكن ثمة يوم جدير بالتذكر. كل ما يهم هو الحاضر والمستقبل المنظور. وكانت ومضات من هذا المستقبل تأتي في صورة قطار بخاري يسافر على قضبان من الأمل، بفحم أسود في قلبه، وصفير عالٍ كنهيم الفيلة، وأحيانًا تنبعث تلك الومضات عبر الأحلام أو شتات من الأفكار الخيالية التي تهمس في رأسك - **سوف أصبح طيارًا، أو رئيسًا لنيجيريا، ثريًّا، أمتلك طائرات مروحية**. لقد كان المستقبل هو الصورة التي شكلناها له. كان قماشًا أبيض يمكننا تخيُّل أي شيء مرسوم عليه. وتغيَّرت المعادلة بانتقال أبي إلى يولا، وبدأنا نلتفت إلى مرور الزمن والمواسم، وإلى الماضي، الذي أصبحنا نشتاق إليه أكثر من الحاضر والمستقبل.

عاش أبي في يولا منذ ذاك الصباح، وأصبح الهاتف الأخضر، المُستخدم في الأساس لاستقبال مكالمات السيد بايو، صديق طفولة أبي الذي يعيش في كندا، الوسيلة الوحيدة للتواصل معه. كانت أمي تنتظر مكالماته بلا كلل، وتضع علامة على روزنامة غرفتها أمام الأيام التي يهاتفها فيها، فإذا فوَّت أبي يومًا في الجدول، ونفد صبر أمي أثناء الانتظار إلى ما بعد منتصف الليل بكثير، تحل العقدة المربوطة في ذيل «الربَّا»[(4)] التي ترتديها، وتُخرج منها الورقة المكرمشة التي خطَّت عليها رقم هاتفه، وتظل تضرب الرقم بلا نهاية حتى يجيبها. وإن كنا لا نزال مستيقظين، نتجمع حولها ونسمع صوت أبي، مُلحين عليها أن تضغط عليه لكي يأخذنا معه إلى المدينة الجديدة، لكن أبي يرفض بإصرار، ويكرر أن يولا مدينة متقلبة، لها تاريخ من العنف المتواتر الذي يندلع على نطاق واسع، خصوصًا ضد من ينتمي إلى قبيلتنا - الإغبو. ظللنا نضغط عليه إلى أن اندلعت أحداث الشغب الطائفية الدموية في مارس 1996. عندما استطعنا مكالمة أبي أخيرًا على الهاتف، حكى لنا، على خلفية من صوت الرصاص المتقطع، كيف أفلت من الموت في اللحظة الأخيرة عندما هاجم الغوغاء الحي الذي يسكنه، وكيف ذُبحت الأسرة التي تسكن في البيت المواجه له بأكملها. «أطفال صغار قُتلوا مثل الدواجن!»، قالها مشددًا بقوة على عبارة «أطفال صغار»، بطريقة لا يجرؤ معها أي عاقل على أن يحدثه في موضوع

الانتقال، وتلك كانت نهاية الأمر.

جعل أبي من زيارة نهاية الأسبوع كل أسبوعين عادةً من عاداته، مستخدمًا سيارته البيجو 504 الصالون، منهكًا بعد قيادتها لخمس عشرة ساعة. كنا ننتظر أيام السبت تلك لنسمع نفير سيارته عند البوابة، فنهرع لكي نفتحها، ونحن تواقون لرؤية الأطعمة الخفيفة أو الهدايا التي أحضرها معه. وبعد أن تعودنا ببطء على رؤيته كل بضعة أسابيع أو نحو ذلك، تغيرت الأمور. جرمه العملاق الذي يوحي بالاحترام والهدوء، تراجع تدريجيًّا ليصبح بحجم حبة البازلاء. ونظامه الراسخ القائم على رباطة الجأش، والطاعة، والدراسة، والقيلولة الإجبارية، الذي ظل لوقت طويل نمطًا مميزًا لوجودنا اليومي، فَقدَ قبضته تدريجيًّا. والتف حجاب حول عينيه البصيرتين، اللتين كنا نؤمن بقدرتهما على ملاحظة أبسط الأخطاء التي نرتكبها سرًّا. في بداية الشهر الثالث، انقصفت ذراعه التي كثيرًا ما قبضت على السوط، أداة التحذير، مثل فرع شجرة متعب. وبعدها انكسرت قيودنا.

وضعنا كتبنا على الرفوف، وتهيَّأنا لاستكشاف العالم المحرَّم خارج عالمنا الذي تعودنا عليه. غامرنا بالذهاب إلى ملعب البلدية، حيث يلعب معظم أولاد الشارع كرة القدم بعد ظهر كل يوم. لكن أولئك الصبية كانوا قطيعًا من الذئاب، فلم يرحبوا بنا. ومع أننا لم نعرف منهم إلا واحدًا فقط، وهو كايودي، الذي يعيش على بُعد بضعة شوارع منا، فإنهم كانوا يعرفوننا ويعرفون أسرتنا واسم والدينا، وكانوا يعنفوننا ويجلدوننا كل يوم بسياط الكلمات. وعلى الرغم من مهارات إيكينا المذهلة في المراوغة، وعجائب أوبمبي في حراسة المرمى، وصفونا بأننا «هواة». وكثيرًا ما سخروا أيضًا من والدنا «السيد أغوو»، بوصفه رجلًا ثريًّا يعمل في البنك المركزي النيجيري، وبوصفنا أطفالًا مدللين، وأطلقوا على أبي لقب «بابا أونيل»، وهو اسم أحد أبطال مسلسل تلفزيوني شهير بلغة اليوروبا لديه ست زوجات وواحد وعشرون ابنًا. وهكذا، يسخر الاسم من أبي الذي كانت رغبته في الحصول على الكثير من الأبناء قد أصبحت أسطورة في حيِّنا. كما أن الاسم بلغة اليوروبا يعني «السرعوف المصلِّي»، وهي حشرة خضراء هيكلية قبيحة. لم نستطع تحمل تلك الإهانات، ولما كانوا يفوقوننا عددًا ولا نستطيع الانتصار عليهم في معركة، فقد توسل إيكينا إليهم مرارًا على طريقة الأطفال المسيحيين أن يتوقفوا عن إهانة والدينا، خصوصًا أنهما لم يرتكبا شيئًا في حقهم، لكنهم استمروا. وذات مساء نطح إيكينا أحد الأولاد برأسه، وقد جُن جنونه عند ذكره للقب، وفي ردة فعل سريعة ركل الصبي إيكينا في معدته وأطبق عليه، ورسمَت أقدامهما في لحظة قصيرة تلافيف غير مكتملة حول الملعب المغطى بالرمال وهما يدوران معًا، وفي النهاية دفع الولد إيكينا ورمى حفنة من التراب على وجهه، فهتف بقية الصبية ورفعوا الولد عاليًا، بينما ذابت أصواتهم في كورال نصر تتعالى معه أصوات الـ«بوو» والـ«أووه أووه». وعدنا إلى البيت في ذلك المساء مضروبين، ولم نرجع إلى هناك مرة أخرى.

بعد هذه المعركة، سئمنا الخروج. وبناءً على اقتراح مني، توسلنا إلى أمي حتى تقنع أبي بإخراج جهاز «الفيديو غيم» لنلعب لعبة «المعركة المميتة»، وكان قد صادره في العام الماضي، وخبأه في مكان ما، بعدما عاد بوجا - الذي اعتاد تحقيق المركز الأول في فصله - إلى البيت وقد كُتب في شهادته بالحبر الأحمر: «المركز الرابع والعشرون» مع تحذير «احتمال تكرار الأمر». ولم يحقق إيكينا نتائج أفضل؛ فكان السادس عشر بين أربعين تلميذًا، وجاءت شهادته مرفقة بخطاب شخصي لأبي من مُدرسته السيدة بوكي. قرأ أبي الخطاب فأصابته نوبة غضب لم أسمع منها إلا كلمات: «رحماك يا ربي! رحماك يا ربي!»، وظل يرددها باستمرار. بعدها صادر الألعاب، وحرمنا إلى الأبد من لحظات كثيرًا ما تجعلنا ندور حول أنفسنا من فرط الإثارة، صارخين وهاتفين عندما يأمر مُعلِّق اللعبة غير المرئي قائلًا: «اقضِ عليه»، وعندها يُوسع العفريت الغالب العفريت المغلوب ضربًا، فيركله إلى السماء، أو يقطعه إلى شظايا بشعة من العظام والدماء. بعد ذلك تئز الشاشة وقد ظهرت عليها جملة «إصابة قاتلة» بحروف من لهب. ذات مرَّة، هرع أوبمبي من الحمَّام، ولم يكن قد انتهى من قضاء حاجته، ليحضر معنا ونحن نصرخ بلكنة أمريكية تقلد التعليق الصوتي للجهاز: «هذه إصابة قاتلة»، وقد عاقبته أمي لاحقًا عندما اكتشفت أنه أسقط قطعًا من البراز على البساط من دون أن ينتبه.

تملكنا الشعور بالإحباط، فحاولنا مرَّة أخرى أن نجد نشاطًا جسديًّا نملأ به ساعات ما بعد المدرسة التي نتحرر فيها من

قواعد أبي الصارمة. وهكذا، جمعنا أصدقاءنا من الجيران لنلعب كرة القدم في الفناء الواقع خلف دارنا. دعونا كايودي، الصبيَّ الوحيد الذي تعرفنا عليه بين قطيع الذئاب في ملعب البلدية، ذا الوجه الخنثوي والابتسامة اللطيفة الدائمة. وانضم إلينا أيضًا جارنا إغبافي، وابن عمه توبي، وهو صبي نصف أصم، تنهك معه أحبالك الصوتية فيسألك: «**جو، كيني أو نسو؟** - معذرة، ماذا قلت؟»، وله أذنان كبيرتان تبدوان كأنهما ليستا جزءًا من جسده، ونادرًا ما كان يشعر بالإهانة، ربما لأنه لا يسمعنا أحيانًا ونحن نقول همسًا: «**إيليتي إيهورو** - صاحب الأذن الأرنبية». كنا نجري باستمرار في الملعب بطوله وعرضه، ونحن نرتدي قمصانَ كرة قدم رخيصة مطبوعًا عليها أسماؤنا الكروية، ونلعب كأننا معاتيه، وكثيرًا ما نطيح بالكرة إلى داخل بيوت الجيران، ثم نُقدِم على محاولات خرقاء لاستعادتها. وفي كثير من الأحيان، نصل إلى الأماكن في اللحظة المناسبة لنشهد الجار وهو يمزق الكرة، غير معنيٍّ بتوسلاتنا ليعيدها إلينا؛ وغالبًا ما تكون الكرة قد صدمت شخصًا أو حطمت شيئًا. ذات مرَّة، طارت الكرة فوق سور أحد الجيران، وصدمت رجلًا مُقعدًا في رأسه فأسقطته عن كرسيه. وفي أخرى، حطمت الكرة زجاج نافذة.

عندما يمزق الجيران كرة من كراتنا، نشترك معًا فنجمع النقود ونشتري واحدة جديدة، إلا كايودي، الذي أتى من منطقة في البلدة شديدة الفقر ومترامية الأطراف، فلم يستطع المساهمة حتى بـ«كوبو»[(5)] واحد. كان يرتدي غالبًا شورتات بالية وممزقة، ويعيش مع والديه المسنين، وهما زعيمان روحيان لكنيسة المسيح الرسولية، في بناية غير مكتملة من طابقين عند منعطف الطريق إلى مدرستنا. ولأنه لا يستطيع المساهمة، راح يصلِّي لكل كرة، طالبًا من الله أن يساعدنا على الاحتفاظ بها لمدة أطول ويمنعها من تجاوز الفناء.

اشترينا ذات يوم كرة بيضاء جميلة وجديدة، عليها شعار دورة أتلانتا للألعاب الأولمبية في 1996. وبعد أن صلَّى كايودي، بدأنا اللعب، وبعد ساعة واحدة من اللعب، وجَّه بوجا ركلة للكرة فهبطت في دار مسوَّرة يمتلكها أحد الأطباء. حطمت الكرة إحدى نوافذ المنزل المترف محدثةً صوتًا صاخبًا، مفزعةً حمامتين كانتا نائمتين على السطح لتنطلقا هاربتين في طيران محموم. انتظرنا على مبعدة لكي نحتفظ بمسافة كافية للفرار إذا خرج أحدهم لملاحقتنا. وبعد برهة، توجه إيكينا وبوجا إلى المنزل، بينما انحنى كايودي وصلَّى للرب لكي يتدخل. عندما وصل المبعوثان إلى الدار، بدأ الطبيب، وكأنه ينتظرهما، في المطاردة، فأطلقنا جميعًا سيقاننا للريح هاربين. وعرفنا، بعد وصولنا إلى البيت في ذلك المساء، لاهثين ومتعرقين، أن قصتنا مع كرة القدم قد انتهت.

***

أصبحنا صيادين، بعدما عاد إيكينا من المدرسة في الأسبوع التالي متأثرًا بالفكرة الجديدة. كان ذلك في نهاية يناير، لأنني أتذكر أننا احتفلنا بعيد ميلاد بوجا الرابع عشر، في 18 يناير 1996، في عطلة نهاية الأسبوع، بكعكة مخبوزة في البيت ومشروبات خفيفة بدلًا من العشاء. كانت أعياد ميلاده تأتي في «شهر التساوي في العمر»، وهي فترة زمنية مدتها شهر يتساوى فيها مؤقتًا في العمر مع إيكينا، المولود في 10 فبراير، قبله بعام واحد. سمع إيكينا من سولومون زميله في الفصل ما حكاه عن مباهج الصيد، وقص علينا إيكينا وصف سولومون للرياضة بالخبرة المشوقة والمجزية أيضًا، حيث يبيع بعضًا من السمك ويكسب قليلًا من المال. وقد افتتن إيكينا أكثر؛ لأن الفكرة ولَّدت عنده إمكانية بعث السمكة «يويودون». في حوض السمك، الذي كان قابعًا ذات مرَّة بجوار التلفزيون، استُضيفت سمكة «سيمفيسودون» (قُرص) جميلة وخارقة للطبيعة، وشبيهة بمستعمرة من الألوان: البني، والبنفسجي، والقرمزي، والأخضر الشاحب. وقد أطلق عليها أبي اسم «يويودون» بعدما نطق أوبمبي كلمة شبيهة بها محاولًا نطق «سيمفيسودون»، وهو نوع السمكة. رفع أبي الحوض بعدما قام إيكينا وبوجا، في محاولة لتحرير السمكة من «مياهها القذرة»، بسكب المياه وتغييرها بمياه شُرب نظيفة، وقد عادا لاحقًا فلاحظا أن السمكة لم تعد ترتفع فوق صف الحصوات والمرجانيات المتألقة.

بعد أن أخبر سولومون شقيقنا بأمر الصيد، تعهد إيكينا أنه سيقبض على «يويودون» جديدة، وذهب مع بوجا إلى

بيت سولومون في اليوم التالي، وعادا يهذيان حول **هذه** السمكة و**تلك** السمكة. اشتريا صنارتي صيد مزودتين بخطاطيف من مكان دلَّهما عليه سولومون، ثم وضعهما إيكينا على الطاولة في غرفتهما، وراح يشرح كيفية استخدامهما. كانت الصنارة مكونة من عصا خشبية مربوط في قمتها خيط، والخيط يحمل خطاطيف حديدية في طرفه، وذكر إيكينا أن هذه الخطاطيف هي التي تُعلق فيها الطعوم: ديدان الأرض، أو صراصير، أو فتات الخبز، أو أي شيء آخر، لكي تغوي الأسماك وتوقعها في الفخ. وبدءًا من اليوم التالي، وعلى مدى أسبوع كامل، أصبحا يخرجان كل يوم بعد المدرسة، ويقطعان الطريق المتعرج الطويل إلى نهر «أومي-ألا» في نهاية حيِّنا، مخترقين الفناء خلف بيتنا الذي يعطن في فصل المطر ويصبح موطنًا لقبيلة من الخنازير. كانا يذهبان برفقة سولومون وصبية آخرين من الشارع، ويعودان بصفائح مليئة بالأسماك. في البداية، لم يسمحا لي أنا وأوبمبي بالذهاب معهما، على الرغم مما شعرنا به من إثارة عند رؤية الأسماك الملونة الصغيرة التي نجحا في اصطيادها. وذات يوم، قال إيكينا لي ولأوبمبي: «اتبعانا، وسوف نجعل منكما صيادين!». وتبعناهما.

بدأنا نذهب إلى النهر كل يوم بعد المدرسة برفقة أطفال آخرين من الشارع في موكب يقوده سولومون وإيكينا وبوجا. وكان هؤلاء الثلاثة عادةً ما يلفون الصنانير في أسمال أو قطع ربَّا قديمة، بينما نحمل نحن - كايودي، وإغبافي، وتوبي، وأوبمبي، وأنا - جُعبات بداخلها ملابس الصيد، وأكياس نايلون تحتوي على ديدان وصراصير ميتة نستخدمها كطُعم، وصفائح مشروبات فارغة نحفظ فيها الأسماك والشراغف التي نصطادها. كنا نمضي معًا إلى النهر، فنخوض دروبًا داخل دغل كثيف عامر بأسراب من نباتات القرَّاص الشائكة الميتة التي تجلد سيقاننا العارية وتُخلِّف ندوبًا بيضاء على جلودنا. وكانت لسعات نباتات القرَّاص على أجسادنا تنسجم مع اسم العشبة المهيمنة في المنطقة، «**إيسان**»، وهي كلمة تعني «الانتقام» أو «الثأر» بلغة اليوروبا. كنا نقطع تلك الدروب في صف واحد، وفور أن نتجاوز تلك النباتات، ننطلق في اتجاه النهر مثل المجانين. كان الصبية الأكبر بيننا، سولومون وإيكينا وبوجا، يغيرون ملابسهم ويرتدون ملابس الصيد المتسخة، ثم يقفون بالقرب من النهر، ويمسكون بصنانيرهم فوق الماء حتى تغوص الخطاطيف الملغمة بالطُّعم بداخله. ومع أنهم كانوا يصطادون مثل رجال الأيام الخوالي الذين عرفوا النهر في مَهده، فلم يحصدوا مع ذلك إلا القليل من البزريات التي لا تتجاوز التمرة في حجمها، وبعض «البكالاه» البُنية صعبة الصيد، وبعض «البلطي» في أوقات نادرة. أما نحن، فكنا نكتفي باغتراف بعض الشراغف بصفائح المشروبات. أحببت الشراغف، بأجسادها الزلقة، ورؤوسها المبالغ في حجمها، وشكلها الهلامي كأنها نسخة مصغرة من الحيتان. كنت أراقبها بانبهار وهي عالقة بلا حراك تحت سطح الماء، وتسودُّ أصابعي من فرط اللزوجة الرمادية التي تلتمع على جلودها. وكنت ألتقط أصدافًا مرجانية أو أصدافًا خالية لمفصليات أرجل ماتت منذ زمن طويل. أمسكنا بحلزونات مستديرة تشبه الكائنات البدائية، وأسنان بعض الحيوانات، معتقدين أنها تنتمي إلى عصر سحيق، وقرر بوجا بشكل قاطع أنها أسنان ديناصور وأخذها معه إلى البيت، وأجزاء من جلد طرحته إحدى أفاعي الكوبرا على ضفة النهر، وكل شيء نجده مثيرًا للاهتمام.

نجحنا مرَّة واحدة فقط في اصطياد سمكة كبيرة يمكننا بيعها، وكثيرًا ما فكرت في ذلك اليوم. كان سولومون قد جذب السمكة العملاقة الأكبر من أي شيء رأيناه في «أومي-ألا»، وبعدها ذهب إيكينا وسولومون إلى سوق المواد الغذائية القريبة، وعادا إلى النهر بعد أكثر من نصف ساعة بقليل ومعهما خمس عشرة نايره، ورجعت أنا وإخوتي إلى البيت بالنايرات الست نصيبنا من عملية البيع، فرحين بلا حدود. ومنذ ذلك الوقت بدأنا نصطاد بجدية أكبر، وكثيرًا ما سهرنا إلى وقت متأخر من الليالي لنناقش خبراتنا.

كنا نصطاد بحماسة هائلة، وكأن جمهورًا مخلصًا يتجمَّع يوميًّا على ضفة النهر لكي يشاهدنا ويشجعنا. لم نهتم لرائحة المياه الآسنة، والحشرات المجنحة التي تتجمَّع في عناقيد حول الضفاف في كل مساء، ومشهد الطحالب المثير للغثيان، وأوراق الشجر التي تُشكِّل ما يشبه خريطة من البلدان المضطربة عند الطرف البعيد من ضفة النهر حيث تغوص الأشجار داخل المياه كسيقان مصابة بالدوالي. نذهب كل يوم بصفائح يعلوها الصدأ، وحشرات ميتة، وديدان متحللة،

مرتدين أسمالًا وملابس قديمة، فنستمد فرحة بالغة من هذا الصيد، على الرغم من الصعوبات والعائد الزهيد.

عندما أنظر اليوم إلى ذلك، وقد رُزقت بأطفال من صلبي، أُدرك أن حياتنا وعالمنا تغيرا في إحدى الرحلات إلى ذلك النهر، فهناك بدأ الزمن يكتسب أهمية، وهناك أصبحنا صيادين.

الجنرال ساني أباتشا، رئيس نيجيريا بين عامي 1993، و1998، وزوجته مريم أباتشا. (المترجم).

فيلا: «فيلا كوتي»، موسيقي وناشط حقوقي وسياسي نيجيري معروف. (المترجم).

ريوبين أباتي: صحفي وإعلامي نيجيري. (المترجم).

الربَّا: قطعة من القماش تُلف حول الجسد. (المترجم).

الكوبو: واحد على مائة من الـ«نايره». (المترجم).

2
النهر

«**أومي**-ألا» كان نهرًا رهيبًا.

انصرف عنه سكان بلدة أكوري منذ زمن طويل، مثل أم هجرت أطفالها، وكان من قبل نهرًا نقيًّا يوفر للمستوطنين الأوائل الأسماك ومياه الشرب النظيفة. يحيط النهر بأكوري، ويتلوى كثعبان في طولها وعرضها. ومثل الكثير من أنهار أفريقيا، اعتقد الناس في الماضي أن «أومي-ألا» إله من الآلهة، فعبدوه، ونصبوا باسمه المعابد، وتوددوا إليه طالبين شفاعة وهداية «يموجا»، و«أوشا»، والحوريات، وغيرها من الأرواح والآلهة التي تسكن المياه. ثم تغيَّر الأمر عندما جاء المستعمرون من أوروبا بالإنجيل، فانتزع من «أومي-ألا» أتباعه، وبدأ الناس، وقد أصبح أغلبهم مسيحيين، ينظرون إليه بوصفه مكانًا شريرًا، ومهدًا لطَّخته القذارة.

أصبح النهر مصدرًا للشائعات الخبيثة، ومنها أن الناس يمارسون كل أنواع الطقوس الوثنية على ضفتيه. وتلك الشائعة دعمتها تقارير عن جثث وحيوانات نافقة، وغيرها من المواد الطقوسية التي تطفو على سطح النهر أو ترقد على ضفتيه. وفي أوائل عام 1995، عُثر على جثة مشوهة لامرأة في النهر، وقد بُترت أجزاء حيوية من جسدها، فأصدر مجلس البلدة حظر تجوال على النهر من الغسق إلى الفجر، وهُجر النهر. ثم تراكمت الوقائع واحدة بعد أخرى على مر السنين، ملوثة تاريخ النهر، وملطخة اسمه، إلى درجة أن مجرد ذكره مع مرور الوقت أصبح يثير الاحتقار. ولم يساعده أن استقرت بالقرب منه طائفة دينية تُسمى «الكنيسة السماوية» أو «كنيسة الرداء الأبيض»، فقد كانت سيئة السُّمعة، وأتباعها يعبدون أرواح الماء، ويتجولون بأقدام حافية.

أدركنا أن والدينا سيعاقباننا أشد العقاب إن اكتشفا أننا نذهب إلى النهر. مع ذلك لم نفكر في الأمر حتى رأتنا جارة لنا ونحن في طريقنا إلى النهر، وهي امرأة تتجول في البلدة لتبيع الفول السوداني المحمص على صينية تحملها فوق رأسها، فأبلغت أمي. كان ذلك في أواخر شهر فبراير، وقد بدأنا الصيد قبلها بنحو ستة أسابيع. في ذلك اليوم، أمسك سولومون بسمكة كبيرة، قفزنا لرؤيتها تتلوى وتقطر منها المياه محاولةً الانفلات من الشص، وانطلقنا نغني أغنية الصيادين التي اخترعها سولومون. كنا نغنيها دائمًا في لحظات الذروة، مثل لحظة التفاف السمكة حول نفسها محتضرة.

كانت الأغنية تنويعة على الأنشودة الشهيرة التي تغنيها الزوجة الزانية للقس إيشاورو، بطل مسلسل «القوة المطلقة»، أشهر مسلسل مسيحي في أكوري في ذلك الوقت، وهي تتذكر الكنيسة بعد نفيها بسبب خطيئتها. ومع أن الفكرة كانت فكرة سولومون، فالاقتراحات التي شكَّلت في النهاية كلمات الأغنية خرجت منا جميعًا. فعلى سبيل المثال، اقترح بوجا وضع «نحن، الصيادون، أمسكنا بكِ» بدلًا من «لقد أمسكنا بكِ». واستبدلنا باعترافها، بقدرة الرب على حفظها في مواجهة غوايات الشيطان، قدرتنا على إحكام قبضتنا على السمكة بعد صيدها فلا ندعها تفلت. كانت فرحتنا بتلك الأغنية عارمة حتى إننا أحيانًا كنا ندندن بها في البيت أو المدرسة:

بي أوتيوو أو كي أو جو،
كي أو جا،
آتي مو أو،
أو مالي لو مو.
شي بي آتي مو أو؟
أو مالي لي لو مو أو.
أوا، أبيجا، تي مو أو.
أوا، أبيجا،
تي مو أو، أو ما لي لو مو أو!

ارقصي كما شئتِ،
قاومي كما أردتِ،
لقد أمسكنا بكِ،
ولن تستطيعي الهرب.
ألم نمسك بكِ؟
بالتأكيد لن تستطيعي الهرب.
نحن، الصيادون، أمسكنا بكِ.
نحن، الصيادون،
أمسكنا بكِ، ولن تستطيعي الهرب!

غنينا الأغنية بصوت عالٍ جدًّا بعد صَيْدة سولومون في تلك الليلة، حتى إن شيخًا مُسنًّا، هو كاهن الكنيسة السماوية، جاء إلى النهر حافي القدمين، وخُطى قدميه خافتة كأنهما لشبح. عندما بدأنا زيارة النهر واكتشفنا تلك الكنيسة داخل نطاقنا، أدرجناها فورًا في مغامراتنا. كنا نختلس النظر إلى المصلين من النوافذ المشرعة المصنوعة من خشب الماهوغني، التي تفتح على قاعة الكنيسة الصغيرة ذات الطلاء الأزرق المتقشر، ونقلد حركاتهم ورقصاتهم المحمومة. رأى إيكينا وحده أن ذلك فعل مشين تجاه الممارسة المقدسة لطائفة دينية. كنت الأقرب إلى الممر الذي جاء منه الشيخ المُسن، وأول من رآه. وكان بوجا على الجانب الآخر من النهر، وعندما وقع بصره على الرجل، ألقى بالصنارة وهرع إلى الشاطئ. حُجب جزء من النهر، حيث نصطاد، عن بقية الشارع بصفوف ممتدة من الشجيرات على الجانبين، ولم يكن بإمكانك رؤية المياه إلى أن تسلك الممر المليء بالأخاديد، والمشقوق وسط الشجيرات، من الشارع المجاور. توقف الكاهن بعد أن دخل الممر واقترب، وقد لاحظ اثنتين من صفائح المشروبات الخاصة بنا موضوعتين في حفرتين ضحلتين حفرناهما بأيدينا. حدق إلى أسفل ليرى محتويات الصفيحتين، والذباب يحوم من حولهما، ثم استدار مبتعدًا وهو يهز رأسه.

سأل الكاهن بلغة اليوروبا ولكنة غريبة على مسامعي: «ما هذا؟! لماذا تصيحون مثل عصبة من السكارى؟ ألا تعرفون أن هناك بيتًا من بيوت الرب على الجانب الآخر مباشرة؟». أشار في اتجاه الكنيسة، وهو يستدير بجسده كاملًا إلى الممر: «ألا يوجد لديكم احترام للرب؟ إيه؟».

تربينا جميعًا على أنه من الوقاحة أن نرد على الأكبر سنًّا حين يتهمنا بشيء، حتى إذا كان لدينا رد. وبدلًا من أن يرد سولومون، اعتذر.

قال، وهو يفرك راحتيه معًا: «نعتذر يا بابا. سنكف عن الصياح».

«ما الذي تصطادونه من هذه المياه؟»، هكذا سأل الكاهن، متجاهلًا سولومون، ومشيرًا إلى النهر الذي أصبحت مياهه فراشًا رماديًّا معتمًا. «شراغف، بزريات، ماذا؟ لماذا لا تعودون جميعًا إلى بيوتكم؟». طرف بعينيه، مُقلبًا نظراته فينا. كبت إغبافي ضحكة، فزجره إيكينا وهو يغمغم هامسًا: «أبله»؛ لكن بعد فوات الأوان.

قال الرجل وهو يحدق في إغبافي: «هل تظن الأمر مضحكًا؟ حسنًا، إنني أشفق على أولياء أموركم، أنا على يقين أنهم لا يعرفون أنكم تجيئون إلى هنا، وسوف يسوؤهم اكتشاف ذلك. ألم تسمعوا أن الحكومة منعت الناس من المجيء إلى

هنا؟ آهٍ من أطفال هذا الجيل!». دار بنظراته ثانيةً وعلى وجهه أمارات الدهشة، ثم قال: «سواء انصرفتم أم بقيتم، لا ترفعوا أصواتكم مرَّة أخرى. هل تسمعون؟».

بتنهيدة عميقة وهزة من رأسه، استدار الكاهن ومضى مبتعدًا. انفجرنا في الضحك، مقلدين الرداء الأبيض وهو يرفرف على هيكله النحيل، وقد منحه مظهر طفل في معطف واسع عليه. ضحكنا من الرجل المخيف الذي لم يستطع تحمل رؤية السمك والشراغف (لأنه حدق في السمك برعب)، وتخيلنا رائحة فمه (حتى إن لم يقترب أحدنا بما يكفي لشم أنفاسه).

قال كايودي: «هذا الرجل يشبه «إيا أولودي»، المجنونة التي يقول الناس إنها أسوأ من ذلك». كان يحمل صفيحة من السمك والشراغف، تميل في يده، فغطاها ليمنعها من الانسكاب. وكان أنفه يسيل لكنه بدا غير واعٍ بذلك، فصارت الإفرازات البيضاء الحليبية عالقة أسفل أنفه. «إنها ترقص دائمًا في أرجاء البلدة. ترقص «الماكوسا» في أغلب الوقت. قبل أيام، طاردوها ليخرجوها من السوق الكبيرة المفتوحة في «أوجا-أوبا»، لأنهم قالوا إنها قرفصت في وسط السوق، إلى جوار عريشة أحد باعة اللحم، وتغوطت».

ضحكنا على هذا، وراح بوجا يرتعش وهو يضحك، وكأنما استنزف الضحك كل طاقته، فأسقط يديه على ركبتيه وهو يلهث. كنا لا نزال نضحك عندما لاحظنا أن إيكينا، الذي لم ينطق كلمة منذ قاطع الكاهن صيدنا، قد خرج من الماء على الضفة الأخرى، حيث كانت حشائش الإيسان الذاوية تسجد غاطسة في النهر. شرع في فك حزام الشورت الذي يرتديه عندما انتبهنا إليه. رحنا نراقبه وهو يخلع ملابس الصيد التي تقطر بالماء، ويجفف نفسه.

قال سولومون: «إيكي، ماذا تفعل؟».

أجاب إيكينا بحسم، وكأنه ينتظر السؤال بفارغ الصبر: «سأرجع إلى البيت. أريد أن أذهب لأدرس. أنا طالب ولست صيادًا».

قال سولومون: «الآن؟! أليس الوقت مبكرًا ونحن...».

لم يكمل سولومون جملته لأنه فهم. كانت بذرة الشعور الذي شرع إيكينا الآن في التصرف بمقتضاه - اللامبالاة بالصيد - قد انغرست في الأسبوع السابق، وقد أقنعناه بالمجيء معنا إلى النهر في ذلك اليوم. وهكذا، عندما قال: «أريد أن أذهب لأدرس. أنا طالب ولست صيادًا»، لم يسأله أحد مزيدًا من الأسئلة. ولأننا أنا وبوجا وأوبمبي لم نكن نفعل أي شيء بغير موافقة إيكينا، تبعناه، ورُحنا نرتدي ملابسنا من أجل العودة. حزم أوبمبي الصنانير في قطع الربَّا البالية التي سرقناها من أحد صناديق أمي القديمة، والتقطتُ أنا الصفائح وكيس النايلون وبداخله الديدان المتبقية تتلوى وتنازع وتحتضر ببطء.

«هل ستغادرون حقًّا؟»، سأل كايودي ونحن نتبع إيكينا، الذي لم يبدُ حريصًا على انتظارنا نحن إخوته.

قال سولومون: «لماذا ترحلون الآن؟ هل هذا بسبب الكاهن، أم بسبب اليوم الذي التقيتم فيه أبولو؟ ألم أطلب منكم ألا ننتظر؟ ألم أطلب منكم ألا ننصت إليه؟ ألم أقل لكم إنه مجرد رجل مخبول ومجنون وشرير؟».

لم يرد أحدٌ منا بكلمة، ولم نستدر إليه. تابعنا سيرنا ببساطة، يتقدمنا إيكينا ممسكًا فقط كيسًا من النايلون الأسود يضع فيه شورت الصيد الخاص به، وقد ترك صنارته عند الضفة، لكن بوجا التقطها وحملها في الربَّا الخاصة به.

سمعت إغبافي يقول من خلفنا: «دعهم يرحلون، فلن نحتاج إليهم. نستطيع أن نصطاد بأنفسنا».

بدأوا يهزأون منا، لكن المسافة سرعان ما فصلتنا عنهم، وبدأنا نسير في الممرات صامتين. وبينما نمضي في طريقنا تساءلت: ما الذي حدث لإيكينا؟ كانت هناك أوقات لا أستطيع فيها فهم تصرفاته، أو قراراته، وكنت أعتمد غالبًا على أوبمبي ليساعدني في شرح الأمور.

بعد لقائنا بأبولو في الأسبوع الماضي، الذي أشار إليه سولومون لتوِّه، حكى لنا أوبمبي قصة رأى أنها المسؤولة عن التغير المفاجئ الذي حل بإيكينا. كنت أتفكر في قصته عندما صرخ بوجا: «يا إلهي! إيكينا، انظر، ماما إيابو!». كان قد رأى

إحدى جاراتنا، بائعة الفول السوداني، جالسة على مقعد مستطيل أمام الكنيسة مع الكاهن الذي جاء إلى النهر قبلها. وعندما أطلق بوجا تنبيهه، كان الأوان قد فات، ورأتنا المرأة.

نادتنا ونحن نمر هادئين مثل سجناء: «آه، آه، إيكي. ماذا تفعلون هنا؟».

أجاب إيكينا، وهو يسرع الخطى: «لا شيء!».

نهضت على قدميها، مثل نمر، ذراعاها مرفوعتان وكأنها ستنقض علينا: «ماذا في أيديكم؟ إيكينا، إيكينا! أنا أكلمك».

لم يكترث لها إيكينا، وهرول على الدرب ونحن وراءه. سلكنا المنعطف القصير خلف إحدى الدور، حيث فرع شجرة موز قصمته العاصفة، ينحني مثل خطم دولفين مثلوم. وفور وصولنا إلى هناك، استدار إلينا إيكينا وقال: «هل رأيتم هذا؟ هل رأيتم ما سببته حماقتكم؟ ألم أقل إننا يجب أن نكف عن الذهاب إلى ذلك النهر الغبي؟ لكن لم تنصتوا!». وضع يديه إحداهما فوق الأخرى على رأسه: «ستشي بنا وتخبر أمنا بكل تأكيد. **هل تراهنان؟**»، ثم ضرب جبهته بيده: «هل تريدون المراهنة؟».

لم نرد عليه، فتابع: «هل ترون؟ أعينكم أبصرت الآن، أليس كذلك؟ **سوف** ترون».

دقت هذه الكلمات في أذني ونحن نمضي، فأثارت خوفي لأنها بالتأكيد ستبلغ أمي عنا. المرأة صديقة لأمي، وهي أرملة تُوفِّي زوجها في سيراليون وهو يحارب مع قوات الاتحاد الأفريقي، وترك لها تركة بائسة انقسمت نصفين بيد أسرة زوجها، وابنين في عمر إيكينا يعانيان من سوء التغذية، وبحرًا من الاحتياجات التي لا تنتهي، دفعت أمي إلى أن تتقدم لمساعدتها من وقت إلى آخر. بالتأكيد سترد ماما إيابو الجميل وتشي لأمي بلعبنا عند النهر الخطير. كنا خائفين جدًّا.

***

لم نذهب إلى النهر بعد المدرسة في اليوم التالي، وبقينا في غرفتينا، منتظرين عودة أمي. ذهب سولومون والآخرون إلى هناك على أمل أن نلحق بهم، لكن بعد أن انتظروا وقتًا وأيقنوا أننا لن نأتي، عادوا للسؤال عنا. نصحهم إيكينا، موجهًا حديثه إلى سولومون، أن يتوقفوا عن الصيد. وعندما اعترض سولومون على نصيحته، أعطاه إيكينا صنارته. ضحك سولومون عليه، ومضى بسيماء من لديه مناعة تجاه ما عدده إيكينا من أخطار تترصد كالظلال حول «أومي-ألا». ظل إيكينا يراقبهم وهم يبتعدون، ويهز رأسه شفقة على هؤلاء الصبية الذين يصممون على مواصلة السير في هذا الدرب المشؤوم.

عندما عادت أمي إلى البيت في عصر ذاك اليوم، مبكرًا عن موعدها المعتاد، فهمنا على الفور أن الجارة أبلغت عنا. كانت أمي منزعجة كثيرًا من وطأة غفلتها على الرغم من عيشها معنا في البيت نفسه. نعم، لقد أخفينا صنعتنا طويلًا جدًّا، مخبئين السمك والشراغف تحت السرير ذي الطابقين في غرفة إيكينا وبوجا، لأننا نعرف الألغاز المحيطة بـ«أومي-ألا». غطينا على رائحة الماء الآسن، وعلى رائحة السمك الميت المثيرة للغثيان، حيث إن الأسماك التي اصطدناها كانت تافهة وواهية، ولم تستطع البقاء أكثر من يوم بعد اصطيادها. ومع أننا حفظناها في ماء جلبناه من النهر، إلا أنها سرعان ما نفقت في صفائح المشروبات. كنا نعود من المدرسة كل يوم لنجد غرفة إيكينا وبوجا ممتلئة بزنخ السمك والشراغف الميتة، فنرميها مع الصفيحة في مقلب القمامة خلف سور دارنا، ونحن نتحسَّر على الصفائح الفارغة صعبة المنال.

ظللنا أيضًا نخفي الجروح والإصابات العديدة التي أصابتنا أثناء تلك الرحلات، وقد حرص إيكينا وبوجا على ألا تكتشفها أمي. ذات مرَّة استجوبَت إيكينا عن السبب الذي جعله يضرب أوبمبي بعدما سمعه يغني أغنية الصيادين في الحمَّام، فسارع أوبمبي بالتغطية عليه قائلًا إن إيكينا ضربه لأنه وصفه بـ«رأس الخنزير»، ما جعله يستحق سخط إيكينا. لكن إيكينا كان قد ضربه لأنه رأى من الحماقة أن يغني أوبمبي الأغنية في البيت في وجود أمي، مجازفًا بكشف سرنا. ثم حذر إيكينا أوبمبي من أنه إذا ارتكب هذا الخطأ ثانية، فلن يرى النهر مجددًا. هذا التحذير، وليس اللطمة الخفيفة، هو ما جعل أوبمبي يبكي. وعندما انحشرت إصبع بوجا داخل المخلب الحاد لأحد سرطانات البحر بالقرب من

ضفة النهر، في الأسبوع الثاني من مغامرتنا، وغمر الدم صندله، كذبنا على أمي، وقلنا لها إنه أصيب في مباراة لكرة القدم. وفي الحقيقة، كان سولومون قد سحب مخلب السرطان من لحمه بعد أن طلب منا جميعًا، باستثناء إيكينا، أن نشيح بوجوهنا. وكان إيكينا، الذي أثارت غضبه رؤية نزيف بوجا الوافر والخوف من أن ينزف حتى الموت على الرغم من تطمينات سولومون الحاسمة بأن ذلك لن يحدث، قد هشم السرطان تهشيمًا، وهو يلعنه ألف مرَّة لأنه سبَّب هذا الأذى الخطير لبوجا. تألمت أمي لأننا نجحنا في إبقاء الأمر سرًّا لوقت طويل كهذا - أكثر من ستة أسابيع، وقد كذبنا وقلنا إنها ثلاثة فقط - ولم تشك خلاله مجرد شك أننا صيادون.

راحت أمي في تلك الليلة تذرع البيت بخطى ثقيلة، وجريحة، ولم تُقدِّم لنا العشاء.

قالت، وهي تروح وتجيء، من المطبخ إلى غرفتها وبالعكس، ويداها ثابتتان، وروحها كسيرة: «أنتم لا تستحقون أن تأكلوا شيئًا في هذا البيت. اذهبوا وكلوا السمك الذي اصطدتموه من ذلك النهر الخطير، واشبعوا به».

أغلقت باب المطبخ وأوصدته بالمفتاح لتمنعنا من الدخول بعد ذهابها إلى الفراش، لكنها كانت مرتبكة جدًّا، حتى إنها ظلت تناجي نفسها كما تفعل عادة حين تقضي الليالي مهمومة. كل كلمة سقطت من فمها في تلك الليلة، وكل صوت خرج منها، كان يخترق عقولنا مثل سم يتغلغل في العظام.

«سوف أخبر إيمي بما فعلتم. أنا على يقين أنه إذا سمع هذا، سيترك كل شيء آخر ويرجع إلى هنا. أنا أعرفه، أعرف إيمي. انتظروا.. وسوف.. ترون». طرقعَت بإصبعيها، وسمعنا صوتها وهي تتمخط في طرف الربَّا الخاصة بها. «تظنون أنني سأموت لو أصابكم سوء أو غرقتم في ذلك النهر؟ لن أموت لأنكم اخترتم إيذاء أنفسكم. لا. **أنيا نكي ناء أكوا ننا يا ايمو، نكي نيليدا إينا نني يا نتي، أوغولو-أوما نكي نداغوورغوو غائغوبوتا يا، أومو-أوغو غائيري كوا يا** - العين المستهزئة بأبيها، والمحتقرة إطاعة أمها، تقوِّرها غربان الوادي، وتأكلها فراخ النسر».

اختتمت أمي الليلة بتلك الآية من «سفر الأمثال»، وهي أكثر آية مرعبة كنت أعرفها في الكتاب المقدس كله. حين أنظر الآن إلى الوراء، أُدرك أن طريقة استشهادها بالآية، بلغة الإغبو التي شبَّعت الكلمات بسموم الحقد، هي التي جعلتها مرعبة إلى هذا الحد. بخلاف هذا، كانت أمي تقول كل شيء آخر بالإنجليزية بدلًا من الإغبو، اللغة التي يتواصل بها والدانا معنا، بينما نتكلم ونحن معًا باليوروبا، اللغة المحلية في أكوري. أما الإنجليزية، على الرغم من كونها اللغة المعتمدة لنيجيريا، فهي لغة رسمية يتحدث بها الغرباء والأباعد، وإذا خاطبتَ بها أحد أصدقائك أو أقاربك فأنت تضع مساحة بينك وبينه. لذا كان والدانا نادرًا ما يتحدثان الإنجليزية، إلا في لحظات كهذه، عندما يكون الغرض من الكلمات أن تَسحب الأرض من تحت أقدامنا. تمتع والدانا بالمهارة في ذلك. وهكذا نجحت أمي، حيث خرجت كلمات مثل «غرقتم» و«كل شيء» و«أموت»، و«سوء» ثقيلة، ومحسوبة، ومشحونة، واتهامية، ثم ظلت تتلكأ وتعذبنا طوال الليل.

3
العُقاب

أبي كان عُقابًا.

ذلك الطائر القوي الذي زرع عشه عاليًا فوق بقية أقرانه، ليحلق فوق فراخه الصغار ويراقبها، كما يحرس مليكٌ عرشه. كان بيتنا - وهو بنغالو من طابق واحد اشتراه عام ولادة إيكينا - هو وكره المصون، المكان الذي يحكمه بقبضة مضمومة. لهذا السبب ظن الجميع أنه لو لم يغادر أكوري، لما أصبح بيتنا سهل المنال من الأساس، ولما وقع البلاء الذي حل بنا.

أبي رجل غير عادي. اتبع الجميع بشارة تحديد النسل، بينما حلم هو - الابن الوحيد الذي شب إلى جوار أمه محرومًا من الإخوة والأخوات - ببيت معمور بالأطفال، وقبيلة تخرج من جسده. وقد جلب عليه هذا الحلم كثيرًا من السخرية في ظل الاقتصاد القارس لنيجيريا التسعينيات، لكنه سحق الإهانات كالبعوض، ورسم مخططًا لمستقبلنا، وخريطة لأحلامنا. قرَّر لإيكينا أن يصبح طبيبًا، لكن لاحقًا، بعدما أظهر إيكينا افتتانه بالطائرات في سن مبكرة، وبتشجيع من وجود مدارس للطيران في إنوغو، وماكوردي، وأونيتشا، حيث يستطيع إيكينا تعلم الطيران، غيَّر أبي الخطة إلى طيار. وقرَّر لبوجا أن يصبح محاميًا، وأوبمبي طبيبًا للأسرة. ومع أنني فضَّلت أن أكون طبيبًا بيطريًّا، وأن أعمل في غابة، أو أعتني بالحيوانات في حديقة، أو أي شيء آخر يتعلق بالحيوانات، فإن أبي قرر أني سأصبح أستاذًا جامعيًّا. أما ديفيد، شقيقنا الأصغر، الذي كان في الثالثة من عمره فحسب عندما انتقل أبي إلى يولا، فكان مقررًا أن يصبح مهندسًا. ولم يكن هناك اختيار جاهز لما ستمتهنه نكيم، شقيقتنا ذات الربيع الواحد؛ إذ قال أبي إنه ليست هناك ضرورة لتقرير مثل هذه الأمور للنساء.

مع أننا نعرف منذ البداية أن الصيد غير موجود على قائمة أبي، إلا أننا لم نفكر في الأمر حينها. لكنه أصبح شغلنا الشاغل بعد الليلة التي هددتنا فيها أمي بإخبار أبي عن صيدنا، مؤججة نيران الخوف من سخط أبي علينا. كانت تعتقد أن أرواحًا شريرة هي التي دفعتنا لفعل ذلك ولا بد أن تُطرد بالسياط. كانت تعرف أننا نفضل أن تهوي الشمس وتحرق الأرض ونحن عليها، ولا نتلقى عقاب أبي الرهيب على لحم مؤخراتنا. قالت إننا نسينا أن أبي ليس رجلًا من أولئك الذين يدسون أقدامهم في أحذية الآخرين لأن أحذيتهم رطبة، إنه يفضل أن يقطع الأرض بقدمين حافيتين.

عندما ذهبَت إلى المتجر مع ديفيد ونكيم في اليوم التالي، وهو يوم السبت، حاولنا إعدام كل الأدلة الخاصة بصنعتنا، فسارع بوجا إلى إخفاء صنانيره والصنانير الإضافية التي خبأناها تحت صفائح التسقيف الصدئة المتبقية منذ بناء البيت سنة 1974، والمتكومة بجوار السور في حديقة أمي الخلفية المزروعة بالطماطم. وكسَّر إيكينا صنانيره، وألقى بالقطع المحطمة في مقلب النفايات خلف سور دارنا.

زارنا أبي في ذلك السبت، وتحديدًا بعد خمسة أيام من الإمساك بنا ونحن نصطاد في النهر. صليت أنا وأوبمبي صلاة الحاجَة عشيَّة زيارته، بعد أن اقترحت أن الرب قد يمس قلب أبي ويجعله يمتنع عن ضربنا بالسوط. ركعنا معًا على الأرض وصلينا، وقال هو: «يا رب، إذا كنت تقول إنك تحبنا - أنا وإيكينا وبوجا وبِنْ - لا تسمح لأبي أن يزورنا ثانية. دعه يبقى في يولا. أرجوك يا رب. أرجوك استمع إليَّ: هل تعرف قوة سوطه؟ ألا تعرف؟ اسمع، لديه كرباج من جلد الأبقار، «**كوبوكو**» اشتراه من بائع اللحم المحمَّر. هذا الكرباج مؤلم جدًّا! اسمع يا رب، إذا تركته يرجع وضربنا بالكرباج، لن نذهب إلى مدرسة الأحد ثانية، ولن نغني ونصفق في الكنيسة ثانية أبدًا! آمين».

ورددتُ وراءه: «آمين».

عندما وصل أبي في عصر ذلك النهار كما يفعل دائمًا، مطلقًا نفيرًا عند البوابة، وداخلًا بالسيارة إلى ساحة الدار وسط

التهليل، لم نخرج أنا وإخوتي لتحيته. اقترح إيكينا أن نظل في الغرفة ونتظاهر بالنوم لأننا قد نزعج أبي أكثر إن خرجنا للترحيب به. «هكذا، وكأننا لم نفعل شيئًا». اجتمعنا في غرفة إيكينا، ننصت بانتباه إلى حركات أبي، وننتظر اللحظة التي ستبدأ فيها أمي تقريرها، حيث كانت حكَّاءة صبورًا. في كل مرَّة يرجع فيها أبي، تجلس إلى جواره على الأريكة في غرفة الجلوس، وتخبره بأحوالنا وأحوال البيت في غيابه: المتطلبات وكيف لبَّتها، ممن استعارت نقودًا، تقاريرنا المدرسية، الكنيسة. كانت تلفت انتباهه تحديدًا إلى العصيان الذي يفوق الاحتمال أو تظنه يستحق العقاب.

أتذكر كيف ظلت، على مدار ليلتين، تُسمعه أخبار تلك المرأة التابعة لكنيستنا، التي أنجبت طفلًا وزنه كذا وكذا باوند. والشمَّاس الذي ضرط من دون قصد على منبر الكنيسة في الأحد الماضي، وكيف ضخَّمت الميكروفونات الصوت المُحرج. وأعجبتني على وجه الخصوص حكايتها له عن هجَّام أُعدم من دون محاكمة في حيِّنا، وكيف استطاع الغوغاء صرع اللص الهارب بسيل من الأحجار، وجاؤوا بإطار سيارة ووضعوه حول عنقه. شددت على استغرابها من قدرة الغوغاء على الحصول على بنزين في غمضة عين، وإضرامهم النيران في اللص في دقائق معدودات. رحت، مثل أبي، أنصت بانتباه وهي تصف كيف أحاطت النيران باللص، وتأججت في الأجزاء المشعِرة من جسده - خصوصًا منطقة العانة - وهي تلتهمه ببطء. وصفت أمي مِشكال النيران وهو يطوِّق اللص في إكليل من اللهب، وصرخته المدوية، بتفاصيل مفعمة بالحيوية، حتى إن صورة الرجل المحترق ظلت في ذاكرتي. قال إيكينا إن أمي لو تعلَّمت في مدرسة، لأصبحت مؤرخة عظيمة. وكان محقًّا؛ فنادرًا ما فوتت أمي تفصيلة واحدة من أي شيء حدث في غياب أبي.

تكلما أولًا عن الأمور العرَضية: وظيفة أبي، ونظرته عن تدهور النايره تحت «الرعوية المتعفنة لهذه الإدارة». ومع أننا كثيرًا ما تمنينا أن نعرف ألفاظًا مثل تلك التي يعرفها أبي، فقد كرهناها في بعض الأوقات، وبدت لنا ضرورية في أوقات أخرى؛ عندما يناقش السياسة مثلًا، تلك التي لا يمكن أن تُناقش بلغة الإغبو، لأنها لا تحوي الكلمات المهمة. كلمة «إدارة»، كما سُميت في ذلك الوقت حسبما أظن، كانت واحدة من تلك الكلمات. اتجه البنك المركزي إلى مصير مشؤوم، وكان الموضوع الذي استرسل فيه بشكل كبير في ذلك اليوم هو الوفاة المحتملة لـ«نامدي أزيكيوي»، أول رئيس لنيجيريا، الذي يحبه أبي ويراه مُعلمًا مرشدًا. كان «زيك»، كما يسميه، في مستشفى في إنوغو، وشعر أبي بالمرارة، متحسرًا على المنشآت الصحية البائسة في البلاد، وسب الدكتاتور أباتشا، وندد بتهميش الإغبو في نيجيريا، ثم شكا من الوحش الذي أوجدته بريطانيا حين خلقت دولة موحدة باسم نيجيريا، وظل هكذا حتى أُعد طعامه. عندما بدأ في تناول طعامه، أخذت أمي منه الكلمة. هل يعرف أن كل المدرسين في الحضانة التي سجلت فيها نكيم يحبونها؟ وعندما قال «**إزي أوكوو** - صحيح؟» راحت تسرد يوميات رحلة نكيم الصغيرة حتى اللحظة. وماذا عن «الأوبا»، ملك أكوري؟ أراد أبي أن يعرف، فأخبرته بتفاصيل صراع «الأوبا» مع الحاكم العسكري للولاية التي تمثل أكوري عاصمة لها، واسترسلت بلا انقطاع، إلى أن قالت في لحظة لم نكن نتوقعها: «يا **ديم**، أريد أن أخبرك بشيء».

رد أبي: «كلي آذان صاغية».

«يا **ديم**، أبناؤك، إيكينا وبوجا وأوبمبي وبنجامين، ارتكبوا فعلًا مشينًا، فعلًا قبيحًا لا يمكن تخيله».

«ماذا فعلوا؟». قالها أبي وقد ارتفع صوت الفضيات على صحنه بحدة.

«هيه، حسنًا، يا **ديم**. هل تعرف ماما إيابو، زوجة يوسف، المرأة التي تبيع الفول السوداني...؟».

صاح أبي: «نعم، نعم أعرفها، قولي مباشرة ماذا فعلوا، **يا صديقتي**». تعوَّد أبي أن يخاطب أي شخص يضايقه بـ«صديقي».

«**إيهين**، تلك المرأة كانت تبيع الفول السوداني لذلك الكاهن الذي يخدم في الكنيسة السماوية القريبة من «أومي-ألا»، فرأت أولادًا خارجين من الدرب المؤدي إلى النهر، وعندما أخبرَت الكاهن أنها تعرفهم، قال لها إنهم يداومون على الصيد في النهر منذ وقت طويل، وإنه حاول تحذيرهم عدة مرَّات، لكنهم لم يستمعوا إليه. هل تعرف ما هو الأكثر مأساوية؟». صفقت أمي بيديها لتهيِّئ عقله لإجابة السؤال المروعة. «ماما إيابو تعرفت في الأولاد على أبنائك: إيكينا

وبوجا وأوبمبي وبنجامين. ونادت عليهم، لكنهم تجاهلوها!».
أعقبت ذلك لحظة صمت، راح أبي خلالها ينظر إلى الأرض، والسقف، والستارة، وكل شيء من حوله، وكأنه يسأل هذه الأشياء أن تكون شاهدة على الحدث الذميم الذي سمعه. ومع استمرار الصمت، تركتُ عينيَّ تجولان في أرجاء الغرفة، فوقعت على قميص كرة القدم الخاص ببوجا المُعلَّق إلى جوار الباب، ودولاب الملابس، والروزنامة الوحيدة المُعلَّقة على الحائط. كنا نسميها روزنامة «M.K.O»؛ لأنها تجمعنا نحن الأربعة إلى جوار «إم. كيه. أو. أبيولا»، المرشح السابق لرئاسة نيجيريا. أبصرتُ صرصورًا ميتًا، ربما قُتل في سورة غضب. فكَّاه مفلطحان على السجادة الصفراء البالية. ذكَّرني هذا بالجهد الذي بذلناه لنعثر على لعبة «الفيديو غيم» التي خبأها أبي منا، والتي كانت ستلهينا عن الصيد إذا ما وجدناها. بحثنا في غرفة والدينا ذات يوم في محاولة للعثور على اللعبة، وكانت أمي في الخارج مع الصغيرين، لكننا لم نعثر عليها في أي مكان، لا في خزانة أبي، ولا في أيٍّ من الأدراج التي لا حصر لها في الغرفة. ثم أنزلنا الصندوق المعدني القديم الخاص بأبي، الذي قال إن جدتنا اشترته له في أول مرَّة ترك فيها القرية متوجهًا إلى لاغوس سنة 1966. كان إيكينا على يقين بأن اللعبة موجودة هناك. حملنا الصندوق الحديدي، الثقيل كأنه تابوت، وذهبنا به إلى غرفة إيكينا، وراح بوجا يجرب كل المفاتيح، حتى فُتح الغطاء مُطلقًا صريرًا حادًّا. وعند رفع الغطاء، مرق صرصور من الصندوق المعدني الصدئ، ثم غزت الغرفة حشرات حمراء داكنة. وفي طرفة عين، كان هناك صرصور على الشباك، وآخر يزحف ورأسه إلى أسفل على باب دولاب الملابس، وثالث يتسلل إلى داخل حذاء أوبمبي. صرخنا جميعًا، ورحنا ندب بأقدامنا لنسحق الألف صرصور لنحو ثلاثين دقيقة، مطاردين إياها وهي تنطلق مسرعة في كل مكان، ثم حملنا الصندوق إلى الخارج. وبعد أن كنسنا الغرفة لننظفها من الصراصير، استلقى أوبمبي في الفراش، فرأيت تحت قدميه مِزقَ الصراصير: مؤخرة شاردة، ورأسًا مسحوقًا مفلطحًا بعينين متنافرتين، وفتاتًا من أجنحة منتزعة، بعضها علق بين أصابع قدميه، وعجينة صفراء لا بد أنها اعتُصرت خارجة من صدور الحشرات. وكان صرصور متمددًا بكامله، مفلطحًا في سُمك ورقة، وجناحاه مزدوجان ومفروشان.
توقف عقلي فجأة، مثل عملة فضية بعد دورانها، عندما قال أبي في صوت هادئ على غير العادة: «إذن، يا أداكو، أنت تجلسين هنا وتقولين لي بكل صراحة إن أولادي - إيكينا وبوجانونيميوكبو وأوبمبي وبنجامين - هم من رأتهم المرأة عند ذلك النهر؛ ذلك النهر الخطير الذي فرضوا حظر تجوال حوله، والمعروف أن عددًا من البالغين اختفوا عنده؟».
«نعم يا **ديم**، هم أولادك»، أجابته بالإنجليزية، لأن أبي شرع فجأة يتحدث بالإنجليزية، وقد شدَّد على المقطع الأخير من كلمة «اختفوا» برفع صوته.
«يا للمصيبة!»، صاح أبي مرَّة بعد مرَّة في تتابع سريع، حتى إن المقاطع تفسخت وخرجت الكلمات مثل «ياللم صيبا»، كالصوت الذي ينشأ عندما يدق المرء على سطح حديدي.
سأل أوبمبي، وهو يتأرجح على حافة البكاء: «ما الذي يفعله؟».
رد إيكينا في صوت خافت وغاضب: «هل يمكن أن تخرس؟ ألم أنهكم عن الصيد؟ لكنكم اخترتم سماع كلام سولومون، وها هي النتيجة».
وفي أثناء حديث إيكينا قال أبي: «إذن، فأنت تقصدين حقًّا أن من رأتهم كانوا أولادي؟». وسمعنا أمي تقول: «نعم».
صاح أبي بصوت أعلى وأعلى: «يا للمصيبة!».
قالت أمي: «كلهم في الداخل. اسألهم، وسوف ترى بنفسك. الأسوأ والأضل سبيلًا أنهم اشتروا معدات صيد: خطاطيف، وخيوطًا، وغطاسات، بالمصروف الذي أعطيته لهم».
تشديد أمي على عبارة «بالمصروف الذي أعطيته لهم» انغرس بعمق في لحم أبي. لا بد أنه انقبض على نفسه مثل دودة نُكزت بمهماز.
سألها: «كم من الوقت ظلوا يفعلون ذلك؟».
ترددت أمي لوهلة، محاوِلة أن تُحصِّن نفسها من اللوم، حتى صرخ فيها أبي: «هل أسأل صماء بكماء؟».

«ثلاثة أسابيع»، قالتها مستسلمة في صوت مهزوم.

«يا للمصيبة يا أداكو! ثلاثة أسابيع، وأنت معهم تحت سقف واحد؟!».

كانت تلك كِذْبتنا؛ حيث أخبرنا أمي أنها ثلاثة أسابيع فقط آملين أن يخفف ذلك من عِظم غلطتنا، لكن تلك المعلومة غير الدقيقة كانت كافية لإثارة سخط أبي.

جأر مناديًا: «إيكينا! إيكي-نا!».

انتفض إيكينا على قدميه من الأرض، وكان جالسًا عندما بدأت أمي في إبلاغ أبي بما حدث، واتجه إلى الباب، ثم توقف، ثم تراجع إلى الخلف وتحسس مؤخرته، وقد ارتدى زوجين من الشورتات لتخفيف أثر ما سيأتي، مع أننا جميعًا نعرف أن أبي على الأرجح سيضربنا على جلودنا العارية. رفع إيكينا رأسه وصاح: «سيدي!».

«تعال إلى هنا حالًا».

تقدَّم إيكينا ثانيةً بنمش متناثر على وجهه مثل دمامل، وتوقف كأن حاجزًا غير مرئي انتصب فجأة في طريقه، ثم اندفع إلى الخارج.

صرخ أبي: «قبل أن أعد إلى ثلاثة، أراكم جميعًا هنا. الآن!».

اندفعنا من الغرفة على الفور، ووقفنا كستارة خلف إيكينا.

قال أبي، وقد نفر خط طويل من الأوردة على جبهته: «أعتقد أنكم جميعًا سمعتم ما أخبرتني به أمكم. هل هذا صحيح؟».

أجاب إيكينا: «صحيح يا سيدي».

«إذن، فهو صحيح؟»، قالها أبي وقد ثبت عينيه فجأة على وجه إيكينا الغائر.

لم ينتظر أبي إجابة، وذهب إلى غرفته غاضبًا. وبينما عيناي منشغلتان بديفيد، الجالس على إحدى الأرائك يحدق فينا، وفي يده علبة بسكويت، يهيئ نفسه لمشاهدتنا ونحن نُجلد، رجع أبي وفي يده كرباجان من جلد الأبقار، أحدهما على كتفه، والآخر في قبضته، وشد الطاولة الصغيرة، التي تناول عليها طعامه، إلى وسط الغرفة. أما أمي، التي نظفتها ومسحتها للتوِّ بخرقة قماشية، فقد أحكمت الربَّا حول صدرها في انتظار اللحظة التي تستشعر فيها أن أبي تمادى في العقاب.

قال أبي: «كلٌّ منكم يتمدد مثل بساط على هذه الطاولة. كلٌّ سيتلقى جزاءه على جسده العاري، كما أتيتم إلى هذه الدنيا الآثمة. أنا أعمل وأكدح لأدخلكم المدرسة فتتلقوا **تعليمًا غربيًّا** مثل الرجال المتحضرين، لكنكم تريدون أن تكونوا صيادين. صـ-يا-دين!». ظل يصرخ بهذه الكلمة مرَّة بعد مرَّة وكأنها كلمة ملعونة، وبعد أن قالها للمرَّة المليون، أمر إيكينا بالتمدد على الطاولة.

ضرب ضربًا وحشيًّا، وجعلنا نعد الضربات وهي تنزل علينا. إيكينا وبوجا، وهما ممددان على الطاولة وقد أنزل كلٌّ منهما سرواله القصير، عدًّا عشرين، وخمس عشرة، على الترتيب، بينما عددت أنا وأوبمبي ثماني لكلٍّ منا. حاولت أمي أن تتدخل، لكنها وُجهت بتحذير صارم من أبي بأنها إن تدخلت فستتلقى نصيبها من الضرب. وبالنظر إلى غضبته العارمة، ربما كان يعني ما يقوله. استمر أبي، غير متأثر بصراخنا وتأوهاتنا وبكائنا وتوسلات أمي، ساخطًا لكونه يعمل لكي يأتي بالنقود، وباصقًا كلمة «صيادين» بغضب عارم، حتى انسحب إلى غرفته، وكرباجه مطروح على كتفه، ونحن نمسك مؤخراتنا منتحبين.

***

كانت ليلة «العطيَّة» ليلة قاسية. وقد امتنعت، مثل إخوتي، عن تناول العشاء، على الرغم من جوعي ولعابي الذي يسيل لرائحة لحم الديك المقلي وموز الجنَّة - وهي وجبة نادرة أعدتها أمي، عالمةً أن كبرياءنا لن يسمح لنا بتناولها،

وعازمةً على أن تعاقبنا أكثر وأكثر. والحقيقة أن «الدودو» (موز الجنَّة المقلي) لم يُقدَّم في بيتنا منذ وقت طويل، حيث منعته أمي قبل عام أو نحو ذلك، بعدما سرقتُ أنا وأوبمبي بعض القطع من المُبرِّد الخاص بأمي، وكذبنا وقلنا إننا رأينا الجرذان تأكل «الدودو». تحرقت شوقًا للتسلل خارج الغرفة وتناول صحن من الصحون الأربعة الموجودة في المطبخ حيث وضعت أمي نصيبنا، لكنني لم أفعل تجنبًا لخيانة إخوتي فيما قصدوا بأن يكون إضرابًا عن الطعام. هذا الجوع الشديد فاقم من ألمي، فأخذت أبكي طول الليل، حتى غرقت في النوم.

أيقظتني أمي في الصباح التالي، وهي تربت على كتفي وتقول: «بِنْ، استيقظ، استيقظ، أبوك يريدك، بِنْ».

كنت أشعر بكل أجزاء جسدي تحترق من فرط الألم، وبدا لي أن أردافي اكتسبت فائضًا من اللحم. مع ذلك، أراحني أن إضرابنا عن الطعام، وقد خشيت أن يمتد إلى اليوم التالي، لن يستمر في نهاية الأمر، حيث كنا نربي أحقادنا ضد والدينا بعد هذه العقوبات الوحشية، فنتجنبهما ونرفض تناول الطعام لفترة ثم نعود إليهما ونسمح لهما - وهو الأفضل - أن يعتذرا ويُهدئا من غضبنا. لكننا لم نتمكن من ذلك تلك المرَّة، حيث استدعانا أبي بنفسه.

لأترك الفراش، زحفت أولًا إلى طرفه، ثم أنزلت قدميَّ باسطًا إياهما، وأردافي تؤلمني وكأنها محشوة بمسامير. عندما دخلت إلى غرفة الجلوس، وجدتها لا زالت معتمة، حيث انقطعت الكهرباء في الليلة السابقة، وأُضيئت غرفة الجلوس بلمبة الكيروسين الموضوعة على طاولة المنتصف. جاء بوجا، وكان آخر من جلس، وثمة عرج خفيف في مشيته، منكمشًا على نفسه مع كل خطوة. جلسنا جميعًا في مقاعدنا، وراح أبي يحدق فينا لبرهة طويلة، ويداه على ذقنه. بينما فكَّت أمي، التي جلست في مواجهتنا على بُعد قليل مني، جانب الربَّا المربوطة في عقدة تحت إبطها، ورفعت حمالة صدرها، وسرعان ما اختفى ثدياها المستديران العامران بالحليب في قبضة نكيم الصغيرة. غطت الرضيعة بشراهة الحلمة المستديرة الداكنة المتصلبة بفمها، مثل حيوان يهجم على فريسته. راقب أبي الحلمة باهتمام، وعندما اختفت عن الأنظار، خلع نظارته ووضعها على الطاولة. وهو حين يخلع نظارته، يبدو الشبه الكبير بينه وبيننا أنا وبوجا - البشرة الداكنة، والرأس الذي يشبه حبة الفاصوليا - أكثر وضوحًا. كان إيكينا وأوبمبي مسربلَين ببشرة أمي، التي تشبه في لونها عش النمل.

قال أبي بالإنجليزية: «أنصتوا إليَّ الآن، جميعكم. لقد آلمني ما فعلتموه لعدة أسباب: أولًا، **أمرتكم** قبل أن أغادر من هنا ألا تسببوا أي مشاكل لأمكم. لكن ماذا فعلتم؟ سببتم لها - ولي - مشكلة هي أُم كل المشكلات». جال بنظره بين وجوهنا واحدًا بعد الآخر.

«أنصتوا، ما فعلتموه أمر سيِّئ جدًّا. سيِّئ. كيف يمكن لأطفال مثلكم يتلقون تعليمًا غربيًّا أن يتورطوا في مَسعى بربري كهذا؟!». لم أعرف معنى كلمة «مَسعى» وقتها، لكن صراخ أبي بها، أعلمني أنها كلمة قاسية. «وثانيًا، رُوِّعت أنا وأمكم من هذه المجازفات الخطيرة التي أخذتموها. ليس ذلك المدرسة التي أرسلتكم إليها. لن تجدوا في أي مكان حول هذا النهر القاتل كتبًا تقرؤونها. ومع أنني سبق أن **أمرتكم** بقراءة الكتب، لم يعد لديكم اهتمام بها». مع تكشيرة شديدة الجهامة على وجهه، ويد مرفوعة في إيماءة توحي بالمهابة، قال: «أحذركم **يا أصدقائي**، مَن يرجع إلى هذا البيت بدرجات مدرسية سيِّئة فسوف أرسله إلى القرية لكي يزرع أو يستخرج نبيذ النخل - **أوغبو-أكوو**».

«حاشا لله!»، سارعت أمي بالرد، وهي تطرقع بإصبعيها فوق رأسها لتطرد كلمات أبي المُسممة. «لن يفعل أحدٌ من أطفالي ذلك!».

نظر إليها أبي بغضب. «نعم، **حاشا لله**»، قالها مقلدًا نبرة أمي الرقيقة. «حاشا لله كيف وقد ظلوا يذهبون إلى هذا النهر تحت سمعك وبصرك، يا أداكو، لمدة ستة أسابيع، ستة.. أسابيع.. كاملة». هز رأسه وهو يُعدِّد الأسابيع الستة على أصابعه. «اسمعي **يا صديقتي**، من الآن فصاعدًا عليكِ التأكد من أنهم يقرأون كتبهم. هل تسمعين؟ من الآن سيصبح الموعد النهائي لعودتِك من العمل هو الخامسة، وليس السابعة، ولن تعملي في أيام السبت. لا أستطيع أن أترك هؤلاء

الأطفال يضيعون منا تحت سمعك وبصرك».

«سأفعل»، قالتها أمي بالإغبو، وهي تُسكسك بلسانها.

تابع أبي، وهو يحدق فينا، ونحن متحلقون من حوله في نصف دائرة مكسورة: «خلاصة القول، من الآن فصاعدًا لا بد أن تكفوا عن تقليعاتكم. حاولوا أن تكونوا أطفالًا طيبين. لا أحد يستمتع بجَلد أطفاله. لا أحد».

التقليعات، كما فهمنا من استخدامه المتكرر للكلمة، تعني الانغماس في أشياء لا طائل من ورائها. كان على وشك أن يكمل حديثه، قبل أن يقاطعه الدوران المفاجئ لمروحة السقف، في إشارة لعودة الكهرباء المقطوعة. أضاءت أمي المصباح الكهربائي، وأنزلت فتيل لمبة الكيروسين. وفي السكون الذي جلبته اللحظة، ومع سقوط وهج المصباح عليها، سقطت عيناي على روزنامة العام: كنا في شهر مارس، والروزنامة لا تزال مقلوبة على صفحة فبراير، التي تحمل صورة لعُقاب التُقطت أثناء طيرانه، جناحاه مفرودان، وساقاه متمددتان، ومخالبه معقوفة، وعيناه الياقوتيتان الجاحظتان تحدقان في الكاميرا. كان بهاؤه ممتدًّا على الأفق في الخلفية وكأن العالم مِلك له وهو مَن خلق كل شيء - إله بجناحين وريش. فكرتُ ساعتها، بخوف يشل الأطراف، أن شيئًا ما سيحدث في لحظة خاطفة ويكسر السكون المطوَّل. خفت أن يذوب جناحا الطائر المتجمدان فجأة ويشرعا في الخفقان. خفت أن تطرف عيناه الجاحظتان، وأن تتحرك ساقاه. خفت أن يترك العُقاب الفضاء، ذلك الجزء من السماء الذي انحصر فيه منذ الثاني من فبراير، عندما قلب إيكينا صفحات الروزنامة وصولًا إلى هذه الصفحة، فيتغير هذا العالم وكل شيء فيه بلا حساب.

«من ناحية أخرى، أريدكم أن تعلموا جميعًا أنه إذا كان ما فعلتموه خطأ، إلا أنه يعكس مجددًا امتلاككم شجاعة الدخول في مغامرة. هذه الروح المغامرة من شيم الرجال. لذا، من الآن فصاعدًا، أريدكم أن تحولوا هذه الروح إلى شيء أكثر نفعًا. أريدكم أن تكونوا صيادين من نوع آخر».

نظر بعضنا إلى بعض مندهشين، باستثناء إيكينا، الذي أبقى عينيه على الأرض، وكان هو من تلقَّى أكبر عدد من الضربات، وألقى والدنا عليه بالكثير من اللوم، وجلده أقسى جلد، من دون أن يعرف أنه حاول إيقافنا.

«ما أريده منكم أن تكونوا مجموعة من الصيادين الذين يصطادون الأحلام الطيبة، ولا يتراجعون إلا بعد أن يقبضوا على صيدهم الأكبر. أريدكم أن تكونوا صيادين جبابرة، عتاة، مرهوبين».

أُصبت بدهشة بالغة؛ لقد ظننت أنه يحتقر الكلمة. وفي محاولة لاستيعاب المعنى، نظرت إلى أوبمبي الذي يومئ برأسه على كل ما يقوله أبي، وقد غزا جبهته شبح ابتسامة.

«أولاد طيبون»، غمغم أبي، وابتسامة واسعة ترتسم بنعومة على التجاعيد الخشنة التي نشرها الغضب والثورة على صفحة وجهه.

«اسمعوا، طبقًا لما علمتكم إياه كثيرًا، من أنكم في كل موقف سيِّئ تستطيعون دائمًا استخلاص أشياء جيدة. أحثكم على أن تكونوا نوعًا مختلفًا من الصيادين. ليس ذلك النوع الذي يصطاد في **مستنقع قذر** مثل «أومي-ألا»، وإنما صيادون عاقلون، مغامرون، يغمسون أياديهم في أنهار الحياة وبحارها ومحيطاتها ليحققوا النجاح، ويصبحوا أطباء، وطيارين، وأساتذة جامعيين، ومحامين، هه؟».

نظر حوله ثانية: «هؤلاء هم الصيادون الذين أريدهم أولادًا لي. هلَّا تلوتم نشيدًا الآن؟».

أومأت أنا وأوبمبي على الفور، فنظر أبي إلى الاثنين اللذين ظلت أعينهما مثبتة على الأرض.

«بوجا، أنت؟».

غمغم بوجا مترددًا: «نعم».

«إيكي؟».

قال إيكينا بعد وقفة طويلة: «نعم».

«رائع، قولوا جميعًا الآن: جبا-برة».

رددنا: «جبا-برة».

«عُتاة. عُـ-تاة».

«مر-هو-بون. مر-هو-بون. مرهو-بون».

«صيادون للأشياء الطيبة».

ضحك أبي ضحكة عميقة مبحوحة، وعدل من ربطة عنقه، ثم حدق فينا بقوة. وبصوته المتصاعد مثل كريشندو، وبضربة من قبضته في الهواء طيَّرت ربطة عنقه إلى الأمام، صاح: «نحن صيادون».

«نحن صيادون»، رددنا مثل كورال بأعلى أصواتنا، ونحن مندهشون كيف تحولنا فجأة، من دون جهد تقريبًا، إلى هذه الإثارة.

«نحن نتبع خطاطيفنا، وصنانيرنا، وغطاساتنا».

كررنا وراءه، لكنه سمع شخصًا يقول «نسبع» بدلًا من «نتبع»، فجعلنا ننطق الكلمة وحدها قبل أن نواصل. وقبل أن يفعل ذلك، تحسر على أننا لا نعرف الكلمة لأننا نتحدث باليوروبا طوال الوقت بدلًا من الإنجليزية لغة «التعليم الغربي».

تابع، وكررنا من بعده: «نحن عتاة».

«نحن جبابرة».

«نحن مرهوبون».

«لن نفشل أبدًا».

ثم قال، وأصواتنا تهدأ كأنها ثِفلٌ يترسب: «هؤلاء هم أولادي. هل لي أن أنال حضنًا من الصيادين الجُدد؟».

شعرنا أننا مستلبون تجاه التحول السحري الذي أجراه أبي ليقلب الاشمئزاز العميق إلى امتنان، ونهضنا على أقدامنا واحدًا بعد آخر، ووضعنا رؤوسنا بين جناحي معطفه المفتوح. عانقناه لثوانٍ راح فيها يربت على رؤوسنا ويُقبِّلها. تناول بعد ذلك محفظته، وأخرج حزمة أوراق نقدية جديدة فئة عشرين نايره، مربوطة بشريط ورقي مختوم بختم البنك المركزي النيجيري، وأعطى إيكينا وبوجا أربع ورقات، وأعطاني أنا وأوبمبي ورقتين، وأعطى ورقة واحدة لكلٍّ من ديفيد، الذي كان نائمًا في الغرفة، ونكيم.

«لا تنسوا ما قلته لكم».

أومأنا جميعًا برؤوسنا، واستعد أبي للمغادرة، ولكنه استدار وقد استوقفه شيء فجأة، وتوجه إلى إيكينا، فوضع يديه على كتفيه وقال: «إيكي، هل تعرف لماذا ضربتك أكثر منهم؟».

غمغم إيكينا ووجهه مثبت على الأرض، وكأن هناك فيلمًا معروضًا عليها: «نعم».

سأله أبي: «لماذا؟».

«لأنني البِكر، وقائدهم».

«نعم، احفظ ذلك في عقلك، ومن الآن فصاعدًا، قبل أن تقوم بأي فعل، انظر إليهم، لأنهم يفعلون ما تفعل، ويذهبون أينما تذهب. هذا يُحسب لكم، كونكم تتبعون بعضكم البعض. لا تنحرف بإخوتك يا إيكينا».

رد إيكينا: «سأفعل يا أبي».

«قُدهم إلى ما هو خير لهم».

«سأفعل يا أبي».

«أرشدهم إلى الطريق السليم».

تردد إيكينا قليلًا، ثم تمتم: «سأفعل يا أبي».

«تذكَّر دائمًا أن ثمرة جوز الهند التي تسقط في صهريج يجب غسلها جيدًا قبل أكلها. أقصد أنك إن ارتكبت خطأ، فسيكون عليك إصلاحه».

كثيرًا ما وجد والدانا حاجةً إلى شرح مثل هذه التعبيرات التي تحتوي على معانٍ خفية؛ لأننا أحيانًا نطبقها حرفيًّا، وكانت تلك طريقتهم التي تعلموا بها الحديث، الطريقة التي بُنيت عليها لغة الإغبو. مع أن الألفاظ متوفرة لصياغة تعبيرات تحذيرية مباشرة، مثل «كُن حذرًا»، كانوا يقولون: «**جيري إيري غي غو إيزي أونو** - عد أسنانك بلسانك». وذات مرَّة، وبخ أبي أوبمبي على خطأ ارتكبه، ثم انفجر ضاحكًا عندما رأى أوبمبي يحرك لسانه على حرف فمه، وقد تجعد خداه، وراح لعابه يسيل على فكيه، محاولًا إجراء تعداد على أسنانه. كان هذا هو ما يُلجئ والدينا في أغلب الأحوال إلى الإنجليزية عندما يعتريهما الغضب، حيث لا يضطران إلى شرح ما يقولانه أثناء غضبهما. مع ذلك، كان أبي غالبًا ما يتجاوز في استخدام الألفاظ الثقيلة والتعبيرات الاصطلاحية الإنجليزية. وقد أخبرنا إيكينا ذات مرَّة أنه عندما كان طفلًا، قبل ولادتي، قال له أبي بنبرة شديدة الجدية «خذ وقتك»، وامتثالًا لأمره، صعد على طاولة الطعام وأنزل ساعة الحائط من مسمارها.

قال إيكينا: «أسمعك يا سيدي».

قال أبي: «وأنا سامحتك».

أومأ إيكينا برأسه، بينما طلب منه أبي، في لحظة لم أشاهد مثلها من قبل، أن يَعِده. ورأيت إيكينا نفسه مندهشًا؛ لأن أبي اعتاد دائمًا أن يطلب منا الامتثال لكلماته، ولم يسبق له أن طلب اتفاقًا متبادلًا أو وعدًا. وعندما قال إيكينا «أعدُك»، استدار أبي ومضى خارجًا، وتبعناه لنشاهد سيارته وهي تمضي على الطريق الترابي، والألم يعتصرنا لأنه يغادر ثانية.

4
الأصلة

إيكينا كان أَصَلَة.

ذلك الثعبان البري الذي تحوَّل إلى أفعوان وحشي يعيش على الأشجار، في مستويات أعلى من باقي الثعابين. تحوَّل إيكينا إلى أصلة بعد الجَلد. تغيَّر كثيرًا. إيكينا الذي عرفته أصبح شخصًا مختلفًا، متقلب المزاج، وحاد الطباع، ودائم الحركة. هذا التحول نبت في داخله تدريجيًّا قبل الجَلد بوقت طويل، لكن مظاهره لاحت للمرَّة الأولى بعد العِقاب، فأصبح يفعل أشياء ما ظننا أنه قادر على فعلها، أولها أن يفكر في إيذاء شخص كبير.

بعد نحو ساعة من مغادرة أبي إلى يولا في ذلك الصباح، جمعَنا إيكينا، أنا وبوجا وأوبمبي، في غرفته، وقد ذهبت أمي إلى الكنيسة مع شقيقينا الصغيرين، وأعلن أننا يجب أن نعاقب إيا إيابو، المرأة التي وشت بنا. لم نذهب إلى الكنيسة في ذلك اليوم لأننا ادعينا أننا متوعكون من أثر الضرب، وهكذا جلسنا على الفراش في غرفته وأصغينا إليه.

قال: «يجب أن آخذ حقي، ويجب أن تكونوا معي في هذا، لأنكم السبب. لو سمعتم كلامي، لما ضربنا أبي بهذا العنف. انظروا، انظروا...».

استدار، وأنزل سرواله القصير. أغمض أوبمبي عينيه، لكنني لم أفعل. رأيت خطوطًا حمراء على ردفيه الممتلئين. بدت مثل الخطوط على ظهر يسوع الناصري: طويلة، وقصيرة، ومتقاطعة بما يشبه علامة «X» حمراء، ومتفرقة مثل الخطوط على راحة يد شخص مشؤوم.

«هذا ما فعلتموه بي، أنتم وتلك المرأة البلهاء! لذا، يجب أن تخرجوا جميعًا بأفكار حول طريقة معاقبتها». طرقع إيكينا بإصبعيه. «لا بد أن نفعل هذا اليوم. بهذه الطريقة ستعرف أنه لا يمكنها العبث معنا ثم النجاة من دون دفع الثمن».

بينما كان يتحدث، أطلق أحد الجديان ثغاء من خارج النافذة: «**ممبرييييهيهييييه!**».

أثار الصوت غيظ بوجا، فصاح منتفضًا على قدميه: «ذلك الجدي المجنون ثانيةً، ذلك الجدي!».

صاح إيكينا: «اجلس. دعه وشأنه الآن. أعطني بعض الأفكار بشأن تلك المرأة قبل أن ترجع ماما من الكنيسة».

قال بوجا وهو يعاود الجلوس: «حسنًا. أنت تعرف أن إيا إيابو لديها الكثير من الدجاجات؟». لبرهة ظل بوجا جالسًا، ووجهه في اتجاه النافذة حيث لا يزال ثغاء الجدي يعلو. ومع أن تركيزه ثُبت على ثغاء الجدي، إلا أنه قال: «نعم، لديها الكثير والكثير من الدجاجات».

«معظمها ديوك»، تدخلتُ، لأوضح أنها ديوك وليست دجاجات توقوق.

رماني بوجا بنظرة استهزاء، ثم تنهَّد وقال: «نعم، لكن هل يجب أن تخبرنا بجنس الدجاج؟ أخبرتك مرارًا أن تتوقف عن إقحام ولعك الغبي بالحيوانات في الأمور الـ...».

زجره إيكينا: «أوه، يا بوجا، متى ستتعلم التركيز في الأمر المهم؟ أخبرنا بفكرتك. أنت تُضيِّع الوقت في الغضب على ثغاء جدي أحمق، وتنهر بِنْ على شيء تافه مثل الفرق بين الديك والدجاجة!».

«حسنًا، أقترح أن نأخذ واحدة منها، ثم نذبحها ونُحمِّرها».

«ضربة موجعة!»، هكذا صرخ إيكينا، وقد ارتسم الانفعال على وجهه، كأنه على وشك التقيؤ. «لكني لا أظنه صوابًا أن نأكل دجاجة هذه المرأة. كيف سنُحمِّرها؟ ستعرف ماما أننا حمَّرنا شيئًا، ستشم الرائحة، ستشك أننا سرقناها، والسرقة ستجلب علينا ضربات سوط أكثر حدة، ولا أحد منا يريد ذلك».

لم يعتد إيكينا قَطُّ على رفض اقتراحات بوجا من دون أن يفكر فيها مليًّا. كان هناك احترام متبادل بينهما، ولم أرهما يتجادلان من قبل، على عكس الطريقة التي يجيبان بها على أسئلتي مستخدمين كلمات حاسمة مثل: «لا»، أو «خطأ»، أو «غير صحيح». وافق بوجا على تبرير إيكينا، وأومأ برأسه مرارًا. اقترح أوبمبي بعدها أن نرمي أحجارًا على بيت المرأة، وندعو أن تصيبها تلك الأحجار، أو تصيب أحد أبنائها، ثم نولي الأدبار قبل أن يخرج أحد من البيت.

قال بوجا: «فكرة غير جيدة. ماذا لو أن أولادها، أولئك الصبية الجوعى الكبار الذين يرتدون ملابس ممزقة، ولديهم عضلات أشبه بعضلات شوارزنيغر، أمسكوا بنا وضربونا؟». ورفع ذراعيه ليظهر لنا قوة عضلاتهم المفتولة.

علَّق إيكينا: «ضربهم سيكون أقوى من ضرب أبي!».

قال بوجا: «نعم. تخيلوا ذلك!».

أومأ إيكينا موافقًا. وأصبحت أنا الوحيد الذي لم يخرج باقتراح.

قال بوجا: «بِنْ، ما رأيك أنت؟».

ابتلعتُ ريقي، وتسارعت ضربات قلبي. كانت ثقتي عادةً ما تخور عندما يحثني إخوتي الأكبر مني على اتخاذ قرار بدلًا من أن يتخذوه نيابة عني. كنت لا أزال أفكر عندما خرج صوتي كأنه مستقل عني: «عندي فكرة».

أمرني إيكينا قائلًا: «قلها إذن!».

«حسنًا يا إيكي، حسنًا. أقترح أن نمسك بأحد الديوك، ثم...»، ثبتُّ عينيَّ على وجهه، «ثم...».

قال إيكينا: «نعم». وكانت أعينهم جميعًا مثبَّتة عليَّ كأنما أصبحت أعجوبة فجأة.

أكملت قائلًا: «نقطع رأسه».

لم أكد أنطق بهاتين الكلمتين حتى صاح إيكينا: «هذه ضربة قاصمة فعلًا!»، وشرع بوجا في التصفيق، وقد توحشت عيناه فجأة.

أشاد بي إخوتي على فكرة كان مصدرها قصة شعبية حكاها مدرس لغة اليوروبا لفصلي في بداية الفصل الدراسي، عن ولد خبيث يهتاج ويقطع رؤوس كل الديكة والدجاج في المنطقة. هرعنا خارجين من دارنا وفي أذهاننا طريق ملتوٍ إلى بيت المرأة، ومررنا بأدغال صغيرة ومحل نجَّار، وكان علينا أن نسد آذاننا بأيدينا لنحميها من الصوت العالي للمناشير الآلية وهي تنشر الخشب. تعيش إيا إيابو في بيت بنغالو صغير مكون من طابق واحد، واجهته تشبه واجهة بيتنا: شرفة صغيرة، ونافذتان بمصاريع وشباك لمنع الحشرات، وصندوق عداد كهرباء مثبت على الحائط، وباب للحماية من العواصف. وسور البيت لم يُصنع من الطوب والإسمنت وإنما من الطين والصلصال، متشقق في عدة مواضع من فرط التعرض للشمس، تتناثر عليه بُقع ولطخات. وأسلاك الكهرباء مُعلَّقة فوق الرؤوس، تخترق فروع إحدى الأشجار، وتمتد إلى خارج الدار لتتصل بعمود كهرباء عالٍ.

أصغينا في البداية إلى أصوات الحياة، لكن إيكينا وبوجا سرعان ما استنتجا أن الدار خالية. وبإشارة من إيكينا، تسلق أوبمبي السور، مستخدمًا كتفَي إيكينا ليقف عليهما. لحق به بوجا بينما ظللت مع إيكينا لنراقب. وفور أن قفزا إلى الداخل، تعالى صوت ديك يزعق ويرفرف بجناحيه على نحو محموم، كما تعالت أصوات أقدام شقيقيَّ وهما يطاردان الديك. ظلت الأصوات تتكرر حتى سمعنا بوجا يقول: «أمسكه. أمسكه. لا تدعه يفلت»، تمامًا كما كنا نقول عندما تشبك صنانيرنا إحدى الأسماك ونحن نصطاد في «أومي-ألا».

عند الصيحة، حاول إيكينا أن يتسلَّق السور مسرعًا ليرى إذا كانا قد أمسكا به، لكنه لم يفعل، بل وقف يردد كلمات بوجا من خلف الجدار: «لا تدعه يفلت. لا تدعه يفلت». انزلق ردفاه إلى أعلى وسط بنطاله وهو يدس إحدى قدميه في حفرة في السور. انهمرت طبقة الطلاء القديمة أسفله مثل التراب. ومع تثبيت إحدى قدميه، رفع نفسه إلى أعلى، ممسكًا بحافة الجدار. من خلف يده، خرجت سحلية، وهربت مهتاجة، جسدها متعدد الألوان، ناعم ولامع. وفيما كان نصفه ممتدًّا إلى داخل البيت، والنصف الآخر في الخارج، تناول إيكينا الديك من بوجا، وهو يصيح: «أنت ولد! أنت ولد!».

عدنا إلى دارنا، وذهبنا مباشرة إلى الحديقة في الباحة الخلفية، ومساحتها تبلغ رُبع مساحة ملعب كرة قدم، يحيط بها سور من الطوب الإسمنتي من ثلاث جهات، اثنتان منها تشكلان الحدود مع جارينا - أسرة إغبافي من ناحية، وآل أغباتي من الناحية الأخرى. أما الجهة الثالثة، المواجهة مباشرة لبيتنا، فكانت متاخمة لمكب النفايات حيث تعيش مستعمرة من الخنازير. امتدت شجرة بابايا من مكب النفايات، فوق السور مباشرة، بينما انتصبت شجرة اليوسفي ذات الأوراق اليانعة في موسم الأمطار، بشبابها المتجدد، بين السور وبئر منزلنا. تلك الشجرة تمتد بعمق نحو خمسين مترًا داخل دارنا بعيدًا عن البئر ذات الفتحة الكبيرة في الأرض، التي تحيط بها رقبة مصنوعة من الإسمنت، يعلوها غطاء حديدي يقفله أبي بالقفل في موسم الجفاف عندما تجف الآبار في أكوري ويشرع الناس في التسلل إلى بيتنا لجلب الماء. على الجانب الآخر من الباحة الخلفية، وفي المساحة الممتدة إلى زاوية السور من ناحية بيت أسرة إغبافي، توجد حديقة صغيرة تزرع فيها أمي الطماطم والذرة والباميا.

وضع بوجا الديك المرعوب على بقعة مختارة، وتناول السكين الذي جلبه أوبمبي من المطبخ. انضم إليه إيكينا وثبَّتا معًا الطائر في مكانه، غير عابئين بزعقاته العالية. ثم شاهدنا جميعًا السكين وهو يتحرك في يد بوجا بسهولة غريبة، فيشق رقبة الديك المجعدة، وكأنه استخدم السكين عدة مرَّات من قبل، وكان مقدرًا له أن يستخدمه مرَّة أخرى. انتفض الديك في حركات متشنجة كبحناها جميعًا بأيدينا فثبتناه بإحكام. نظرتُ من فوق السور إلى الطابق العلوي من المبنى ذي الطابقين الذي يطل على بيتنا، ورأيت جد إغبافي، وهو رجل صغير الحجم أصيب بالخرس بعد حادثة قبل بضعة أعوام، جالسًا في الشرفة الكبيرة أمام باب بيتنا. اعتاد على الجلوس هناك طوال اليوم، وكنا نتخذه أضحوكة ومصدرًا لنكاتنا.

قطع بوجا رأس الديك، تاركًا إياه يخضُّ والدم يتدفق منه. استدرتُ موجهًا بصري إلى العجوز الأبكم. بدا لي مثل رؤيا عابرة لملاك مُنذر بعيد لم نكن قادرين على سماع تحذيره بسبب بُعد المسافة. لم أرَ رأس الديك وهو يسقط في الحفرة الصغيرة التي حفرها إيكينا في التراب، لكنني شاهدت جسده وهو يخفق بعنف، ناثرًا الدم في كل ناحية، وجناحاه يثيران التراب. ثبَّته إخوتي بقوة أكبر حتى سكن تدريجيًّا، ثم انطلقنا والجثة منزوعة الرأس في قبضة بوجا، والدم يرسم مسار خطانا، غير عابئين بالعدد القليل من الناس الذين راحوا ينظرون إلينا في رهبة. ألقى بوجا بالديك المذبوح من فوق السور، والدم يتناثر مع انطلاقه في الهواء. وفور أن أصبح بعيدًا عن الأنظار، شعرنا بالرضا لأننا أخذنا بثأرنا.

***

لم يبدأ التحول المسخي المرعب لإيكينا عند تلك الحادثة، بل بدأ قبل «عطيَّة» أبي بوقت طويل، وقبل أن تمسك بنا الجارة ونحن نصطاد عند النهر. تبدَّى أولًا في محاولته جعلنا نكره الصيد، لكنها كانت محاولة عقيمة، حيث انغرس حبنا للصيد في شرايين قلوبنا في ذلك الوقت. نبش إيكينا في محاولاته الواهنة تلك، كل شيء اعتبره خبيثًا في هذا النهر، وأشياء لم نلاحظها من قبل. اشتكى قبل بضعة أيام من إمساك الجارة بنا، من أن الشجيرات حول النهر مليئة بالغائط. ومع أننا لم نرَ قَطُّ أحدًا يفعلها، ولم نشم الرائحة التي أجهد نفسه في وصفها لنا، لم نجادله أنا وبوجا وأوبمبي. وذات مرَّة، قال إن أسماك «أومي-ألا» ملوثة، ومنعنا من إدخالها إلى غرفته، فبدأنا نحتفظ بها في الغرفة التي أتقاسمها مع أوبمبي. اشتكى أيضًا أنه رأى هيكلًا عظميًّا بشريًّا يطفو فوق سطح «أومي-ألا»، وهو يصطاد، وقال إن سولومون صديق سوء. كان يقول تلك الأشياء كأنها حقيقة اكتشفها لتوِّه ولا مجال لإنكارها، لكن الشغف بالصيد تنامى بداخلنا وتملَّكنا، وأصبح مثل سائل تجمد في زجاجة ولم يعد من اليسير إذابته. ومع ذلك كانت لدينا جميعًا تحفظات بشأن نشاطنا: كره بوجا صِغر النهر وأسماكه قليلة الفائدة، واندهش أوبمبي مما يفعله السمك في الليل، حيث العتمة تحت الماء وما تثيره في النفس من مخاوف، وكثيرًا ما تساءل: كيف تتحرك الأسماك وهي لا تملك كهرباء أو مصابيح في الظلام الأسود الحالك الذي يغطي النهر مثل ملاءة في الليل، وكنت أكره ضعف البزريات والشراغف، مما يؤدي إلى موتها بسهولة حتى ونحن نُخزنها في ماء النهر! كانت هشاشتها تجعلني أرغب في البكاء أحيانًا. عندما جاء سولومون يطرق بابنا في اليوم التالي،

وهو اليوم الذي أمسكتنا فيه جارتنا، أصر إيكينا في البداية على عدم الذهاب إلى النهر، ولكن عندما رأى أننا سنخرج من دونه، انضم إلينا وأخذ صنارته من بوجا، فهللنا جميعًا له، وهتفنا بأنه «الصياد» الأكثر جسارة.

كان الشيء الذي يستنزف إيكينا أشبه بعدو لا يعرف الكلل، يختبئ بداخله، متحينًا اللحظة المواتية، بينما نخطط وننفذ انتقامنا من إيا إيابو. بدأ يسيطر عليه منذ ذلك اليوم الذي قطع فيه علاقته بي أنا وأوبمبي، مبقيًا فقط على بوجا معه. منعانا من دخول غرفتهما، وحرمانا من الانضمام إليهما في ملعب كرة القدم الجديد الذي اكتشفاه بعد أسبوع من الجَلد. كنا نتوق لصحبتهما، ورحنا ننتظر رجوعهما كل مساء بلا جدوى، متلهفين لأُخوَّتنا التي بدا أنها تتسرب بعيدًا. لكن مع مرور الأيام، أصبح واضحًا أن إيكينا تخلَّص من عدوى في حلقه بأن سعَلَنا في النهاية إلى الخارج، مثل رجل يفرغ مسالكه الممتلئة.

في ذلك الوقت تقريبًا، تشاجر إيكينا وبوجا مع أحد أولاد السيد أغباتي، جيراننا على الجانب الآخر من الجدار، الذين يمتلكون شاحنة متهالكة تُعرف باسم «أرجنتينا»، حيث نُقش على هيكلها المرسوم شعار «نشأت وترعرعت في أرجنتينا». وبسبب هزالها، كانت تصدر ضوضاء تصم الآذان عند تشغيلها، فتقعقع في المكان، وتوقظ الناس من نومهم في ساعات مبكرة من النهار. تولَّدت عن ذلك عدة شكاوى ومشاجرات، وخرج السيد أغباتي من إحدى المشاجرات مصابًا بتورم دائم في رأسه بعد أن ضربته جارةٌ له بكعب حذائها. وقتها، بدأ السيد أغباتي يرسل أحد أطفاله لإخبار الجيران في كل مرَّة يريد أن يدير الشاحنة، فيطرق الأطفال على باب أو بوابة أحد بيوت الجيران بضع مرَّات، معلنين: «والدنا يريد أن يُشغِّل أرجنتينا، أوه»، ثم يركضون إلى البيت التالي. في ذلك الصباح، تعارك إيكينا، الذي أصبح أكثر شراسة ونزقًا، مع أكبر الأولاد، بعدما اتهم الصبي بأنه «**مزعج**»، وهي كلمة كثيرًا ما استخدمها أبي لوصف الشخص المثير للضوضاء.

لاحقًا، بعد أن عُدنا من المدرسة في ذلك اليوم وتناولنا طعامنا، خرج إيكينا وبوجا للعب الكرة في الملعب، وظللت أنا وأوبمبي في البيت، يغمرنا الحزن لأننا لم نذهب معهما. شاهدنا التلفزيون، وكنا لا نزال نتابع البرنامج نفسه، الذي يحكي عن رجل يفض النزاعات العائلية، عندما رجعا. لم يغيبا أكثر من نصف ساعة. وبينما كانا يهرولان إلى غرفتهما، لاحظت أن وجه إيكينا مغطى بالتراب، وشفته العليا منتفخة، وثمة بقع من الدم على قميصه الذي يحمل اسم النجم «أوكوتشا» مع رقم 10 مكتوب على ظهره. فور أن أغلقا الباب، هرعت أنا وأوبمبي إلى غرفتنا، ووقفنا بجانب الجدار نسترق السمع إلى حوارهما لنعرف ماذا حدث. في البداية، لم نسمع إلا صوت فتح خزانات الملابس وإغلاقها، وصوت أقدامهما على السجادة البالية. مر وقت طويل قبل أن نلتقط الكلمات: «فكرت أن ناثان وسيغون سيتدخلان إن تدخلت أنا، فيفوقوننا عددًا، ولولا ذلك لتدخلتُ في العراك»، كان ذلك صوت بوجا، ولم ينتهِ بعد. «لو كنت أعرف فقط أنهما لن يتدخلا، لو كنت أعرف فقط».

أعقب ذلك التصريح صوت أقدام تدق على السجادة، بعدها تابع بوجا: «لكن هذا الضفدع لم يضربك حقًّا، لقد حالفه الحظ أنه...»، توقف وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة: «أنه... فعل ذلك».

انفجر إيكينا فجأة: «أنت لم تتعارك لأجلي. لا! بل وقفت تُشاهد. إياك أن تُنكر!».

بعد وقفة قصيرة، كسر بوجا الصمت وشرع يقول: «كان بإمكاني أن...».

صرخ إيكينا: «لا. لم تفعل. لقد وقفت ساكنًا».

كان صوتهما عاليًا بما يكفي لكي تسمعه أمي التي لم تذهب إلى العمل في ذلك اليوم لأن نكيم أُصيبت بإسهال. نهضت على قدميها من غرفتها، وصفعت الأرض عدة مرات بخُفيها، ثم راحت تطرق على بابهما.

«ماذا يحدث؟ لماذا تتصايحان؟».

قال بوجا: «ماما، نريد أن ننام».

«لهذا لا تفتحان الباب؟»، سألتهما، وعندما لم يجيبا قالت: «ما سبب هذا الصياح؟».

رد إيكينا بحدة: «لا شيء!».
قالت أمي: «الأفضل لكما أن يكون لا شيء. الأفضل لكما».
صفع خُفاها الأرض ثانيةً في إيقاع ثابت وهي عائدة إلى غرفتها.

***

لم يخرج إيكينا وبوجا للَّعب بعد المدرسة في اليوم التالي، وظلَّا في غرفتهما. وطمعًا في استغلال الموقف لإعادة التواصل معهما، اقتنص أوبمبي فرصة برنامج تلفزيوني يحبه إيكينا على وجه الخصوص، لكي يأتي بهما إلى غرفة المعيشة. لم يشاهد أيٌّ منهما التلفزيون منذ أن أمسكت بنا الجارة عند «أومي-ألا»، واستمر أوبمبي يحن متألمًا إلى أيام كنا نجلس فيها لمشاهدة برامجنا المفضلة معًا ببهجة صاخبة - «**أغبالا أوي**»، المسلسل الناطق باليوروبا، و«**سكيبي كنغر الأدغال**»، الدراما الأسترالية. كلما بدأ مسلسل من هذه المسلسلات فكر أوبمبي في أن يذهب ويخبرهما، لكنه يمنع نفسه خوفًا من أن يضايقهما. وفي ذلك اليوم، ومن فرط حزنه لأن «**سكيبي كنغر الأدغال**» هو المسلسل المفضَّل لإيكينا، اشرأبَّ بعنقه لينظر من ثقب باب غرفتهما ليراهما، ثم بعد أن رسم علامة الصليب، أخذت شفتاه تتحركان بلا صوت مع إيقاع الكلمات: «الأب، الابن، الروح القدس»، وبدأ يذرع الغرفة وهو ينشد أغنية المسلسل:

سكيبي، سكيبي، سكيبي كنغر الأدغال
سكيبي، سكيبي، سكيبي بطل الأبطال

أخبرني أوبمبي كثيرًا على مدى أيام انفصالنا عن شقيقينا، تلك الأيام القاتمة، أنه يريد وضع حدٍّ لهذا الشقاق، لكنني حذرته من إثارة سخطهما، واستطعت أن أثنيه في كل مرَّة. وعندما بدأ يغني تلك الأغنية، خشيت عليه ثانيةً. «لا يا أوبي، سوف يضربانك»، قلتها، داعيًا إياه أن يتوقف.

كان لالتماسي أثر أشبه بقرصة مفاجئة لم تجلب إلا رد فعل واهنًا. توقف ورماني بنظرة متلكئة كأنه ليس واثقًا مما سمعه، ثم هز رأسه، وتابع:

سكيبي، سكيبي، سكيبي كنغر الأدغال

توقف عن الغناء عندما تحرك مقبض باب غرفة شقيقيَّ بقوة. ظهر إيكينا، وتوجه إلى الأريكة بجانبي، وجلس. تجمد أوبمبي مثل تمثال، وظل إلى جوار الحائط، تحت صورة فوتوغرافية مؤطرة لنيني، أم أبي، وهي تحمل إيكينا بعد ولادته عام 1981. وتجمَّد في هذا الوضع طويلًا جدًّا كما لو كان مثبتًا إلى الجدار، ثم جاء بوجا بعده وجلس.

انتهى سكيبي الكنغر لتوِّه من قتال أفعوان من ذوات الأجراس، وكان يقفز قفزات مذهلة في كل مرَّة ينقض عليه الأفعوان بلسانه المسمم، وهو الآن يلعق كفيه.

استشاط إيكينا غضبًا: «أوه، أكره سكيبي الغبي عندما يلعق كفيه بهذه الطريقة المزعجة!».

قال أوبمبي: «لقد قاتل ثعبانًا لتوِّه. كان يجب أن ترى...».

«مَن سألك أنت؟»، هدر إيكينا وهو يقفز على قدميه. «قلت مَن سألك أنت؟».

ركل الكرسي البلاستيكي المتحرك الخاص بنكيم، في غضب، فاصطدم بالرف الكبير الذي يحمل التلفزيون، وجهاز الفيديو، والتلفون. وسقطت صورة مؤطرة محفوظة وراء لوح زجاجي لأبي وهو موظف صغير في البنك المركزي النيجيري وراء الخزانة، وتهشمت إلى قطع متناثرة.

«مَن سألك أنت»، كررها إيكينا للمرَّة الثالثة، متجاهلًا مصير صورة والدي العزيزة على قلبه. ضغط زر التلفزيون الأحمر فسكن تمامًا.

صاح قائلًا: «**أويا**، اذهبوا إلى غرفكم!».

ركضت أنا وأوبمبي لاهثين. ومن غرفتنا سمعت إيكينا يقول: «بوجا، لماذا تنتظر هنا؟ قلت اذهبوا إلى غرفكم».

سأل بوجا مندهشًا: «ماذا يا إيكي؟ أنا أيضًا؟».

«نعم، قلت اذهبوا.. اذهبوا!».

لم يكسر الصمت سوى صوت قدمي بوجا متجهًا إلى غرفته، ثم صوت بابها وهو يُصفع. بعدما غادرنا جميعًا، استدار إيكينا إلى التلفزيون وجلس وحده يشاهد.

أيقنت أن تلك اللحظة هي التي تبدى فيها الخط الفاصل بين إيكينا وبوجا لأول مرَّة، حيث لم يسبق أن ظهرت نقطة واحدة من هذا الخط قبل ذلك. غيَّرت هذه اللحظة شكل حياتنا، وقادتنا إلى زمن تُجن فيه الجماجم وتنفجر الفراغات. توقفا عن الكلام. ونزل علينا بوجا كملاك سقط من السماء، وهبط إلى الموقع الذي احتُجزنا فيه أنا وأوبمبي طويلًا.

***

في تلك الأيام المبكرة من التحول المسخي لإيكينا، تمنينا جميعًا لليد التي تقبض على قلبه وتعتصره، أن تعود وتنبسط سريعًا، لكن الأيام دارت، وابتعد عنا إيكينا أكثر فأكثر. بعدها بأسبوع أو نحو ذلك، ضرب بوجا بعد مجادلة حامية. كنت أنا وأوبمبي في غرفتنا عندما حدث ذلك، لأننا بدأنا نتجنب غرفة المعيشة في حال وجود إيكينا فيها، لكن بوجا كان غالبًا ما يظل في مكانه. ولا بد أن غضب إيكينا من إصراره هو الذي تسبب في هذا الجدال. سمعت ضربات وأصواتًا وهما يتجادلان ويتبادلان الشتائم. كان يوم سبت، وكانت أمي، التي لم تعد تذهب إلى العمل في أيام السبت، تأخذ قيلولة في غرفتها. عندما سمعت الضجة، اندفعت إلى غرفة المعيشة، مقمَّطةً من الصدر إلى الرُّكبتين لأنها كانت تُرضع نكيم التي راحت تصرخ قبلها. حاولت أمي في البداية أن تُفرِّق بين المتقاتلَين فأمرتهما بالتوقف، لكنهما لم يكترثا لها. اندفعَت لتفصلهما حتى أصبحت مشدودة بينهما، وأمسك بوجا بقميص إيكينا متحديًا، وعندما حاول إيكينا أن يخلِّص نفسه، فعل ذلك بنَتْرة غاضبة لذراع بوجا فشدَّ بالخطأ الربَّا التي كانت أمي مقمَّطة بها، فتعرَّت وانكشف سروالها الداخلي.

صرخت أمي: «**إيووه!** هل تريد أن تصيب نفسك بلعنة؟ انظر ماذا فعلت؛ لقد عريتني. هل تعرف معنى أن ترى عُريي؟ هل تعرف أن ذلك تدنيس - **ألو؟**». ربطت الربَّا حول صدرها ثانية. «سوف أخبر إيمي بكل شيء فعلتماه من الألف إلى الياء، لا تقلقا».

طرقعت بإصبعيها أمام كلٍّ منهما، وهما يقفان متباعدين، يحاولان التقاط أنفاسهما.

«أخبرني الآن يا إيكينا، ماذا فعل لك؟ لماذا تتعاركان؟».

خلع إيكينا قميصه وألقى به وهو يُطلق هسيسًا مستهجنًا. وصُعقتُ لأن إطلاق الهسيس في وجه مَن هو أكبر منك يُعدُّ في ثقافة الإغبو نشوزًا لا يمكن التسامح معه.

«ماذا يا إيكينا؟».

قال إيكينا: «**إيه** يا ماما!».

«هل هسستَ في وجهي؟»، قالتها أمي بالإنجليزية أولًا، ثم وهي تضع يديها على قلبها، قالت: «**أوبو مو كا إيغي نآ ما لو أوسو؟**».

لم يرد إيكينا، وتراجع إلى الأريكة حيث كان جالسًا قبل العراك، وتناول قميصه ومضى إلى غرفته. صفع باب الغرفة بقوة حتى إن مصاريع غرفة الجلوس صلصلت. وقفت أمي مذهولة من الإهانة البذيئة لكونه تركها وانصرف، وقد انفغر فاها، وتجمدت عيناها على الباب، واشتعل سخطها. أوشكت على التوجه إلى الباب لتأديب إيكينا، لكنها لاحظَت شفة بوجا المقطوعة، وهو يربت بقميصه المغطى ببقع قرمزية على شفتيه الداميتين.

سألته أمي: «هل هو مَن فعل بك هذا؟».

أومأ بوجا برأسه. كانت عيناه حمراوين، مملوءتين بدموع حبيسة لم يمنعها من الانهمار سوى أن ذلك سيعني أنه

ضُرب. لم أكن أنا وإخوتي نبكي عندما نتعارك، حتى عندما نتلقى لطمات شديدة أو نُضرب في أكثر المناطق حساسية. كنا نحاول دائمًا كبت الدموع حتى نصبح بعيدين عن العيون، ساعتها فقط نُطلق سراحها، فتنهمر مدرارًا أحيانًا.

صرخت أمي: «أجبني! هل أصبحت أخرس؟».

«نعم يا ماما، هو مَن فعلها».

«**أونيي**- مَن؟ إيكي-**نا** فعل ذلك؟».

رد بوجا بإيماءة من رأسه، وعيناه على القميص الملطخ في يديه. اقتربت منه أمي وحاولت أن تلمس شفته الجريحة، لكن بوجا تلوى متألمًا، فتراجعَت إلى الخلف، وهي لا تزال تحدق في الجرح.

سألته ثانيةً، وكأنه لم يجبها لتوِّه: «هل قلت إن إيكينا هو مَن فعلها؟».

قال بوجا: «نعم يا ماما».

أحكمت الربَّا ثانيةً، بمزيد من القوة هذه المرَّة. ثم هرعت إلى باب غرفة إيكينا وشرعت تضرب عليه، آمرةً إيكينا بفتحه. ولما لم تجد استجابة، بدأت تهدد بصوت عالٍ، مشددةً على كلماتها مبدية استهجانها ولتضفي عليها عزمًا وإصرارًا: «إيكينا، إذا لم تفتح الباب الآن، سأريك أنني أمك، وأنك نزلت من بين ساقيَّ».

لم تنتظر كثيرًا قبل أن ينفتح الباب. قفزت عليه وأعقب ذلك لطمات وصراخ. كان إيكينا متحديًا على غير العادة. وتلقَّى كل صفعة محتجًّا، بل هدَّد بأن يردَّها، ما فاقم غضبها أكثر. وجَّهت إليه أمي مزيدًا من اللطمات، وراح هو يصرخ ويتذمر بأعلى صوت قائلًا إنه يكرهها لأنها لم تعنِّف بوجا أولًا على استفزازه الذي أدى إلى العراك. في النهاية، دفعها على الأرض وفرَّ هاربًا. طاردته أمي، والربَّا الخاصة بها تسقط ثانيةً. وعندما وصلَت إلى غرفة الجلوس، وجدته قد رحل. رفعت الربَّا لتغطي صدرها كما فعلت من قبل، ثم راحت تسب وتلعن، وهي تلمس لسانها بطرف سبابتها: «تسمعني السماء وتسمعني الأرض. إيكينا لن يأكل أي شيء في هذا البيت ثانيةً حتى يرجع أبوكم. لا يهمني أين يأكل، لكن ليس في هذا البيت». كانت كلماتها مخنوقة بالدموع. «ليس في هذا البيت، حتى يرجع إيمي من سفره. لن يأكل هنا!».

وجَّهت حديثها إلينا نحن الذين تجمَّعنا في غرفة الجلوس، وإلى آخرين، ربما الجيران الذين ينصتون على الأرجح من الجانب الآخر من السور المأهول بالسحالي. اختفى إيكينا، والأرجح أنه عبر الطريق إلى الناحية الأخرى من الشارع، ومضى شمالًا إلى سابو، على الدرب الترابي الذي يقود إلى ذلك الجزء من المدينة، حيث تعلو التلال القديمة فوق ثلاث مدارس، وسينما في مبنى متداعٍ، وجامع كبير يؤذن المؤذن للصلاة من فوقه في ميكروفونات جبارة فجر كل يوم. لم يرجع في ذلك اليوم. نام في مكان ما لم يكشف عنه بعدها أبدًا.

ذرعت أمي البيت رائحة غادية طوال الليل، منتظرة بقلق أن يطرق إيكينا الباب. وعندما اضطرت في منتصف الليل إلى غلق البوابة من أجل الأمان - حيث كان السطو المسلح حدثًا شائعًا في أكوري في تلك الأيام - جلست منتظرة ومعها المفاتيح بالقرب من الباب الرئيسي. وقبلها دفعتنا إلى غرفنا لكي ننام، ولم يبقَ معها في غرفة الجلوس إلا بوجا، الذي لم يستطع دخول غرفته خوفًا من إيكينا. لم أنم أنا وأوبمبي، وظللنا منصتين إلى أمي من فراشينا. خرجَت مرارًا في تلك الليلة، حين ظنت أنها تسمع طرقًا على البوابة، لكنها كانت تعود بمفردها في كل مرَّة. لم تكد تجلس. وعندما بدأت السيول تنهمر في وقت لاحق، هاتفَت أبي، لكن الجرس المتكرر استمر بلا إجابة. وبينما يكرر صوت الهاتف نفسه مرَّة بعد أخرى، **بون-بون، بون-بون**، حاولتُ أن أتخيل أبي جالسًا في البيت الجديد في المدينة المحفوفة بالمخاطر، ونظارته على وجهه، يقرأ «الجارديان» أو «التريبيون»، لكن تلك الصورة التي رسمتُها له نسفها تشويش الخط نسفًا، مما جعل أمي تضع السماعة.

لم أعرف متى نمت في نهاية الأمر، لكنني سرعان ما وجدت نفسي وإخوتي في قريتنا، أمانو، بالقرب من أومواهيا، نلعب كرة القدم - اثنان في كل فريق - بالقرب من ضفة النهر، وركل بوجا الكرة فجأة إلى جسر المشاة الذي كان فيما

مضى المعبر الوحيد فوق النهر، وقد شيَّده جنود بيافرا[(6)] على عجل، كجسر بديل يستطيعون العبور عليه حال غزو القوات النيجيرية، بعدما نسفوا الجسر الرئيسي أثناء الحرب الأهلية النيجيرية. كان مخفيًّا في الغابة، وأضلاعه من الخشب رُبطت معًا بحلقات معدنية صدئة وحبال غليظة. لم يكن به درابزين يستطيع المرء الاستناد عليه وهو يعبره، وجزء النهر الذي ينساب أسفل الجسر مبطن بالصخور، والصخور والأحجار الممتدة من تلال الغابة مرئية أسفل المياه مباشرة. ركض إيكينا إلى الجسر من دون تفكير، وفي غمضة عين صار في منتصفه، لكنه عندما التقط الكرة، أدرك فجأة أنه في خطر. وحين حدق مرتاعًا في الهوة من أسفله، زرعت الهوة في عينيه رؤى لميتةٍ يسقط فيها ويصطدم بالصخور. أطبق عليه الخوف فجأة، فشرع يصرخ: «أنقذوني! أنقذوني!»، فشرعنا نناديه بخوف مثل خوفه: «إيكي، تعال، تعال». واستجابة لتوسلاتنا، فرد يديه، وترك الكرة تسقط في الشق، وسار في اتجاهنا ببطء، مشيته كمشية شخص يخطو في الوَحل. وفيما كان يتجه ناحيتنا، متقلقلًا على نحو خطير، تصدعت الأضلاع الخشبية التي خارت بفعل الزمن والتحلل، وانكسر الجسر إلى نصفين. هوى إيكينا على الفور مع ألواح من الخشب المكسور، والمعادن، وصرخة استنجاد مترجرجة عالية. كان لا يزال في سقوطه عندما استيقظتُ فجأة، وسمعتُ صوت أمي توبخ إيكينا على تعريض حياته للخطر بالنوم في الخارج والعودة مبللًا ومريضًا. سمعتُ ذات مرَّة أن قلب الرجل الغاضب لا يدق بنشاط، بل يشهق وينتفخ مثل بالون، ثم ينكمش في النهاية. كانت تلك حال أخي. مع طلوع الصباح، عندما سمعتُ صوته، ركضتُ إلى غرفة الجلوس فرأيت بعينيَّ أنه عاد مخضلًا بالماء، بلا حول ولا قوة، رجلًا بائسًا معذبًا.

***

في كل يوم يمر، يزداد إيكينا ابتعادًا عنا. كنت لا أراه في تلك الأيام تقريبًا. تراجع وجوده إلى تلك الحركات الواهية في أرجاء المنزل، إلى صخب سعاله المبالغ فيه عادةً، وراديو الترانزستور الذي غالبًا ما يرفع صوته عاليًا حتى تطلب منه أمي أن يخفضه حين تكون في البيت. كنت أراه أحيانًا يغادر المنزل لفترة قصيرة، متعجلًا في أغلب الأوقات، لكني لم أرَ وجهه مرَّة واحدة. رأيته ثانيةً في وقت لاحق من ذلك الأسبوع نفسه عندما خرج ليشاهد مباراة كرة القدم في التلفزيون. كان ديفيد قد سقط مريضًا في الليلة السابقة وتقيَّأ عشاءه، ولم تذهب أمي إلى متجرها في سوق البلدة في ذلك اليوم متفرغة لرعايته. بعد المدرسة، وبينما تعتني أمي بديفيد في غرفتها، رحت أنا وإخوتي نشاهد المباراة. جلس إيكينا الذي لم يستطع مقاومة رغبته في رؤية المباراة، ولم يستطع أيضًا إخراجنا من الغرفة لأن أمي موجودة، متعاليًا فوق طاولة الطعام، صامتًا مثل ظبي. ومع اقتراب نهاية الشوط الأول دخلت أمي غرفة الجلوس وفي يدها ورقة نقدية فئة عشر نايرات، وقالت: «أريدكما أن تذهبا وتحضرا دواءً لديفيد». ومع أنها لم تذكر الاسمين، فمؤكد أنها تخاطب إيكينا وبوجا اللذين تعودا تلبية طلباتها لأنهما الأكبر سنًّا. للحظات، لم يتحرك أيٌّ منهما من مكانه شبرًا، مما أصاب أمي بالذهول.

«ماما، هل أنا ابنك الوحيد؟»، أجابها إيكينا وهو يحك ذقنه. سبق أن أخبرني أوبمبي أنه رأى بوادر لحية إيكينا تنبت، ومع أنني لم ألاحظها وقتها، لكني لم أجادله. بلغ إيكينا الخامسة عشرة من عمره للتوِّ، وفي عينيَّ، كان رجلًا بالغًا من الطبيعي أن تنبت له لحية. مع ذلك، ففكرة بلوغه جاءت مصحوبة بخوف شديد من أن ينفصل عنا، ويذهب إلى مدرسة أعلى أو يترك المنزل وحسب. لكن تلك الفكرة لم تتشكَّل على نحو كامل في ذلك الوقت، وظلت عالقة في ذهني مثل لاعب أكروبات ممن نراهم في التلفزيون، وقد قام بقفزة مذهلة، لكنه إذ ضغط أحدهم على زر الإيقاف يظل عالقًا في الهواء، غير قادر على إكمال قفزته.

سألته أمي: «ماذا؟».

«ألا يمكن أن ترسلي شخصًا آخر؟ هل يجب أن أكون أنا دائمًا؟ أنا متعَب، ولا أريد الذهاب إلى أي مكان».

«ستذهب أنت وبوجا وتأتيان بالدواء، سواء أردت أم لم ترد. **إينوغو**- هل تسمع؟».

خفض إيكينا عينيه، في لحظة تأمل وحشي، ثم قال وهو يهز رأسه: «حسنًا، إذا أصررتِ أن أذهب أنا سأذهب، لكن

سأذهب وحدي».

وقف وتقدَّم إليها ليتناول النقود، لكن أمي ضمت قبضتها على الورقة النقدية، مخبئة إياها. صدم هذا التصرف إيكينا، فتراجع إلى الخلف مشدوهًا، وسألها: «ألن تعطيني النقود وتتركيني أذهب؟».

«انتظر، دعني أسألك: ما الذي فعله بك أخوك؟ أريد أن أعرف حقًّا، **حقًّا**».

صرخ إيكينا: «لا شيء! لا شيء يا ماما، أنا بخير. أعطيني فقط النقود ودعيني أذهب».

«أنا لا أتكلم عنك، ولكن عن علاقتك بأخيك. انظر إلى شفة بوجا». أشارت إلى جرح بوجا الذي اندمل بالكامل تقريبًا. «انظر ماذا فعلت به، بشقيقك الذي هو من لحمك...».

جأر إيكينا ومد يده: «أعطيني النقود ودعيني أذهب».

واصلت أمي برباطة جأش، بينما يتكلم هو، وهكذا تنافسا على اللحظة نفسها، مطلقين سيلًا من الكلمات خرج من كليهما هكذا: «**نواني غي يي مو ن هولو إيغو نوا أنرا إه نهولو كا مو غا با** - أخوك **أعطيني** الذي رضع **النقود** من نفس الصدر **ودعيني** الذي رضعتَ منه **أذهب!**».

«أعطيني النقود ودعيني أذهب!»، صرخ إيكينا بصوت أعلى، كأنه يهتاج أكثر مع كل كلمة تقولها أمي فتصعد فوق دَرَج كلماته، لكن أمي أجابت بحركات استهجان خافتة وهزة رتيبة من رأسها.

قال إيكينا بقدر أكبر من ضبط النفس: «أعطيني النقود فقط، أريد أن أذهب وحدي. أرجوكِ، أتوسل إليكِ، أعطيني النقود فقط».

«لتنزل صاعقة على فمك يا إيكينا! **تشينيكيم إه!** يا ربي! منذ متى وأنت تتحداني يا إيكينا، هه؟».

صرخ إيكينا، وشرع يحتج ويضرب الأرض بقدميه في غضب: «ماذا فعلتُ لكِ؟ ما الأمر؟ لماذا تتصيدين لي الأخطاء دائمًا؟ ماذا فعلتُ لكِ يا امرأة؟ لماذا لا تتركينني وشأني؟!».

ظللنا جالسين في مقاعدنا، وقد أصابت أمي، وأصابتنا جميعًا، صدمة؛ فكيف يخاطب إيكينا أمي، **أمنا**، بقوله: «يا امرأة».

سألَته بصوت مروَّض، وهي تشير إليه بسبابتها: «إيكينا، هل هذا أنت؟! هل هذا أنت، بطة ترفرف بجناحيها مثل ديك؟ هل هذا أنت؟!». لكن إيكينا توجه إلى الباب، تاركًا إياها تتكلم، فتابعته أمي وهو يفتحه، ثم طرقعت بإصبعيها ورفعت صوتها من ورائه: «انتظر حتى يتصل والدك، سأقول له كيف أصبحت. لا تقلق، انتظر فقط حتى يعود».

همهس إيكينا، وفي استعراض سافر لتحدٍّ غير مسبوق في بيتنا، اندفع خارجًا من البيت، وهو يصفع الباب من خلفه بقوة. وكأنه إعلان لما حدث للتوِّ، أطلقت إحدى السيارات نفيرًا جنونيًّا طويلًا، وعندما توقفت أخيرًا، تركت طنينها يتردد في رأسي، مغلِّظًا جسامة تحدي إيكينا.

جلست أمي على إحدى الأرائك، والصدمة والغضب يعتصران قلبها، وهي تدمدم لنفسها يائسة، ويداها متشبثتان بصدرها: «لقد كبر، إيكينا كبر ونبتت له قرون».

تأثرتُ لمرآها في هذه الحال اليائسة. بدا لي أن جزءًا من جسدها، جزءًا كانت قد اعتادت لمسه، أنبت أشواكًا، وكلما حاولت لمس ذلك الجزء أدمت يديها.

ناداها أوبمبي: «ماما».

أجابت: «إيه يا ننام- بابا».

«أعطيني النقود. سأذهب لشراء الدواء، وسيأتي بِنْ معي. أنا لست خائفًا».

رفعَت رأسها إليه وأومأت، وابتسامة تنير عينيها.

قالت: «شكرًا يا أوبي. لكن الظلام حلَّ. سيذهب بوجا معك. خذا حذركما».

قلت، وأنا أنهض لأجلب ملابسي: «سأذهب أنا أيضًا».

قالت أمي: «لا يا بِنْ. ابقَ هنا معي. يكفي اثنان».

كثيرًا ما تذكرت تلك الجملة، أثناء الحالة العقلية التي بدأت تتطور لديَّ بعد أن تحطمت حيواتنا: «يكفي اثنان»، وكأنها نذير للحوادث المشؤومة التي ستحل بأسرتنا بعد بضعة أسابيع من ذلك اليوم. جلستُ إلى جوار أمي وأوبمبي أفكر في تغيُّر إيكينا. لم يسبق لي أن رأيته يتصرَّف بهذه الغلظة مع أمي، كان يحبها حبًّا جمًّا. من بيننا جميعًا، كان الأكثر شبهًا بها. أخذ لون بشرتها الشبيه بلون عش النمل الاستوائي. في هذا الجزء من أفريقيا، كانت النساء المتزوجات عادةً ما يحملن اسم ابنهن البِكر، وهكذا، عُرفت أمي باسم «ماما إيكي» أو «أداكو». كان إيكينا أول من تمتع برعاية أغدقت بها على أطفالها، وفي مهده نمنا جميعًا بعده بسنوات، وورثنا سلال الأدوية وأدوات رعاية الأطفال الخاصة به. كثيرًا ما وقف إلى جوار أمي في مواجهة الجميع في الماضي، حتى أبي. وإذا عصينا أوامر أمي، عاقبنا هو قبل أن تتخذ هي أي ردة فعل. شراكتهما هي ما منحت أبي الرضا عن كوننا نستطيع جميعًا أن ننال تربية جيدة، حتى في غيابه. النقرة الصغيرة في الإصبع الرابعة في يد أبي اليمنى ندبة من عضة إيكينا؛ فقبل أن أولد بأعوام، ضرب أبي أمي في سورة غضب، فانقض عليه إيكينا وعضَّه في إصبعه، وهو ما أنهى المعركة بالطبع.

بيافرا: إقليم نيجيري شهد حركة انفصالية أسست «جمهورية بيافرا» بين عامي 1967 و1970. (المترجم).

5
التحول المسخي

إيكينا يمر بتحول مسخي.

استمرت تجربة تغيُّر الحياة مع كل يوم يمر. أغلق إيكينا على نفسه بعيدًا عنا، لكن على الرغم من غيابه، بدأ يترك وراءه فتاتًا من نفسه في أرجاء المنزل بأفعال خلَّفت على حيواتنا آثارًا مقيمة. وقع أحد تلك الأفعال في بداية الأسبوع الذي تلا مشاحنته مع أمي. كان يوم اجتماع أولياء الأمور والمُدرسين، فأخرجتنا المدرسة مبكرًا. ظل إيكينا وحيدًا في غرفته، بينما جلسنا أنا وبوجا وأوبمبي في غرفتنا نلعب الورق. كان يومًا حارًّا على غير العادة. تعرينا جميعًا حتى الوسط، وجلسنا على السجادة، وتركنا شباكنا الخشبي مشرعًا عن آخره، محشورًا بحجر صغير لكي يُدخل الهواء. وعند سماع باب غرفته يُفتح ويُغلق، قال بوجا: «إيكي يخرج من البيت».

بعد برهة صغيرة، سمعنا فتح باب العواصف وإغلاقه في غرفة الجلوس. مر علينا يومان لم نرَ إيكينا الذي أصبح وجوده في المنزل نادرًا، وحتى أثناء وجوده يبقى في غرفته، وعندما يكون هناك، لا يستطيع أحد أن يدخلها. حتى بوجا الذي يشاركه الغرفة، ظل يحتاط من إيكينا منذ معركتهما الأخيرة، وطلبت منه أمي أن يبقى بعيدًا عنه إلى أن يرجع أبي فيطرد الأرواح الشريرة التي سكنته. وهكذا، ظل بوجا معنا أغلب الوقت، لا يدخل الغرفة إلا في أوقات كهذه، عندما يتأكد من خروج إيكينا. نهض ذاهبًا إلى الغرفة بسرعة ليأخذ بعض الأشياء التي يحتاج إليها، بينما ظللت أنا وأوبمبي منتظرين عودته لنستأنف اللعب. ولم يكد يخرج حتى سمعته أنا وأوبمبي يصرخ: «**موغبي!**» - وهي صيحة نحيب في لغة اليوروبا. وبينما ركضنا خارجين، راح بوجا يصرخ: «روزنامة M.K.O، روزنامة M.K.O!».

«ماذا؟ ماذا؟»، سألناه ونحن نندفع إلى الغرفة، ثم رأينا بأنفسنا.

كانت روزنامة «M. K. O» الأثيرة لدينا ممزقة إربًا إربًا. لم أُصدق في البداية، فنظرت إلى الحائط حيث موضعها الدائم، لكنني لم أرَ إلا سطحًا مربعًا خاليًا، أنظف وأكثر إشراقًا، يكاد يكون لامعًا في وسط الحائط، وحوافه ملطَّخة بخفة مكان شرائط اللصق التي كانت تثبت الروزنامة. أرعبني المنظر، ولم يستطع ذهني استيعاب الأمر، فروزنامة «M.K.O» لم تكن مجرد روزنامة، وقصة حصولنا عليها تُمثِّل أكبر إنجازاتنا، ودائمًا ما كنا نعيد سردها على أنفسنا بفخر عظيم. كان يومًا في منتصف شهر مارس سنة 1993، في أوج حملات الانتخابات الرئاسية، وقد وصلنا إلى المدرسة صباحًا والجرس يقرع آخر دقاته، فاندمجنا على الفور وسط التلاميذ المثرثرين، مشكِّلين طوابير وصفوفًا ثابتة تبعًا للفصول في ساحة المدرسة. وقفتُ في طابور الحضانة، وأوبمبي في طابور الصف الأول، وبوجا في طابور الصف الرابع، وإيكينا في طابور الصف الخامس - الطابور قبل الأخير إلى جوار السور. وفور أن تشكَّلت الطوابير، بدأ تجمع الصباح، وراح التلاميذ ينشدون الأناشيد، ويتلون «صلاة الرب»، ويغنون النشيد الوطني النيجيري. ثم وقف الأستاذ لورنس، كبير المُدرسين، على المنصة، وفتح سجل الحضور المدرسي الكبير، ونادى التلاميذ بأسمائهم وأسماء عائلاتهم، ونحن نرد رافعين أيدينا: «نعم يا سيدي!». بهذه الطريقة، كان يأخذ الحضور للتلاميذ الأربعمائة في المدرسة. وعندما وصل الأستاذ لورنس إلى طابور الصف الرابع، ونادى أول اسم في القائمة، «بوجانونيميوكبو ألفريد أغوو»، انفجر التلاميذ ضاحكين.

رفع بوجا يديه مباعدًا بين أصابعه، في إشارة «**واكا**» للتلاميذ، وصاح بأعلى صوته: «هذه في وجوه آبائكم جميعًا».

أخرسَت عبارته ضحكات التلاميذ، فوقفوا ساكنين، لم يتحرك أحد، ولم يتفوه أحد بكلمة، إلا بعض همهمات سرعان ما خفتت وتلاشت. حتى الأستاذ لورنس المُرعب، الشخص الوحيد ممن أعرفهم الذي يجلد بشكل مؤلم أكثر من أبي، والذي لم يُشاهَد تقريبًا من دون سوط، بدا أنه تائه وعاجز لوهلة. كان بوجا غاضبًا في ذلك الصباح حتى قبل أن نذهب إلى المدرسة، حيث أحرجه أبي وطلب منه أن يُخرج المرتبة التي بللها بعد أن استيقظ. وقد يكون ما فعله عندما نادى

الأستاذ لورنس على اسمه نتيجة لذلك؛ إذ كان أمرًا معتادًا أن يضحك التلاميذ كلما كافح الأستاذ لورنس، وهو رجل من اليوروبا، لنطق اسم الإغبو الكامل لبوجا. وكان بوجا يعرف قصور الأستاذ لورنس، واعتاد على استخدامه لأصوات متجانسة تقريبية، تتراوح، وفقًا لمزاجه، بين المتنافر جدًّا (بوجانونوكوو)، والمضحك جدًّا (بوجانولووكو)، وهو ما كان بوجا نفسه يستحضره عادةً، ويتباهى بكونه شخصية خطيرة تحمل اسمًا لا يستطيع أي شخص نطقه، كما لو كان اسم إله. يجد بوجا عادةً متعة في تلك اللحظات، وحتى ذلك الصباح لم يسبق له أن اشتكى مرَّة واحدة.

اتجهت الناظرة إلى المنصة، وتراجع الأستاذ لورنس، مباغَتًا. أصدر البوق المُكبر للصوت صفيرًا طويلًا وهو ينتقل من يده إلى يدها.

قالت الناظرة: «مَن قال هذه الكلمات في حضانة ومدرسة أوموتايو الابتدائية، هذه المدرسة المرموقة التي شُيدت وأُسست على كلمة الرب؟».

تملكني الخوف من عقاب حاد وشيك سيتلقاه بوجا على تصرفه، ربما يُجلد على المنصة، أو يُطلب منه أن «يعمل»، وهو ما يعني كنس المدرسة بأكملها، أو نزع الأعشاب عن الشجيرات أمام المدرسة بيدين عاريتين. بحثت عن عيني أوبمبي في طابور يبعد عني بصفين، لكن أنظاره كانت مثبتة على بوجا.

صاحت الناظرة ثانيةً بصوت جهوري: «مَن الذي فعلها؟».

أجاب صوت مألوف: «أنا يا سيدتي».

سألته، بصوت أخفض من ذي قبل: «مَن أنت؟».

«بوجا».

وقفة قصيرة، ثم ارتفع بعدها صوت الناظرة المميز وهي تقول «تعالَ هنا» في مكبر الصوت. وعندما توجَّه بوجا إلى المنصة، ركض إيكينا، ووقف أمامه، وصاح بعلو صوته: «لا يا سيدتي! هذا ليس عدلًا! ما الذي فعله؟ ماذا؟ إذا كنتِ ستعاقبينه، فعاقبي كل من ضحكوا منه أيضًا. لماذا يضحكون ويسخرون منه؟».

الصمت الذي أعقب تلك الكلمات الجريئة، ذلك التحدي الذي أبداه إيكينا وبوجا، بدا روحانيًّا للحظة. اهتز مكبر الصوت في يدي الناظرة مترجرجًا ثم سقط أرضًا بصفير عالٍ. التقطَت مكبر الصوت، ثم وضعته على المنصة، ورجعت إلى الخلف.

ارتفع صوت إيكينا مجددًا، أعلى من صوت مستعمرة من الطيور تُبحر في اتجاه التلال: «الحقيقة أن هذا ليس عدلًا. إننا نُفضل ترك مدرستكم على أن نتلقى عقابًا ظالمًا. أنا وأخي سنغادر. الآن. هناك مدارس أفضل، حيث يمكننا أن نتلقَّى تعليمًا غربيًّا، لن يظل أبي يدفع لكم هذه النقود الكثيرة».

أتذكر، في مرآة الذاكرة الرقراقة، الحركات غير الواثقة لقدمي الأستاذ لورنس وهو يمد يده للعصا الطويلة، وإيماءة الناظرة التي أوقفته. مع ذلك، حتى لو تركته، ما استطاع اللحاق بإيكينا وبوجا اللذين شقَّا الطوابير وقد انفتحت بلطف لأجلهما بين التلاميذ الذين تجمدوا من الخوف، شأنهم شأن المدرسين. ثم أخذ شقيقاي الكبيران بيدي ويد أوبمبي، وركضنا خارجين من المدرسة.

لم يكن بوسعنا الذهاب إلى البيت مباشرة، لأن أمي كانت قد وَلدت ديفيد لتوِّها ولم تُشفَ تمامًا بعد. قال إيكينا إننا سنثير قلقها إن عدنا إلى البيت بعد أقل من ساعة منذ مغادرتنا إلى المدرسة. مضينا في شارع مسدود، يتشكَّل في أغلبه من أرض عشبية خاوية، بها لافتات كُتب عليها: «هذه الأرض ملكٌ لفلان وفلان، ممنوع الدخول». توقفنا عند واجهة غير مكتملة لبيت مهجور. رأينا ما بدا أنه فضلات كلاب متناثرة في كل مكان على الطوب المتداعي وأهرام الرمال المتهاوية. دخلنا البناية، وجلسنا على الأرض في جزء ممهد ومسقوف - خمَّن أوبمبي أنه سيصبح غرفة الجلوس. قال بوجا: «كان لا بد أن تروا وجه ابنة الناظرة». قلدنا المدرسين والتلاميذ، ورحنا نتباهى بما فعلناه، ونحن نبالغ في المناظر لنجعلها أشبه بمشاهد سينمائية.

جلسنا هناك ثلاثين دقيقة تقريبًا، نتكلم عما حدث في المدرسة، واجتذبت انتباهنا فجأة ضوضاء تتعالى من بعيد. رأينا شاحنة «بيدفورد» تقترب ببطء، مغطاة بملصقات تحمل وجه الزعيم مشهود أبيولا (أو «إم. كيه. أو. أبيولا»)، مرشح الحزب الديمقراطي الاجتماعي، الطامح للرئاسة. ورأينا حشدًا من الناس فوق ظهر الشاحنة المفتوحة، يهدرون بأغنية تُذاع على تلفزيون الدولة كثيرًا في تلك الأيام: الأغنية التي ترفع من شأن «M.K.O» بوصفه «الرجل». كان الناس يغنون، ويطبلون، ورجلان يرتدي كلٌّ منهما قميصًا أبيض عليه صورة «M.K.O» ينفخان في البوق. وفي أرجاء الشارع، أطل المتفرجون من البيوت، والعرائش، والمتاجر، وراح البعض يحدق من النوافذ. وبينما يتحرك الحشد، انفصل بعضهم عن الشاحنة وراح يوزع ملصقات. أعطوا إيكينا، الذي تقدَّم لملاقاتهم بينما بقينا نحن في الخلف، ملصقًا صغيرًا يحمل صورة «M.K.O» مبتسمًا، وإلى جواره حصان أبيض وكلمات: «الأمل 93: وداعًا للفقر» مكتوبة من أعلى إلى أسفل عند الزاوية اليمنى من الملصق.

قال بوجا فجأة: «لماذا لا نسير وراء هذا الحشد ونرى «M.K.O»؟ إذا أصبح الرئيس بعد الانتخابات، سنتفاخر كثيرًا بأننا قابلنا رئيس نيجيريا!».

وقال إيكينا متأملًا: «نعم، صحيح، لكن إذا ذهبنا معهم في زينا المدرسي، قد يطردوننا، فهم يعرفون أن الوقت لا يزال مبكرًا، وأن المدرسة لا يمكن أن تُغلق الآن».

رد بوجا: «إذا قالوا هذا، نستطيع أن نقول لهم إننا غادرنا لأننا رأيناهم».

وافق إيكينا: «نعم، نعم، وقد يجعلهم ذلك يحترموننا أكثر».

وقال بوجا: «ماذا إذا سرنا وراءهم من بعيد، من ناصية إلى ناصية؟». حاز إيماءة موافقة من إيكينا، فتشجَّع وتابع: «بهذه الطريقة، يمكننا البقاء بعيدًا عن المشاكل، وفي الوقت نفسه نرى M.K.O».

التصقت الفكرة برؤوسنا، فانعطفنا حول ناصية الشارع، ملتفين حول كنيسة كبيرة ومنطقة يعيش فيها الشماليون. انبعثت رائحة حادة حول المنعطف في الزقاق حيث يقع المجزر الكبير. وعند مرورنا سمعنا سكاكين تدق على الألواح الخشبية حيث يُقطِّع الجزارون اللحم، وأصوات حشد الأنصار والجزارين ترتفع باطِّراد، كتفًا بكتف، مع الدق. ركع رجلان أمام بوابة المجزر على سجادة وهما يصليان، بينما وقف ثالث على بُعد بضعة أمتار منهما، يتوضأ من إبريق بلاستيكي صغير يمسكه بيده. عبرنا الطريق، ومررنا بجيرتنا، ورأينا رجلًا وامرأة يقفان أمام بوابة بيتنا وأعينهما مثبتة على كتاب في يد المرأة. أسرعنا الخطى، ونحن نختلس النظر من حولنا لنتأكد أن أحدًا من جيراننا لم يرنا، لكن الشوارع بدت مهجورة. مررنا بكنيسة صغيرة مبنية من الصاج ومسقوفة بالصفيح، يحمل جدارها رسمًا تفصيليًّا للمسيح وهالة تحيط بتاج الشوك فوق رأسه. ومن ثقب في صدره، تتساقط قطرات من الدماء، لكنها تنقطع تحت أضلعه الظاهرة. عبرت سحلية الخط الذي ترسمه قطرات الدم المتتابعة بذيل منتصب، وأخفت هيئتُها الوضيعة الصدرَ المثقوب. عُلقت الملابس على أبواب المتاجر المفتوحة التي وُضعت أمامها طاولات متقلقلة كُدِّست عليها أكوام من الطماطم، والمشروبات المُعلَّبة، وعبوات رقائق الذرة، وصفائح الحليب، وغيرها من الأغراض. وعلى الجانب الآخر من الكنيسة مباشرةً كانت هناك سوق ممتدة على مساحة كبيرة من الأرض. انزلق الموكب عابرًا الدرب الضيق بين البشر، والأكشاك، والمتاجر، وكانت شاحناتهم تكدُّ في سيرها متثاقلة لتجتذب مرتادي السوق. وفي كافة أنحاء السوق، رأينا كتلة مكتظة من البشر في حالة هياج كأنها قبيلة من اليرقات. وبينما نخترق السوق، انفك صندل أوبمبي، لأن رجلًا ضغط بحذائه على شريط الصندل، وشده أوبمبي من تحت حذاء الرجل فانقطع، تاركًا الصندل بشريطه الأمامي فقط مثل شبشب. راح أوبمبي يجرجر قدميه ونحن نمضي خارجين من السوق إلى طريق للمركبات كثير المنحدرات.

ما كدنا نضع أقدامنا على هذا الطريق حتى توقف أوبمبي، وكوَّر يده على أذنه، وصاح على نحو محموم: «اسمعوا، اسمعوا!».

قال إيكينا: «نسمع ماذا؟».

عندها، سمعتُ ضجة مشابهة لضجة الموكب، لكنها أقرب ومحسوسة أكثر هذه المرَّة.

«اسمعوا»، قالها أوبمبي بحدة محدقًا صوب السماء. ثم فجأة، انفجر صارخًا: «**هليكوت! هليكوت!**».

«هلي-كوب-تر»، قالها بوجا بصوت خرج أخنف لأن عينيه كانتا لا تزالان تركزان على السماء.

كانت الصورة الكاملة للمروحية قد بدأت تظهر الآن، وهي تنزل تدريجيًّا إلى مستوى الأبنية ذات الطابقين في الحي. كانت مطلية بالأخضر والأبيض، اللونين المميزين للعلم النيجيري، وقد حُفر عليها رسم لحصان أبيض متهيئ للقفز داخل دائرة مستطيلة في وسط هيكلها. جلس رجلان يمسكان بأعلام صغيرة على عتبة أحد بابيها، يخفيان رجلًا في زي الشرطة، وآخر في «**أغبادا**»، الزي التقليدي لليوروبا، لامع بلون أزرق بحري. واصطخبت المنطقة كلها بصيحات: «إم. كيه. أو. أبيولا»، وأطلقت العربات نفيرها على الطرقات، وضجت محركات الدراجات البخارية في عويل يصم الآذان، بينما بدأ حشد هائل يتجمع في مكان ما على البعد.

صاح إيكينا نائحًا: «M.K.O. M.K.O في هذه المروحية».

شدني من يدي، وركضنا في الاتجاه الذي قدَّرنا أن المروحية ستهبط فيه. وجدناها تهبط أمام بناية رائعة الجمال محاطة بمجموعة من الأشجار، وسور من الأسلاك الشائكة ارتفاعه تسع أقدام، يبدو أنها مملوكة لسياسي نافذ. كانت أقرب مما حسبناها، ففوجئنا أننا، إلى جانب المساعدين وزعيم قبَلي كان أمام البوابة في انتظار «M.K.O»، أول من وصل إلى المكان. وصلنا ونحن نغني واحدة من أغاني الحملة الخاصة بـ«M.K.O»، لكننا توقفنا لنراقب المروحية وهي تهبط، وأرياش مروحتها التي تدور بسرعة تثير سحابة من التراب حجبت «M.K.O» وزوجته «قديرة» عن الأنظار وهما يترجلان منها. وعندما انقشعت السحابة، رأينا «M.K.O» وزوجته يرتديان ثوبين تقليديين لامعين. ومع تجمع الحشود، شكَّل الحراس من ذوي الزي الموحد والأزياء العادية جدارًا ليعزلوهما. كان الناس يقرقرون، ويهللون، ويصيحون باسمه، ولوَّح الزعيم بيده ردًّا عليهم. ومع تكشف هذا المشهد، بدأ إيكينا يغني أغنية كنسية سطونا عليها، وأعدنا توزيعها، وكنا نغنيها لأمي لكي نهدئها عندما تغضب منا، وقد استبدلنا «ماما» بـ«الرب». والآن، وضع إيكينا «M.K.O» محل «ماما»، وانضممنا جميعًا إليه، نغني بأعلى صوتنا:

M.K.O، جمالك يفوق الوصف
وتعجز الكلمات عن التعبير عن روعتك.
أنت أجمل الكائنات،
مثلما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت.
من يستطيع أن يلمس حكمتك اللانهائية؟
من يستطيع أن يسبر أغوار حبك؟
M.K.O، جمالك يفوق الوصف،
وجلالك متوج في الأعالي.

شرعنا في تكرار الأغنية عندما أشار «M.K.O» إلى مساعديه ليتركونا نقترب منه. وفي اهتياج، شققنا طريقنا ووقفنا بين يديه. من قريب، رأينا وجهه مدورًا، ورأسه مخروطيًّا. وعندما ابتسم، منحت عيناه ملامحه لطفًا زائدًا. أصبح شخصًا حقيقيًّا: لم يعد مجرد شخصية لا وجود لها إلا في عالم الشاشات التلفزيونية وصفحات الجرائد، صار فجأة رجلًا عاديًّا مثل أبي أو بوجا، أو حتى إغبافي وزملائي في الفصل. ملأني هذا التجلي بخوف مفاجئ، فتوقفت عن الغناء، وأنزلت عينيَّ عن وجه «M.K.O» المُشرق، وثبَّتهما على حذائه الذي يبرق من فرط التلميع، ورأيت على أحد جانبي الحذاء نحتًا معدنيًّا لرأس كائن يُشبه «الميدوزا» في فيلم بوجا المفضَّل «صراع الجبابرة». وسوف يخبرني إيكينا لاحقًا، بعد أن أذكر له هذا الرأس، أنه سبق له تلميع أحد أحذية أبي وكان عليها النقش نفسه. وقد نطق حروف الاسم متفرقة لأنه لم يستطع

نطق الكلمة: «ف-ر-س-ا-ت-ش-ي».

سألَنا «M.K.O»: «ما أسماؤكم؟».

قال إيكينا: «أنا إيكينا أغوو، وهؤلاء إخوتي: بنجامين، وبوجا، وأومبي».

قال الزعيم أبيولا، بابتسامة واسعة: «آه، بنجامين. هذا اسم حفيدي».

انحنت عليَّ زوجته، بثوبها المماثل لثوب «M.K.O»، وفي يدها حقيبة لامعة، وربتت على رأسي كما يربت المرء على كلب وافر الفراء. شعرتُ بشيء معدني يخدش بخفة فروة رأسي قصيرة الشعر، وعندما سحبَت يدها عرفت أنه خاتم. كانت تضع واحدًا في كل إصبع من أصابعها تقريبًا. رفع «M.K.O» يده لتحية الحشد الهائل الذي تجمَّع لتوِّه في المنطقة، هاتفًا بشعار الحملة: «الأمل 93! الأمل 93!»، وظل لبرهة يكرر كلمة **أوون** - وتعني «هؤلاء» بلغة اليوروبا - بنبرات مختلفة، محاولًا أن يُسمع صوته للحشد المتجمِّع.

عندما تراجع الهتاف، وأعقبه قدر معقول من الصمت، ضرب «M.K.O» الهواء بقبضته وصرخ: «**أوون أومو يي نيبي إم.كيه.أو ليوا جو غبوغبو نكان لو**».

رد الحشد بصيحات استحسان وحشية، وبعضهم صفَّر وأصابعه في زاويتي فمه. حدق فينا بانتظار أن يهدأوا، ثم تابع بالإنجليزية: «طيلة حياتي كسياسي وحتى الآن، لم يسبق لي أن سمعت شيئًا كهذا، حتى من زوجاتي...». قاطعه الحشد بقهقهة صاخبة. «أقصد أنه لم يسبق لأحد أن قال لي إن جمالي يفوق الوصف - **بي مو لي وا جو غبوغبو نكا لو**».

هتفت أصوات الحشد ثانيةً وهو يفرك كتفي بيده.

«يقولون إن الكلمات تعجز عن التعبير عن روعتي».

رد الحشد على كلماته بوابل من التصفيق، وتعالى الصفير أكثر فأكثر.

«يقولون إنني مثلما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت».

اهتاج الحشد ثانيةً، وفور أن هدأوا، انفجر «M.K.O» بأشرس صيحة ممكنة: «مثلما لم ترَ عين جمهورية نيجيريا الفيدرالية ولا سمعت أذنها!».

تعالت أصوات الحشد لزمن بدا دهرًا، قبل أن يتركوه يتحدث ثانيةً، لكنه وجه حديثه في تلك المرَّة إلينا وليس إليهم.

قال، وسبابته ترسم دائرة في الهواء فوقنا: «ستفعلون جميعًا شيئًا لأجلي. ستقفون معي ليلتقطوا صورة لنا. سنستخدمها في حملتنا».

أومأنا برؤوسنا، وقال إيكينا: «على الرحب والسعة يا سيدي».

«**أويا**، قفوا معي».

أشار إلى أحد مساعديه ليتقدم، وهو رجل قوي البنية يرتدي بدلة بُنية محكمة وربطة عنق حمراء. انحنى الرجل تجاهه فهمس في أذنه بشيء لم نسمع منه إلا كلمة «كاميرا». وفي غمضة عين، اقترب رجل أنيق يرتدي قميصًا أزرق وربطة عنق، ومعه كاميرا مُعلَّقة على صدره بشريط أسود تتكرر عليه كلمة «نايكون». وحاول بضعة مساعدين آخرين أن يدفعوا الحشد إلى الخلف، فيما انفصل «M.K.O» عنا لدقيقة ليصافح مضيفه، ذلك السياسي الذي ظل واقفًا عن قرب في انتظار أن يلتفت إليه، ثم استدار «M.K.O» إلينا: «هل أنتم مستعدون الآن؟».

أجبنا في صوت واحد: «نعم يا سيدي».

قال: «حسنًا. سأقف في المنتصف وتحركا أنتما...». أشار إليَّ أنا وإيكينا: «إلى هنا». وقفنا عن يمينه ووقف أومبي وبوجا عن يساره، وتمتم: «حسنًا. حسنًا».

وجَّه المصور الكاميرا وهو يضع إحدى ركبتيه على الأرض ويثني الثانية، فأضاء وميض ساطع وجوهنا في غمضة عين. صفق «M.K.O»، وصفق الحشد وهتف. «شكرًا لكم يا بنجامين وأومبي وإيكينا»، قالها «M.K.O» وهو يشير إلى كلٍّ

منا باسمه، وعندما وصل إلى بوجا، توقف مرتبكًا، مما جعل بوجا يقول اسمه. ردده «M.K.O» في مقاطع مائلة: «بو-**جا**». ثم تعجَّب ضاحكًا: «واو! إنه يشبه **مو جا**» (وتعني «حاربتُ» بلغة اليوروبا)، «هل تحارب؟».

هز بوجا رأسه نفيًا.

تمتم «M.K.O»: «عظيم. لا تفعل أبدًا». ثم تابع وهو يهز إصبعه محذرًا: «الحرب ليست جيدة. ما اسم مدرستك؟».

«حضانة ومدرسة أوموتايو الابتدائية في أكوري»، قلتُها بتلك الطريقة الرتيبة التي تعلمناها للرد على السؤال كلما طُرح.

قال «M.K.O»: «عظيم يا بِنْ». ثم رفع رأسه ناحية الحشد وقال: «سيداتي وسادتي، هؤلاء الأولاد الأربعة من أسرة واحدة سيتلقون الآن منحًا دراسية من حملة «مشهود كاشيماو أولاوالي أبيولا»».

وفيما راح الحشد يصفق، دس يده في الجيب الجانبي الكبير لثوب «**الأغبادا**» الذي يرتديه، وأعطى إيكينا حفنة من النايرات، ثم سحب أحد مساعديه إليه وقال: «سيأخذكم ريتشارد إلى بيتكم، ويسلمكم إلى والديكم، ويأخذ أسماءكم وعنوانكم».

«شكرًا يا سيدي»، صحنا بها في صوت واحد، لكن لا يبدو أنه سمعنا. اتجه ناحية البيت الكبير مع مساعديه ومضيفيه، مستديرًا بين حين وآخر لكي يلوح للحشد.

سرنا وراء المساعد إلى مرسيدس سوداء مصفوفة على الجهة الأخرى من الطريق، وأوصلنا إلى المنزل بها. ومنذ ذلك اليوم، بدأنا نتباهى بأنفسنا كوننا أولاد «M.K.O».

نودي على أسمائنا نحن الأربعة إلى المنصة أثناء اجتماع المدرسة ذات صباح، وتلقَّينا تصفيقًا بعد أن ألقت الناظرة، التي نسيت وسامحتنا بعد الصدفة التي جعلتنا نقابل «M.K.O»، خطابًا طويلًا عن أهمية ترك انطباعات جيدة لدى الناس، وعن أهمية أن نكون «سفراء جيدين للمدرسة». ثم أعلنت، وسط استحسان أكبر وأكبر، أن والدنا، السيد أغوو، لن يكون عليه بعد ذلك أن يدفع لنا مصروفات المدرسة.

على الرغم من هذه المكاسب الواضحة، والشهرة التي اكتسبناها داخل حيِّنا وحوله، والإعفاء المالي الذي ناله أبي وفرحته، فإن روزنامة «M.K.O» جسَّدت أكبر مكاسبنا. كانت بمثابة نيشان لنا، وشهادة على انتسابنا إلى رجل يعتقد كل مَن في غرب نيجيريا تقريبًا أنه سيصبح الرئيس القادم لنيجيريا. في هذه الروزنامة كان هناك أمل قوي لأجل المستقبل، إذ كنا نؤمن بأننا أبناء «الأمل 93»، حلفاء «M.K.O». أكد إيكينا أن «M.K.O» عندما يصبح رئيسًا، سيكون بإمكاننا أن نذهب إلى مقر حكومة نيجيريا في أبودجا، وسيسمحون لنا بالدخول بمجرد إبراز الروزنامة، وأكد أيضًا أن «M.K.O» سيضعنا في منصب كبير، وربما يجعل أحدنا رئيسًا لنيجيريا يومًا ما. آمنا جميعًا بأن ذلك سيحدث، وتعلَّق أملنا على هذه الروزنامة، التي مزقها إيكينا الآن.

***

بعدما اتخذت التحولات المسخية لإيكينا صورة كارثية، وبدأت تهدد الدعة التي نعيش في كنفها، راحت أمي تبحث يائسة عن حل، صارت تطرح أسئلة، وتصلي، وتحذِّر، لكن من دون جدوى. ومع مرور الأيام، أصبح واضحًا أن إيكينا، الذي كان شقيقًا لنا يومًا ما، حُبس في علبة مغلقة بإحكام وأُلقي بها في المحيط. لكن يوم تمزيق الروزنامة الاستثنائية، تأثرت أمي إلى درجة تفوق الوصف. كانت قد عادت من العمل في ذلك المساء وأعطاها بوجا الذي يجلس منتحبًا بشدة وسط المزق المتناثرة، بقايا الروزنامة التي كنسها وجمعها في ورقة بيضاء، وقال: «هذا ما أصبحت عليه روزنامة «M.K.O» يا أمي».

في البداية، ذهبت أمي غير مصدقة إلى الغرفة لترى الجدار الفارغ قبل أن تفرد الورقة في يديها. جلست على الكرسي واستندت إلى الثلاجة التي لا تكف عن الأزيز. كانت تعرف، مثلنا، أننا لا نملك إلا نسختين، وقد منح أبي واحدة، على الرحب والسعة، إلى ناظرة مدرستنا التي علَّقتها في مكتبها بعد أن رصد لنا مساعدو الزعيم «M.K.O» منحة دراسية

هناك.

قالت: «ما الذي حل بإيكينا؟ أليست هذه الروزنامة التي كان مستعدًّا للتضحية بنفسه من أجل حمايتها؛ الروزنامة التي ضرب أومبي لأجلها». بصقت كلمة «**توفيا!**» المرادف الإغبو لكلمة «حاشا لله»، مرَّة بعد مرَّة، وهي تطرقع بإصبعيها فوق رأسها، في إيماءة خرافية تقصد إبعاد الشر الذي رأته في سلوك إيكينا. أشارت إلى المرَّة التي ضرب فيها إيكينا أومبي لأنه سحق بعوضة على الروزنامة، مخلفًا بقعة لا تُمحى من أثر دم البعوضة على العين اليسرى لـ«M.K.O».

جلست في مكانها تتساءل عما حل بإيكينا. أصابها القلق، لأن إيكينا حتى وقت قريب كان الأخ الحبيب، البكر الذي انطلق إلى العالم قبلنا جميعًا، وفتح أمامنا كل باب. هو مَن أرشدنا، وحمانا، وقادنا بمصباح ساطع الإضاءة. ومع أنه كان يعاقبني أنا أو أومبي أحيانًا، ويختلف مع بوجا في بعض المسائل، إلا أنه سرعان ما يتحول إلى أسد طوَّاف عندما يُقلق أي غريب راحتنا. لم أعرف كيف تكون الحياة من دون تواصل معه، ومن دون رؤيته، لكن ذلك بالتحديد هو ما بدأ يحدث، ومع مرور الأيام بدا أنه يتعمد إيذاءنا.

لم تتفوَّه أمي بكلمة بعد رؤية الجدار الفارغ في تلك الليلة. اكتفت بطهو **إيبا**، وسخنت قِدر شوربة **الأغبونو** التي أعدتها في اليوم السابق. وبعد أن تناولنا طعامنا، ذهبَت إلى غرفتها، وظننتُ أنها نامت، لكن في منتصف الليل تقريبًا، دخلَت غرفتي أنا وأومبي.

نادتنا وهي تنقر علينا: «استيقظا، استيقظا».

صرختُ عند لمستها. وعندما فتحتُ عينيَّ، لم أرَ سوى عينين بارزتين تطرفان في الظلام الدامس.

قالت أمي: «هذه **أنا**، هل تسمع؟ أنا».

قلت: «نعم يا ماما».

«ششششش... لا ترفع صوتك حتى لا توقظ نكيم».

أومأت برأسي، وأومأ أومبي أيضًا برأسه، لكنه لم يصرخ.

همست أمي: «أريد أن أطلب شيئًا منكما؟ هل أنتما منتبهان؟».

نقرَت على ساقي ثانيةً. أطلقتُ مخضوضًا كلمة «نعم» بصوت عالٍ، وتبعني أومبي.

همهمت أمي: «**إيهين**». بدا أنها قضت وقتًا طويلًا في الصلاة أو البكاء أو كليهما. قبل ذلك اليوم بأيام قليلة، وتحديدًا يوم رفض إيكينا الذهاب إلى الصيدلية مع بوجا، سألت أومبي عن سر بكاء أمي كثيرًا وهي لم تعد طفلة، وتجاوزَت سن البكاء الكثير، فأخبرني أومبي ساعتها أنه لا يعرف أيضًا، لكنه يظن أن النساء ميالات إلى البكاء.

«اسمعا»، قالتها أمي وقد جلست معنا على السرير. «أريدكما أن تخبراني بسبب هذا الشقاق بين إيكينا وبوجا. أنا على يقين أنكما تعرفان، لذا، أخبراني بسرعة، بسرعة».

قلت: «لا أعرف يا ماما».

احتجَّت: «بل تعرف. لا بد أن شيئًا قد حدث. معركة أو مشاحنة لم أعلم بها؛ شيء ما. تذكرا».

أومأتُ برأسي وبدأت أفكر، أحاول أن أفهم ماذا تريد.

ولما قوبل استفسارها بجدار من الصمت، قالت أمي: «أومبي».

«ماما».

«أخبرني، أنا أمك، ما سبب الشقاق بين أخويك؟»، قالتها بالإنجليزية هذه المرَّة. عقدت الربَّا الخاصة بها حول صدرها كأنها قد انحلت، وهي إحدى حركاتها العصبية. «هل تعاركا؟».

رد أومبي: «لا».

«صحيح يا بِنْ؟».

«نعم، صحيح يا ماما».

«**فا لو رو أوغو؟** - هل تشاحنا؟»، سألَت، وقد عادت إلى لغة الإغبو.

رددنا نحن الاثنين: «لا»، وقد تأخر أوبمبي قليلًا عني.

سألَت بعد وقفة قصيرة: «إذن، ما الذي حدث؟ أخبراني، **إيه**، يا أميريَّ، أوبمبي إغوي، أزيكيوي، **غوا نو إيفي مي لو نو، بيكو** يا زوجيَّ». توسلت إلينا، مستخدمةً كلمات التدليل التي تذيب القلب، تلك التي تغدقها علينا في مثل هذه الأوقات عندما تريد منا أن نخبرها بالمزيد من المعلومات. أنعمت على أوبمبي بألقاب ملكية، فأسبغت عليه لقب **إغوي**، وهو الملك القبَلي. ووهبتني اسم الدكتور نامدي أزيكيوي، أول رئيس وطني لنيجيريا. وفور أن نادتنا بهذه الأسماء، حدق أوبمبي في عينيَّ، دلالة على أن ثمة شيئًا لا يريد قوله، لكنه، وقد استحثته توسلات أمي، أصبح الآن جاهزًا تمامًا لقوله. هكذا، لم تحتج أمي إلا أن تكرر ملاطفاتها مرَّة أخرى قبل أن يكشف أوبمبي الأمر. لقد انتصرت بالفعل. كانت هي وأبي ماهرين في الحفر داخل عقولنا، يعرفان كيف ينقبان بعمق داخل نفوسنا عندما يريدان اكتشاف بعض الأمور، حتى إنه كان من الصعب أن نصدق أنهما لا يعرفان بالفعل ما يسألان عنه، وإنما فقط يسعيان للتأكد منه.

فور أن كررت أمي ملاطفاتها، قال أوبمبي: «ماما، الأمر بدأ يوم قابلنا أبولو في «أومي-ألا»».

«ماذا؟ أبولو المجنون؟!»، صرخت وهي تنتفض على قدميها في رعب.

لم يتوقع أوبمبي ردة الفعل هذه، فرمى عينيه، ربما خوفًا، على الفراش العاري المنبسط أمامه، ولم ينبس بكلمة. كان ذلك سرًّا دفينًا بغطاء معدني، سرًّا حذرنا بوجا ألا نكشفه أبدًا لأي شخص بعد أن بدأ إيكينا يرسم خطًّا فاصلًا بيننا وبينه. قال: «لقد رأيتما ما الذي حدث لإيكينا. فليغلق كلٌّ منكما فمه». وافقنا، ووعدناه أن نمحو الأمر من ذاكرتينا، ونستأصله من عقلينا استئصالًا.

قالت أمي: «سألتك سؤالًا. أيُّ أبولو قابلتم؟ المجنون؟».

«نعم»، أكد أوبمبي هامسًا، وسرعان ما نظر إلى الحائط الذي يفصل غرفتنا عن غرفة أخوينا، متوجسًا من أن يكونا قد سمعاه وهو يكشف السر.

صرخت أمي: «**تشي-نيكي**». ثم عادت تجلس ببطء على السرير، ويداها فوق رأسها. ظلت في صمتها الرهيب للحظة، تصر بأسنانها مستهجنة، ثم قالت فجأة: «أخبرني على الفور، ماذا حدث عندما قابلتموه؟ هل سمعتني يا أوبمبي؟ قلت، وأقول للمرَّة الأخيرة، أخبرني ماذا حدث عند ذلك النهر؟».

تردد أوبمبي لبرهة أطول، وقد اعتراه خوف بالغ من أن يبدأ القصة التي كشفها جزئيًّا في تلك العبارة الواحدة الواضحة. لكن الأوان فات، إذ بدأت أمي بالفعل تنتظر بقلق، وقد اتخذت فجأة وضع الانقضاض، كأنها رأت جارحًا يقترب من حظيرتها وهي، مربية الصقور، تستعد لمواجهته. لم يعد من الممكن لأوبمبي، حتى لو أراد، أن يقاومها.

***

قبل أن تكشف جارتنا أمرنا بنحو أسبوع أو أكثر قليلًا، كنت أنا وإخوتي عائدين من عند نهر «أومي-ألا» مع بقية الأولاد عندما التقينا أبولو على الطريق الرملي. كنا قد انتهينا من الصيد عند النهر، وفي طريق عودتنا إلى البيت تحدثنا عن سمكتي البلطي اللتين اصطدناهما في ذلك اليوم (وقد أصر إيكينا بشراسة أن إحداهما سمكة قُرص)، وعندما وصلنا إلى المنطقة الواسعة حيث أشجار المانجو والكنيسة السماوية، صاح كايودي: «انظروا، هناك رجل ميت أسفل الشجرة! رجل ميت! رجل ميت!».

استدرنا جميعًا إلى حيث أشار، ورأينا رجلًا متمددًا على حصيرة من الأوراق الساقطة أسفل شجرة المانجو، ورأسه يستند على فرع مكسور صغير لا يزال مورقًا. كانت حبات المانجو مختلفة الأحجام والألوان - صفراء، وخضراء، وحمراء - وأخرى في مختلف مراحل التحلل متناثرة في كل مكان. بعضها مسحوق، وبعضها عطن من نقرات الطيور. كانت أصابع قدمَي الرجل عارية تحت أعيننا، قبيحة كأن عدوى «سعفة القدمين الفطرية» شقت أوتارًا في كل أرجائها، فجعلتها

أشبه بخريطة معقدة، ملونة بأوراق شجر ميتة عالقة بكل وتر.

قال إيكينا بصوت هادئ: «هذا ليس رجلًا ميتًا، هو مَن يدندن بهذا اللحن، لا بد أنه مجنون؛ هكذا يتصرف المجانين».

مع أنني لم أسمع اللحن من قبل، سمعته ساعتها عندما لفت إيكينا انتباهنا إليه.

قال سولومون: «إيكينا على حق. إنه أبولو، المجنون المستبصر»، ثم طرقع بإصبعيه قائلًا: «أنا أشمئز من هذا الرجل».

صاح إيكينا: «آه. هذا هو؟».

وقال سولومون: «إنه هو، أبولو».

ثم قال إيكينا: «لم أستطع التعرف عليه».

نظرتُ إلى المجنون، الذي كشف إيكينا وسولومون أنهما يعرفانه، لكني لا أتذكر أني رأيته من قبل. كان هناك عدد هائل من المجانين، والمتشردين، والمتسولين، يتجولون في شوارع أكوري، ولم يكن في أيٍّ منهم شيء مميز يدعو للانتباه. لذلك، اندهشت عندما عرفت أن هذا الرجل لا يتمتع بهوية مميزة فحسب، بل باسم أيضًا، اسم يبدو معروفًا. وبينما كنا ننظر إليه، رفع المجنون يديه وأبقاهما في الهواء على نحو غريب، ساكنتين، بمهابة أصابتني بالرهبة.

قال بوجا: «انظروا إلى ذلك».

انتصب أبولو في جلسته، وكأنه مثبت في مكانه، وراح ينظر بعيدًا.

قال سولومون في تلك اللحظة: «فلنتركه وشأنه، دعونا نمضِ في طريقنا، فلا نتكلم معه. دعونا نذهب، نتركه وشأنه».

لكن بوجا، الذي تقدَّم في اتجاه الرجل، قال: «لا، لا، هيا لنشاكسه قليلًا. لا يجب أن نمضي هكذا. سيكون الأمر ممتعًا. اسمعوا، يمكننا أن نخيفه وأن...».

«لا»، قال سولومون بحدة. «هل أنت مجنون؟ ألا تعرف أن هذا الرجل شر؟ ألا تعرفه؟».

انفجر المجنون بضحكة مفاجئة هادرة، ففزع بوجا وقفز إلى الخلف راجعًا إلينا. وعندها، قفز أبولو قفزة أكروباتية جبارة، وانتصب على قدميه، واضعًا يديه جانبًا، قابضًا على ساقيه، ومن دون أن يحرك أي جزء من جسده، سقط على ظهره في وضعيته السابقة. وإذ فُتنَّا بعرضه الجمبازي، صفقنا وهتفنا إعجابًا به.

صاح كايودي: «إنه عملاق، سوبرمان!»، وضحك الآخرون.

نسينا أننا عائدون إلى البيت، بينما الظلام ينزل ببطء ليغطي صفحة الأفق، وربما تبدأ أمنا في البحث عنا قريبًا. كنت مفتونًا ومبهورًا بهذا الرجل الغريب. حركت يدي حول فمي وقلت: «إنه مثل أسد!».

هز إيكينا رأسه كأن المقارنة ضايقته، وقال: «أنت تقارن كل شيء بالحيوانات يا بِنْ. إنه ليس مثل أي شيء، هل تسمع؟ مجرد مجنون، مجنون».

همتُ في اللحظة، وظللتُ أراقب هذا المخلوق الرائع بكل ما استطعت استجماعه من تركيز، حتى امتلأ عقلي بتفاصيله. كان مسربلًا من الرأس إلى القدمين بالأوساخ، وعندما ارتفع بخفة ليقف على قدميه، رفع معه بعضًا منها، وترك البعض الآخر في بقع على الأرض. يحمل وجهه ندبًا طريَّة أسفل ذقنه مباشرة، وقد تكتلت على ظهره كتل ناضجة من بعض حبات المانجو المتعفنة. كانت شفتاه جافتين ومتشققتين، وشعره مشعثًا؛ يمتد مثل أفرع نباتات لولبية، ما منحه مظهر أتباع «الرستا». ذكرتني أسنانه، ومعظمها مسوَدٌّ كأنه محروق، بنافخي النار من الغجر ولاعبي السيرك الذين ينفخون النار من أفواههم مما يجعل أسنانهم تحترق أحيانًا. كان الرجل عاريًا أمام عينيَّ، مجردًا إلا من خرقة متهدلة من كتفه حتى وسطه، وعانته مغطاة بدغل كثيف من الشعر في وسطه، وقضيبه المعروق يتدلى مرتخيًا مثل حبل سروال، وساقاه منتفختين بدوالٍ مشدودة على آخرها.

التقط كايودي حبة مانجو ورماها في اتجاه أبولو، وكأن المجنون يتوقعها، التقطها في الهواء على الفور. أمسك بها كأنها شيء حارق لا يستطيع أن يقربه منه، ونهض ببطء على قدميه، وبصيحة عالية ثاقبة للآذان، رمى حبة المانجو عاليًا،

حتى سقطت بعيدًا، ربما في وسط البلدة، على بُعد عشرين ميلًا تقريبيًا. جعلنا هذا نشعر بالأرض تميد من تحت أقدامنا.

وقفنا هناك متجمدين في صمت، نراقب هذا الرجل، حتى تحرك سولومون إلى الأمام، وقال: «هل ترون؟ هل ترون ما أقوله لكم؟ هل يستطيع إنسان عادي أن يفعل هذا؟»، وأشار إلى اتجاه حبة المانجو. «هذا الرجل شرٌّ. دعونا نرجع إلى البيت ونتركه. ألم تسمعوا أنه قتل أخاه؟ هه؟ ماذا يمكن أن يكون أسوأ من رجل قتل أخاه؟». أمسك بشحمة أذنه كما يفعل البالغون وهم يُعلمون الأطفال. «يجب أن ترجعوا جميعًا إلى البيت، الآن!».

قال إيكينا بعد لحظات من التفكير: «إنه محق. يجب أن نرجع جميعًا إلى البيت. لقد تأخر الوقت».

مضى في طريقه، لكن بعد أن تحرك، انفجر أبولو في ضحكة صاخبة. «تجاهلوه»، حثَّنا سولومون وهو يلوح لنا بالاستمرار في سيرنا. واصلنا السير، لكنني توقفت. أصابني خوف مفاجئ، نتيجة وصف سولومون له، خوف من أن يقفز هذا الرجل الخطير علينا ويقتلنا. استدرت، وعندما رأيت أنه يتعقبنا، تأجج خوفي أكثر.

صرختُ: «هيا نجري. سيقتلنا!».

قال إيكينا: «لا، لن يقتلنا». ثم استدار بسرعة ليواجه المجنون: «إنه يرى أننا مسلحون».

سأل بوجا: «بماذا؟».

رد إيكينا بحدة: «بالصنانير. إذا اقترب منا، سوف نمزق لحمه بالصنانير مثلما نفعل بالأسماك، ونرمي جثته في النهر».

توقف المجنون وظل ساكنًا، كأنما ارتدع من هذا التهديد، يداه تخفيان وجهه، وتصدر منه أصوات غريبة. واصلنا السير، وكنا قد ابتعدنا لمسافة معقولة عندما سمعنا صيحة عالية باسم إيكينا، فتوقفنا على الفور مصدومين.

«**إيبيكينه**»، نادى الصوت مجددًا بلكنة يوروبا تطيل صوت «الإي» في الحرف الأول، وتخفف التشديد على «النون» ليخرج مثل «**إيبيكينه**».

أدرنا أبصارنا مرتبكين لنرى صاحب الصوت، وكان أبولو هو الشخص الوحيد في نطاق نظرنا. يقف على بُعد بضعة أمتار منا، وذراعاه معقودتان على صدره.

«**إيبيكينه**»، كررها أبولو بصوت عالٍ، وهو يقترب منا.

صرخ فينا سولومون، وقد ازدادت لغته اليوروبا غلظة بخنَّة من لهجة الأويو: «لا تنصتوا إلى نبوءات أبولو. **أو لي وو** - هذا خطر. دعونا نذهب إلى البيت، دعونا نذهب الآن». دفع إيكينا إلى الأمام. «ليس أمرًا جيدًا أن تسمع نبوءات أبولو يا إيكي. دعنا نذهب!».

قال كايودي: «نعم يا إيكي، إنه من أتباع الشيطان، ونحن مسيحيون».

للحظة، انتظرنا جميعًا إيكينا الذي ثبَّت عينيه على المجنون. ومن دون أن يستدير إلينا، هز رأسه وصاح: «لا!».

«لا ماذا؟ ألا تعرف أبولو؟»، سأل سولومون، ثم جذب إيكينا من قميصه، لكن إيكينا نفضه متحررًا، تاركًا قطعة من قميص منتجع «الباهاما» في يد سولومون.

قال إيكينا: «اتركني. لن أمضي. إنه ينادي اسمي. **ينادي اسمي**. كيف عرف اسمي؟ كيف؟ كيف ينادي اسمي؟».

قال سولومون، وهو يجاري إيكينا في نبرته القوية: «ربما سمعه من أحدنا».

صرخ إيكينا: «لا، لم يسمعه. لم يسمعه من أحد».

فور أن قال ذلك، نادى أبولو ثانيةً، في صوت أنعم وأكثر خفوتًا هذه المرَّة: «**إيبيكينه**». ثم رفع المجنون يديه، وانطلق يغني أغنية سمعتُ الجيران من قبل يغنونها من دون أن أعرف من أين أتت أو ماذا تعني، وكان عنوانها: «زارع الأشياء الخضراء».

استمعنا جميعًا ومعنا سولومون إلى غنائه النشوان لبرهة. ثم هز سولومون رأسه، والتقط صنارته، ورمى مزقة قميص إيكينا على الأرض، وقال: «تستطيع أن تبقى أنت وإخوتك، لكنني لن أبقى».

استدار سولومون وتبعه كايودي. أما إغبافي، الذي لم يُحدِّد موقفه، فقد ظل يجيل نظراته بيننا وبين الثنائي المختفي،

ثم ببطء، بدأ يمضي بعيدًا، حتى ركض بعد نحو مائة متر.

توقَّف أبولو عن الغناء عندما اختفت صحبتنا عن الأنظار، وراح يكرر المناداة باسم إيكينا. وعندما بدا أنه ناداه للمرَّة الألف، رمى عينيه إلى أعلى، ورفع يديه، وصاح: «**إيبيكينه**، سوف تُربط مثل طائر يوم مماتك»، وصرخ وهو يغطي عينيه بيديه دلالة على العمى.

«**إيبيكينه**، سوف تصبح أصم»، قالها وسدَّ أذنيه بيديه.

«**إيبيكينه**، سوف تصبح مُعاقًا»، قالها وباعد بين ساقيه، وعقد كفيه وكأنه يتضرع، ثم خبط ركبتيه معًا وسقط على ظهره في التراب وكأن عظام ركبتيه قد انكسرت فجأة.

عندما قال: «لسانك سوف يلتصق بفمك مثل وحش جائع، ولن يرجع إلى فمك ثانية»، دفع لسانه إلى الخارج، وثناه إلى أحد جانبي فمه.

«**إيبيكينه**، سوف ترفع يديك لتستنشق الهواء، لكنك لن تستطيع. **إيبيكينه**، سوف تفتح فمك لتتكلم في ذلك اليوم...» - فتح المجنون فمه وأخرج صوت شهيق عاليًا، **آه، آه** - «لكن الكلمات سوف تتجمد في فمك».

فيما كان يتحدث، حلقت طائرة في السماء وغطى صخبها على صوته، فجعله أشبه بأنين يائس في البداية، وعندما اقتربت الطائرة أكثر، ابتلع بقية كلماته مثل أفعى الأصلة. آخر تصريح سمعناه يطلقه «**إيبيكينه**، سوف تسبح في نهر أحمر لكنك لن تخرج منه ثانيةً. إن حياتك...»، كان مسموعًا بالكاد. صخب أصوات الأطفال الذين يهتفون لرؤية الطائرة في المنطقة أغرق المساء في غبشة من النشاز. رمى أبولو نظرة مسعورة إلى أعلى في ارتباك. وفي سورة غضبه، تابع كلامه في صوت أعلى شتته صخب الطائرة إلى همسات واهنة. ومع تراجع الضجة، سمعناه جميعًا يقول: «**إيبيكينه**، سوف تموت كما يموت الديك».

صمت أبولو، وأشرق وجهه من الراحة، ثم حرك إحدى يديه كأنه يخط شيئًا بقلم على ورقة أو كتاب مُعلَّق في الهواء لا يستطيع أحد رؤيته سواه. وعندما انتهى، مضى في طريقه وهو يغني ويصفق.

تابعنا عموده الفقري يتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف وهو يغني ويرقص، وكلمات الأغنية المشحونة تتساقط علينا مثل غبار محمول على الريح:

آ في فكو لي في كو	مثل ريح لا تستطيع أن تهب
ما كان إيغي أوكو	من دون أن تلمس الأشجار
أوسوبا كو لي هون كي	مثلما لا يستطيع المرء أن يحجب
إينيكان في أسو دي	ضوء القمر بملاءة
أوه، أولو أورون،	أوه، يا رب الجيوش
إني تي مو جي أوجيسي فون	الذي أنزلتني عليهم بالوحي
إي فا أورون يا،	أتضرع إليك أن تمزق
إي جي كي أوجو رو	القبة الزرقاء، وتستنزل المطر
كي أورو تي مو تو	فتمنح الحياة للخضار
غبين با لي غبو	التي بذرتُ فيها الحياة
إي با إغبا أورون جي	أعظم المواسم لكي
كي أورو مي بالي مي	تتنفس كلماتي
كي ون با لي غبو	لكي تنبت الثمار

ظل المجنون يغني، حتى تلاشى صوته مع ابتعاد قافلته الجسمانية - وُجوده، ورائحته، وظله الذي علق بالشجرة والأرض، وجسده. وعندما أصبح بعيدًا عن الأنظار، لاحظتُ أن الليل أرخى سدوله من حولنا، فغطى سقف العالم بمظلة غسقية، وفيما بدا أنه طرفة عين، حوَّل أعشاش الطيور في شجرة المانجو ودغل الإيسان الممتد من حولها إلى أشباح سوداء لا تدركها الأبصار حين تمر بها. حتى علم نيجيريا الذي كان يرفرف فوق قسم الشرطة على بُعد مائتي متر غمره الظلام، واندمجت التلال البعيدة مع السماء المظلمة وكأنه لا فاصل بين السماء والأرض.

عدت أنا وإخوتي إلى البيت بعدها، مكلومين، كأننا دخلنا مشاجرة أوسعونا فيها ضربًا، بينما استمر العالم من حولنا في سيره المعتاد، بلا إشارة على أن شيئًا مشؤومًا قد أصابنا. كانت الشوارع حية، تضج بالنشاز الليلي لباعة الأرصفة الذين يضعون مصابيح وشموعًا على طاولاتهم، والناس يتجولون وظلالهم مبعثرة على الأرض والجدران، وعلى الأشجار والمباني، مثل جداريات بالحجم الطبيعي. وقف رجل من الهاوسا في رداء شمالي وراء عريشة خشبية مغطاة بالمشمع، يقلب أسياخ اللحم على مستوقد فحم داخل طنجرة معدنية يتعالى منها دخان أسود كثيف، وثمة مصرف تجري فيه المياه يفصله عن امرأتين جلستا على مقعد مستطيل، منحنيتين على النار، تحمصان الذرة.

كنا على مرمى حجر من بيتنا عندما توقف إيكينا عن السير فجأة، مجبرًا الباقين على التوقف. وقف أمام ثلاثتنا، وقد أصبح مجرد صورة ظلية، وقال بصوت مضطرب ولكنه محسوب: «هل سمع أيٌّ منكم ما قاله أثناء مرور الطائرة؟ ظل أبولو يتكلم، لكنني لم أسمعه».

لم أسمع المجنون، حيث اجتذبت الطائرة انتباهي كثيرًا، وعندما لاحت لي رحت أتابعها بتركيز، وقد ظلَّلتُ عينيَّ

بيديَّ محاولًا رؤية ركابها الأجانب وهم يتوجهون إلى مكان ما في العالم الغربي على الأرجح. لكن يبدو أن بوجا وأومبي لم يسمعا ما قاله أيضًا، إذ لم ينبس أيٌّ منهما بكلمة.

استدار إيكينا ومضى في طريقه بينما قال أومبي: «أنا سمعته».

صرخ إيكينا هادرًا: «ماذا تنتظر إذن؟». وتراجع ثلاثتنا بضعة أمتار.

تمالك أومبي أعصابه، وقد خاف أن يضربه إيكينا.

صرخ إيكينا: «هل أنت أبكم؟».

أفزعني الغضب في صوت إيكينا. نكَّست رأسي لأتجنب النظر إلى الأمام ورؤيته، وركَّزت بدلًا من ذلك على ظله الذي يستطيل على التراب. وبينما كنت أراقب حركات جسده الحقيقي من خلال حركات ظله على التراب، رأيته يرمي بما يمسكه على الأرض، ثم انساب ظله في اتجاه أومبي، وقد استطال رأسه أولًا ثم انكمش عائدًا إلى شكله. عندما ثبت الظل، رفرفت ذراعاه للحظة، ثم سمعتُ صوت صفيحة أومبي تسقط، وشعرت بمحتوياتها تتناثر على ساقيَّ. سمكتان صغيرتان - أصر إيكينا أن إحداهما «سمكة قُرص» - انطلقتا خارج الصفيحة، وشرعتا تتلويان وتتخبطان في التراب الذي استحال طينًا بفعل الماء المنسكب مع تأرجح الصفيحة من جنب إلى جنب، قاذفة بالمزيد من المياه والشراغف حتى ثبتت. للحظة، ظلت الظلال بلا حراك، ثم استطالت يدٌ وامتدت حتى الجهة الأخرى من الشارع، وأعقبت ذلك صرخة بصوت إيكينا: «أخبرني!».

«ألم تسمعه؟»، سأل بوجا متوعدًا، مع أن أومبي وقد تجمَّد في مكانه ويده تحمي نفسه من ضربة متوقعة من إيكينا، كان قد بدأ في الكلام.

تلعثم أومبي قائلًا: «لقد قال...»، لكنه توقَّف عندما تكلم بوجا. ثم تحدث من البداية: «لقد قال.. قال إن صيادًا سيقتلك يا إيكي».

صاح بوجا: «ماذا؟ صياد؟».

وكرر إيكينا: «صياد؟».

«نعم، صيـ...»، لم يكمل أومبي تلك المرَّة، حيث كان يرتعش.

قال بوجا: «هل أنت متأكد؟». وعندما أومأ أومبي برأسه، قال بوجا: «كيف قالها؟».

«قال: «**إيبكيينه**، سوف...»». توقف، وشفتاه ترتجفان وهو يجيل بصره من وجه إلى وجه ثم إلى الأرض. وبعينين تنظران إلى الأرض، أكمل قائلًا: «قال: إيكينا، سوف تموت بيد صياد».

يصعب نسيان الغمامة السوداء التي نزلت على وجه إيكينا بعدما نطق أومبي كلماته. رفع بصره كمن يبحث عن شيء ما، ثم أداره إلى الاتجاه الذي مضى فيه المجنون، ولم يكن هناك ما يُرى إلا سماء تحولت إلى اللون البرتقالي.

كنا قد أوشكنا على الوصول إلى بوابة بيتنا عندما واجهَنا إيكينا بعينين لا تنظران إلى أحد منا تحديدًا، وقال: «أبصر المجنون رؤيا أن أحدكم سوف يقتلني».

علقت بشفتيه كلمات محمومة كثيرة، لكنها لم تنسكب، بدا أنها سُحبت إلى الداخل، وكأنها مربوطة بحبل شدَّته يد غير مرئية من داخله. لم يكن متأكدًا مما يجب قوله أو فعله، ومن دون انتظار أن ينطق أحدنا - إذ كان بوجا قد شرع يقول شيئًا - استدار وعبر بوابة بيتنا، فتبعناه.

6

المجنون

الذين تختار الآلهة تدميرهم، تصيبهم بالجنون
مثل من الإغبو

أبولو كان مجنونًا.

قال أوبمبي إن مخَّه انصهر وصار دماءً سائلة، بعد أن كاد يلقى مصرعه في حادثة فقد فيها عقله. كان أوبمبي، الذي فهمتُ معظم الأمور من خلاله، يعرف تاريخ أبولو - الله وحده يعلم من أين - وأخبرني به ذات ليلة. قال إن أبولو، كان له أخ اسمه «أبانا». ويتذكره بعض سكان شارعنا بوصفه أحد الأخوين اللذين يحضران في كلية أكويناس، أفضل مدرسة ثانوية للبنين في البلدة، بقميص أسود سادة، وشورت كاكي أبيض، نظيفين وناصعين دائمًا. قال أوبمبي إن أبولو أحب أخاه كثيرًا، ولم يكونا يفترقان.

شب أبولو وأخوه من دون أب؛ رحل أبوهما وهما صغيران في رحلة حج مسيحية إلى فلسطين ولم يعد. معظم الناس يعتقدون أنه قُتل بقنبلة في القدس، بينما قال أحد أصدقائه ممن كانوا معه في الرحلة نفسها إنه غادر إلى النمسا مع امرأة نمساوية واستقر هناك. هكذا، عاش أبولو وأبانا مع أمهما، وأختهما الكبرى التي ما إن بلغَت الخامسة عشرة، حتى احترفت الدعارة، وانتقلت إلى لاغوس لممارسة مهنتها.

أدارت أمهما مطعمًا صغيرًا مشيدًا من الخشب والصفيح، وكان مشهورًا في شارعنا في الثمانينيات. قال أوبمبي إن أبي تناول طعامه هناك بضع مرَّات عندما كانت أمي حاملًا ولم تستطع إعداد الطعام بسبب بدانتها إلى حدٍّ ما. خدم أبولو وأخوه في المطعم بعد المدرسة، فغسلا الصحون، ونظفا الطاولات المتقلقلة بعد الوجبات، وقدَّما نكاشات الأسنان للزبائن، ومسحا الأرض التي تتلوث بالمزيد من السخام والأوساخ عامًا بعد عام حتى بدت مثل ورشة ميكانيكي سيارات، وطاردا الذباب في الفصول المطيرة، وروَّحا الهواء بمراوح يدوية مكسوة بليف النخل. وعلى الرغم من كل ما كانا يفعلانه، ظل المطعم يدر دخلًا صغيرًا، ولم يكن بإمكانهما تحمل كلفة تعليم مناسب.

انفجر العوز والحاجة في عقليهما مثل قنبلة يدوية، خلَّفت في أعقابها شظايا من اليأس. وهكذا، انتهى الأمر بالولدين إلى السرقة. وعندما كانا يسطوان على بيت أرملة ثرية بسكاكين وبنادق لعبة، هاربين بحقيبة مملوءة بالنقود، أطلقت الأرملة الإنذار فور هروبهما، وسرعان ما طاردهما حشد من الناس. صدمت سيارة مسرعة أبولو وهو يحاول عبور طريق طويل ليهرب من مطارديه، وفرت هاربة. وعندما رأى الحشد المنظر، تفرَّق سريعًا، تاركًا أبانا وحده مع أخيه المصاب. رفع أبانا بمفرده أبولو، واستطاع أن يصل به إلى المستشفى، حيث هرع الأطباء لاحتواء تلف وقع بالفعل. قال أوبمبي إن خلايا مخ أبولو طفت وانجرفت من حجراتها إلى مناطق أخرى في رأسه، مغيِّرة تكوينه العقلي، ومتممة العملية الرهيبة.

عندما صُرف أبولو من المستشفى، عاد إلى البيت كائنًا آخر، كطفل حديث الولادة، عقله مثل صفحة بيضاء لم تُرسم عليها نقطة واحدة. في تلك الأيام، لم يفعل شيئًا إلا التحديق - بخواء وتركيز - وكأن عينيه هما العضوان الوحيدان في جسده القادران على تأدية وظائف بقية الأعضاء، أو كأن كل أعضائه كانت ميتة باستثناء العين. ومع مرور الوقت، نبت لجنونه ريش. ومع أنه رقد خاملًا في بعض الأحيان، فقد كانت هناك أشياء تستثيره، مثل نِمر ينام بعينين نصف مفتوحتين. تنوعت الأشياء التي تستثير جنونه وتنفخ فيه الحياة: منظر ما، مشهد ما، كلمة ما، أي شيء. وكان أول ما فعل ذلك طائرة صاخبة حلقت فوق البيت، فأطلق أبولو صيحة غاضبة، ومزق ملابسه، عند مرور الطائرة. ولولا تدخل أبانا في الوقت المناسب، لخرج من البيت. صارعه أبانا، وأسقطه أرضًا، وثبته في مكانه، حتى خارت قواه، ثم تمدَّد على

الأرض، ونام. المرَّة التالية ثار جنونه عند رؤية عُري أمه. كان جالسًا على أحد كراسي غرفة الجلوس عندما رآها تدخل الحمَّام بلا ملابس، فقفز من كرسيه كأنه رأى شبحًا، واختبأ وراء الباب، وراح يراقبها وهي تستحم من فتحة الباب، ورمى المنظر بأحجار نرد كثيرة غريبة في أرجاء مخه، فأخرج قضيبه المنتصب وراح يداعبه. وعندما رأى أنها على وشك الخروج، اختبأ وخلع ملابسه بهدوء، ثم انسل إلى غرفتها، ورماها على السرير واغتصبها.

لم يتحرك أبولو من جوار أمه بعدها؛ احتضنها كما لو كانت زوجته، بينما راحت تبكي وتنتحب بين ذراعيه حتى عاد أخوه. جُن جنون أبانا لما فعله أبولو، فراح يضربه بحزام جلدي، رافضًا الاستجابة إلى توسلات أمه، حتى هرب أبولو من الغرفة في ألم بالغ، وانتزع هوائي التلفزيون من ثقَّالته الضعيفة، وهرع عائدًا إلى الغرفة وثبَّت أخاه به إلى الجدار مُطلقًا عواء مروعًا، ثم خرج راكضًا من البيت، وقد استقر جنونه بالكامل.

في السنوات الأولى، مشى أبولو ونام في الأسواق، والمباني غير المكتملة، ومقالب النفايات، والمجارير المفتوحة، وتحت السيارات المصفوفة، وكل مكان يحل فيه الليل عليه، حتى وجد شاحنة متداعية على بُعد بضعة أمتار من بيتنا. كانت الشاحنة قد اصطدمت بعمود إنارة سنة 1985، ولقيت أسرة بأكملها مصرعها في الحادث، ثم تُركت مهجورة بسبب تاريخها الدموي، وتآكلت تدريجيًّا، متحولة إلى مملكة من النباتات البرية: الصبار، وحشيشة الفيل. وفور أن وجدها، شرع في العمل، مشرِّدًا أممًا من العناكب، طاردًا أرواح الموتى الوحشية، الذين تركت دماؤهم على المقاعد لطخات لا تُمحى. أزال بقايا الزجاج المبعثرة، ونزع جُزرًا برية صغيرة من الطحالب علقت بأثاث الشاحنة الذي نخره العثُّ، وقضى على جيش من الصراصير لا حول له ولا قوة. ثم خزن حاجياته - وهي مواد التقطها من القمامة، وأشياء متروكة من مختلف الأنواع، وكل شيء أثار فضوله - في الشاحنة، ثم اتخذ منها بيتًا.

كان جنون أبولو من نوعين، كأن شيطانين توأمين يعزفان لحنين متنازعين بلا توقف في عقله. عندما يلعب أحدهما لحن الجنون المنتظم أو الاعتيادي، يتجول أبولو عاريًا، وسخًا، نتنًا، مغمورًا بالقذارة، يتعقبه بحر من الذباب، ويرقص في الشوارع وعلى النواصي، ويلتقط الفضلات من صناديق القمامة ويأكلها، ويناجي نفسه بصوت عالٍ أو يتحدث مع أشخاص وأقران غير مرئيين بلغات ليست من هذا العالم، ويصرخ في الأشياء، وينظف أسنانه بعِيدان وجدها في التراب، ويتغوط على جانب الطريق، ويفعل كل الأشياء التي يفعلها المنبوذون المشردون، ويمضي وعلى رأسه غابة من الشعر الطويل، ووجهه مرقَّع بالبثور، وجلده مشحَّم بالأوساخ. عندما يكون في حلبة الجنون هذه، يصبح جوالًا، لا يتوقف عن المسير. ويسير في أغلب الوقت بقدمين حافيتين، فيدوس على الطرق غير الممهدة من موسم إلى موسم، ومن شهر إلى شهر، ومن عام إلى عام. يمشي على مقالب القمامة، وعلى الجسور المتقلقلة ذات الألواح الخشبية المتشققة، وعلى أراضي المصانع والورش حيث تتناثر المسامير، والمعادن، وحطام الأدوات، والزجاج، وغيرها من الأشياء الحادة. ذات مرَّة، عندما اصطدمت سيارتان على الطريق، سار أبولو، غير مدرك أن حادث سير وقع، وسط الزجاج المهشم، وراح ينزف كثيرًا حتى أصيب بإغماءة، ورقد على التراب إلى أن جاءت الشرطة وأبعدته. وقد ظن كثيرون ممن رأوا الحادث أنه مات، وصُدموا عندما شاهدوه يسير إلى شاحنته بعد ستة أيام، وجسده المليء بالندوب مغطى بملابس المستشفى، وساقاه المليئتان بالدوالي غائبتان في زوجين من الجوارب.

عندما يكون أبولو في عالم الجنون، يتجول عاريًا تمامًا، مؤرجحًا قضيبه الهائل - الذي يكون منتصبًا أحيانًا - بلا خجل، وكأنه خاتم خطبة قيمته مليون نايره. وقد تسبب قضيبه ذات مرَّة في فضيحة شهيرة، روى الناس عنها قصصًا في جميع أرجاء البلدة، حيث قامت أرملة، وقد انتابتها رغبة طاغية في الحصول على طفل، بإغواء أبولو: سحبته من يده ذات ليلة إلى بيتها، وحمَّمته، ومارست الجنس معه، وقالت الشائعات إن جنون أبولو اختفى مؤقتًا عندما كان مع تلك المرأة. ولما شاع أمر العلاقة بين الناس، وبدأوا ينادون الأرملة بزوجة أبولو، غادرت البلدة، تاركةً المجنون ولهفة ماحقة تجاه النساء والجنس تململه. بعدها بوقت قليل، سرت شائعات عن زياراته الليلية إلى فندق «لا روم». قيل إن بضع عاهرات اعتدن تهريبه إلى داخل غرفهن تحت أستار الليل. وقد تفشى مع تلك الشائعات الاستمناء العلني الأسطوري لأبولو. وحكى لنا

سولومون ذات مرَّة عن مجنون رآه هو وعدد من الناس يستمني تحت شجرة مانجو قرب الكنيسة السماوية بجوار النهر. لكنني لم أكن أعرف أبولو في ذلك الوقت، ولم أكن أعرف ماذا يقصد بالاستمناء. ثم تابع سولومون ليحكي لنا كيف قُبض على أبولو، سنة 1993، وهو يتسلق تمثالًا زاهي الألوان للعذراء أمام كاتدرائية «سانت أندرو» الكبيرة. أمسك بالتمثال، ظنًّا منه أنه امرأة جميلة لم تُحرك ساكنًا لمقاومته، على عكس النساء اللاتي ينظر إليهن بشبق، بينما تجمَّع الناس ضاحكين عليه، حتى أبعده بعض الأتقياء. وانتهى الأمر بقرار المجلس الكاثوليكي بإنزال التمثال المدنس، وتنصيب آخر في ساحة الكنيسة، وتشييد سور حوله، ثم إحاطته ببوابة حديدية على سبيل التأمين والاحتراز.

على الرغم من تلك الاستفزازات التي يتسبب فيها أبولو وهو في هذا المزاج، فإنه لم يكن يؤذي أحدًا.

أما العالم الثاني لجنون أبولو فكان غير عادي؛ حالة يدخلها في فورات مفاجئة، وكأنه وهو في عالمه ذاك - يلتقط من صناديق القمامة أو يرقص على موسيقى غير مسموعة أو أيٍّ من الأشياء التي يفعلها - يجد نفسه نشوان في عالم من الأحلام. لكن وهو في تلك الحالة، لا يغادر عالمنا بالكامل؛ بل يشغل كلا العالمين - ساق هنا وأخرى هناك كما لو كان وسيطًا روحانيًّا بين مملكتين، أو رسولًا متطفلًا. كانت رسائله تستهدف الناس في عالمنا هذا، فيستحضر أرواحًا ساكنة، ويروِّح على شعلات صغيرة فينشر نيرانها، ويبلبل حيوات الكثيرين. ويدخل هذا العالم غالبًا في الأمسيات عندما تكون الشمس قد طرحت نورها. وبعد أن يتحول إلى أبولو المتنبي، يتجول وهو يغني، ويصفق، ويلقي بالنبوءات. يتسلل عابرًا من بوابات البيوت، الخالية من القضبان، مثل لص، عندما تكون لديه نبوءات لشخص هناك. ويُقلق راحة أي شخص لكي يعلن عن رؤاه - حتى في الجنازات. وقد أصبح نبيًّا، وفزاعة، ومعبودًا، ومستبصرًا. مع ذلك، فقد كان في أغلب الأحوال يحطم الجدار بين العالمَين، أو يتقلب بينهما كأن الحاجز في رقة غشاء بكارة. عندما يمر بأناس يريد أن يلقي عليهم نبوءاته، يوغل في الحالة الأخرى مؤقتًا ويخبرهم بالنبوءة، فيطارد العربات المتحركة، ويصرخ بنبوءته الخاصة بشخص بداخلها، ويتصرف الناس معه بعنف أحيانًا عندما يحاول توصيل رؤيا، ويتعرضون له بالأذى أحيانًا، فيراكمون على رأسه اللعنات والدموع والوعيد، مثل كومة من الملابس المتسخة.

والسبب الذي جعل الناس يكرهونه، أنهم اعتقدوا أن لسانه يحوي مُعجمًا من الكوارث. كان لسانه عقربًا، والنبوءات التي يعطيها للناس تُولد خوفًا من المصير المظلم الذي ينتظرهم. لم يكترث أحد في البداية لكلماته، حتى وقع حدث بعد آخر مطيحًا بإمكانية أن تكون الأشياء التي يراها مجرد مصادفات. أول هذه الأحداث وأشهرها، عندما تنبأ بحادث السير المروع الذي تسبب في مقتل أسرة بأكملها، غطست سيارتهم في «أومي-ألا» بالقرب من مدينة أوو، فغرقوا، تمامًا كما قال. ثم الرجل الذي تنبأ له أنه سيموت من «المتعة»، وخرج ذلك الرجل محمولًا من بيت للدعارة بعدها ببضعة أيام، بعد أن مات وهو يمارس الجنس مع إحدى المومسات. هذه السلسلة من الأحداث خطَّت نفسها بحروف من لهب في ذاكرات الناس، وحفرت خوفًا من نبوءات أبولو في عقولهم. بدأ الناس يرون رؤاه كمصائر لا يمكن تجنبها، ويعتقدون أنه رسول للكاتب الذي يخط رسائل القدر التلغرافية. من وقتها، كلما قال نبوءة لشخص، آمن ذلك الشخص بحتميتها، لدرجة أنه في أحوال عدة، صار الناس يحاولون منعها من الحدوث. أحد الأمثلة التي لا ينساها الناس، حالة الفتاة ذات الخمسة عشر عامًا، ابنة صاحب المسرح الكبير في البلدة. تنبأ أبولو أنها سوف تتعرض لاغتصاب وحشي على يد الطفل الذي ستحمل به. وكانت النتيجة أن الفتاة، التي زعزعها ذلك المستقبل المعتم المنتظر، قتلت نفسها بنفسها، وتركت وراءها رسالة تقول فيها إنها فضَّلت أن تقتل نفسها على أن تنتظر مواجهة هذا المستقبل.

أصبح المجنون مع الوقت يُمثل تهديدًا ورعبًا في البلدة، وأصبحت الأغنية التي يغنيها بعد كل نبوءة معروفة لجميع أهالي البلدة تقريبًا، وكانوا يرتعبون منها.

أما الأكثر إزعاجًا، فهو ميل أبولو إلى اختلاس النظر إلى ماضي الناس، كما يختلس النظر إلى مستقبلهم، فكثيرًا ما قوَّض ممالك الأفكار الباطلة التي شيَّدها الناس، وكشف الحُجب عن جثامين مكفَّنة من الأسرار الدفينة. وكانت النتائج دائمًا رهيبة. كشف ذات مرَّة، عند رؤيته لامرأة وزوجها يترجلان من سيارتهما، أنها «عاهرة». «**توفيا!**» هكذا صاح المجنون

باصقًا. «أنتِ تنامين مع ماثيو، صديق زوجكِ، حتى في فراش الزوجية؟ أنتِ لا تعرفين الحياء! لا تعرفين الحياء!». وبعد أن أضرم المجنون النار في تلك الزيجة، لأن الزوج عرف بأمر العلاقة وسيُطلِّق زوجته لا ريب، مضى في سبيله، ناسيًا تمامًا ما فعله لتوِّه.

مع كل هذا، أحب بعضٌ من أهالي أكوري أبولو وأرادوا له الحياة، لأنه كثيرًا ما ساعد الناس، فأحبطوا سطوًا مسلحًا بعد أن تنبأ أبولو بوقوعه، وأعلن أن أربعة رجال «مُسربلين في أقنعة وملابس داكنة» سيهاجمون الحي في تلك الليلة، وقد استُدعيت الشرطة لمراقبة الشارع، وعندما ظهر اللصوص أوقفتهم الشرطة. وبعد تنبؤه بالسرقة، كشف مخبأ عدد من الرجال اختطفوا فتاة صغيرة للحصول على فدية. كانت الفتاة ابنة لأحد السياسيين في الولاية، وذات ليلة، تتبعت الشرطة الاتجاهات الدقيقة التي ذكرها أبولو، واعتقلت الرجال وأنقذت الفتاة. ومجددًا، كسب أبولو امتنانًا، وقال الناس إن السياسي ملأ شاحنة المجنون بالهدايا، وقيل إن السياسي فكر في إعادته إلى مصحة نفسية لعلاجه، لكن آخرين عارضوا ذلك، قائلين إن الجنون إذا هجره فلن تبقى له فائدة. كثيرًا ما هرب أبولو من العلاج النفسي؛ فبعد الحادثة التي سار فيها على بركة من الزجاج المهشم، أخذه الناس إلى مصحة نفسية، لكنه تحدَّى الأطباء هناك، مُهددًا بأنه عاقل، ومدعيًا أنه محتجز بطريقة غير قانونية، وعندما لم يساعده ذلك، دخل في إضراب انتحاري عن الطعام، رافضًا، على الرغم من الضغوط، أن يشرب جرعة ماء واحدة، وخوفًا من أن يموت من الإضراب، ولأنه بدأ يطلب محاميًا، أطلقوا سراحه.

7

مربية الصقور

يدور الصقر في دوائر،
يدور ولا يسمع مربي الصقور
و. ب. ييتس

أمي كانت مربية صقور.

تقف على التلال وتراقب، تحاول أن تدفع الشرور التي تستشعر قدومها، حمايةً لأطفالها. تمتلك نسخًا من عقولنا في جيوب عقلها. لديها القدرة على تشمم المشكلات بسهولة مبكرًا أثناء تشكُّلها، كما يحس البحارة بتشكُّل جنين عاصفة وشيكة. كانت من وقت إلى آخر، تتنصت علينا في محاولات لالتقاط شظايا محادثاتنا حتى قبل أن يغادر أبي أكوري. كنا نتجمَّع أحيانًا في غرفة شقيقيَّ، فينسل أحدنا إلى الباب ليرى هل تقف أمي وراءه، ويفتح الباب فنراها متلبسة. ومثل مربية الصقور التي تعرف طيورها حق المعرفة، تنجح أمي غالبًا في تتبعنا. ربما استشعرَت من قبل أن خطبًا ما أصاب إيكينا، لكن عندما رأت روزنامة «M.K.O» ممزقة، تشممَت، ورأت، وشعرَت، وعرفَت أن إيكينا يمر بتحول مسخي. حاولت اكتشاف الأمر الذي حفز ذلك التحول، مما دفعها لتحتال على أوبمبي وتجعله يفشي تفاصيل المقابلة مع أبولو.

مع أن أوبمبي لم يحكِ لها ما حدث بعد مغادرة أبولو، وما أخبرنا جميعًا به من قول أبولو بينما كانت الطائرة تمر فوق رؤوسنا، فقد سيطر على أمي حزن وحشي. أكدت على كل نقطة في الحكاية بصرخة مرتعشة: «يا ربي! يا ربي!»، لكن بعد انتهاء أوبمبي، وقفت، وهي تعض على شفتيها وتتململ، ممزقةً من الداخل. خرجَت بعد ذلك من الغرفة دون أن تنطق كلمة، وهي ترتجف من رأسها إلى قدميها كأنما أصيبت بنزلة برد، بينما ظللتُ أنا وأوبمبي جالسين نفكر فيما سيفعله شقيقانا إذا عرفا أننا أفشينا لها السر. سمعتُ صوتها وصوتيهما وهي تواجههما وتسألهما لماذا لم يخبراها بأن شيئًا كهذا حدث. فور أن غادرت أمي غرفتهما اندفع إيكينا إلى غرفتنا في غضب، سائلًا عن الأبله الذي كشف لها السر. تذرع أوبمبي بأنها أجبرته على ذلك، في صوت قصد أن يكون عاليًا حتى تسمعه أمي وتتدخل. وقد فعلَت. تركنا إيكينا متوعدًا بأنه سيعاقبنا في غيابها.

بعدها بساعة أو نحو ذلك، وقد بدأت أمي تتعافى بعض الشيء، جمعتنا في غرفة المعيشة. كانت تضع غطاء رأس معقودًا خلف رأسها على شكل ذيل طائر، مما يدل على أنها انتهت لتوها من الصلاة.

قالت أمي بصوت مبحوح متهدج: «عندما أذهب إلى الجدول، أحمل «**الأودو**» الخاصة بي، وأنحني عند الغدير وأملأ «**الأودو**»، ثم أبتعد عن الجدول...». فغر إيكينا فمه في تثاؤب طويل وسحب تنهيدة. توقفت أمي، وحدقت فيه لبرهة ثم أكملت: «أسير، إلى بيتي، إلى بيتي. عندما أصل إلى هناك أحط الجرة فأجدها فارغة».

تركَت الكلمات تغطس، وهي تجيل عينيها بيننا. تخيلتها تسير إلى النهر حاملة **أودو** من الفخار متوازنة على رأسها بمساعدة ربًّا ملتفة في حلقة متعددة الطبقات. كنت مجذوبًا ومتأثرًا جدًّا بتلك القصة البسيطة، بالنبرة التي حكتها بها، حتى إنني لم أُعْنَ كثيرًا بمعرفة معناها، لأنني أعرف أن تلك القصص التي تُقص هكذا بعد أن نرتكب خطأ، تحوي دائمًا معاني في قلبها؛ إذ كانت أمي تتكلم وتفكر بالحكايات والأمثال.

تابعَت: «أنتم، يا أطفالي، تسربتم من بين «**الأودو**» الخاصة بي، ظننت أنكم معي، أنني أحملكم في «**الأودو**»، أن حياتي مليئة بكم». مدت يديها وقوستهما كالإناء العميق. «لكنني كنت مخطئة. فتحتَ سمعي وبصري ظللتم أسابيع تذهبون إلى ذلك النهر وتصطادون. وها أنتم الآن، ومنذ مدة أطول وأطول، تضمرون سرًّا قاتلًا وأنا أظنكم في أمان،

وأظن أني سأعرف إن واجهتكم أي أخطار».
هزت رأسها.
«يجب أن تتطهروا من كل لعنة خبيثة ألقاها عليكم أبولو. ستذهبون معي في هذا المساء إلى القداس في الكنيسة. لا أريد أن يذهب أحدكم إلى أي مكان اليوم، وعندما تحين الرابعة سنذهب جميعًا إلى الكنيسة».
تعالت ضحكة ديفيد المرحة من غرفة أمي، حيث تركته مع نكيم، وشغَلَت الصمت الذي تولَّد بعد أن انتهت من كلمتها وراحت تراقبنا لتتأكد من أن الكلمات غاصت في رؤوسنا.
نهضت على قدميها، وفي طريقها إلى غرفتها توقفت فجأة، بعد أن سمعت شيئًا قاله إيكينا. استدارت وقالت بحدة: «**إيه؟** إيكينا، **إيسي غيني؟** - ماذا قلت؟».
رد إيكينا، وهو يعود إلى لغة الإغبو: «قلت إنني لن أذهب إلى الكنيسة معكم اليوم من أجل التطهير. لا أطيق أن أقف أمام ذلك الحشد وأدع الناس يطلُّون عليَّ من علٍ، ليحاولوا تخليصي من لعنة ما». هبَّ ناهضًا من على الأريكة. «أقصد أنني لا أريد ذلك وحسب. لست ملبوسًا بأي عفريت. أنا بخير».
قالت أمي: «إيكينا، هل فقدت عقلك؟».
«لا يا ماما، لكنني لا أريد الذهاب إلى هناك وحسب».
صرخت أمي: «ماذا؟ إيكي-ـنا؟».
أجابها: «هذه هي الحقيقة يا ماما. لا أريد الذهاب وحسب». هز رأسه: «لا أريد الذهاب وحسب يا ماما، **بيكو** - من فضلك، لا أريد الذهاب إلى أي كنيسة».
نهض بوجا على قدميه، ولم يكن قد تكلم مع إيكينا منذ شجارهما حول البرنامج التلفزيوني، وقال: «ولا أنا يا ماما. لن أذهب لأي تطهير. لا أشعر أنني أو أي أحد بحاجة إلى الخلاص من شيء. لن أذهب إلى هناك».
همَّت أمي بقول شيء ما، لكن الكلمات تعثرت عائدة إلى حلقها مثل رجل يسقط من فوق سلم. راحت تجيل بصرها بين إيكينا وبوجا وسيماء الصدمة على وجهها.
«إيكينا، بوجانونيميوكبو، ألم نعلمكما أي شيء؟ هل تريدان لنبوءة المجنون أن تتحقق؟!». شكَّل اللعاب فقاعة واهنة على زاويتي فمها الذي تركته مفتوحًا، فَرْقَعَت عندما بدأت تتكلم ثانية. «إيكينا، انظر كيف أثر الأمر عليك بالفعل. ما السبب وراء سوء سلوكك هذا إن لم يكن أنك تصدق أن إخوتك سيقتلونك؟ والآن، تقف هنا، وتواجهني، وتقول لي إنك لا تحتاج إلى صلوات؟ ولا تحتاج إلى تطهير؟ ألم تتعلم شيئًا من السنوات الطويلة والجهد الكبير الذي بذلناه أنا وإيمي في تعليمك؟ **إيه؟**».
صرخت أمي بالسؤال الأخير وهي ترفع يديها إلى أعلى في حركة مسرحية. وقال إيكينا بإصرار يمكنه أن يهشم بوابة من الحديد: «لن أذهب. هذا كل ما أعرفه». ثم عاد إلى غرفته كأنه تشجَّع بدعم بوجا. وفور أن أغلق باب الغرفة نهض بوجا وذهب في الاتجاه المعاكس - إلى الغرفة التي نتشاركها أنا وأوبمبي. أما أمي، فقد عادت صامتةً للجلوس على الأريكة، وغاصت تحت سطح قِدْر أفكارها الممتلئة، ذراعاها ملفوفتان حول جسدها، وفمها يتحرك كأنها تقول شيئًا يحتوي على اسم إيكينا، ولكنه غير مسموع. كان ديفيد يرمي كرة ويجري وراءها بخطى مبعثرة، ويضحك عاليًا محاولًا تقليد صوت مشجعي الاستاد بمفرده، عندما تحرك أوبمبي ليجلس بجوار أمي.
قال: «ماما، أنا وبِنْ سنذهب معك».
رفعَت أمي رأسها إليه بعينين غائمتين من الدموع.
تلعثمَت قائلة وهي تهز رأسها: «إيكينا.. وبوجا.. أصبحا غريبين الآن». اقترب أوبمبي منها أكثر، ووضع ذراعيه الطويلتين النحيلتين على كتفها، وكررت هي: «غريبين الآن».
لبقية اليوم وحتى غادرنا إلى الكنيسة، ظللتُ جالسًا أفكر في الأمر بأكمله، كيف كانت تلك الرؤيا سببًا في كل ما فعله

إيكينا بنفسه وبنا. نسيت المقابلة مع أبولو بعد حدوثها، عندما حذرنا بوجا أنا وأوبمبي ألا نخبر أحدًا بالأمر **أبدًا**. وعندما سألتُ أوبمبي ذات مرة، لماذا لم يعد إيكينا يحبنا، قال لأن أبي ضربنا بالسوط. وقد صدقته. لكن الآن، أصبح واضحًا جليًّا بالنسبة لي أنني كنت مخطئًا.

انتظرت أمي لترتدي ملابسها وتصحبنا إلى الكنيسة، وأثناء ذلك رميتُ نظرة على الخزانة ذات الأعمدة في غرفة الجلوس، وسقطت عيناي على العمود المغطى بلحافٍ من التراب، وشبكة العنكبوت المنشورة على طرفه. وهي علامات على غياب أبي؛ فأثناء وجوده في البيت، كنا نتبادل الأدوار أسبوعيًّا لتنظيف الرفوف، وقد توقفنا بعد بضعة أسابيع من مغادرته، ولم تستطع أمي أن تدير العملية على نحو فعَّال. في غياب أبي، اتسع محيط البيت على نحو سحري، وكأن بنَّائين غير مرئيين أزاحوا الحوائط، كما يفعلون ببيت ورقي، ووسعوا مساحته. كان وجود أبي حولنا، حتى وهو يثبت عينيه على صفحات جريدة أو كتاب، كافيًا لتفعيل أكثر النظم صرامة، وكنا نلتزم بما يسميه «الأدب» في البيت. وحين أفكر في امتناع شقيقيَّ عن المجيء معنا إلى الكنيسة لنكسر ما قد يكون لعنة، رحت أتلهف شوقًا إلى أبي، وتمنيت كثيرًا أن يرجع.

في ذلك المساء، سرت أنا وأوبمبي وراء أمي إلى كنيستنا، «كنيسة جماعات الرب»، الواقعة على الطريق الطويل الذي يمتد إلى مكتب البريد. أمسكت أمي ديفيد بإحدى يديها، وعلقت نكيم على ظهرها بربًّا. ولتحميهما من التعرق والطفح الجلدي، نثرت مسحوقًا على رقبتيهما فصارتا تلمعان وكأنهما في حفل تنكُّري. رأيت قاعة الكنيسة الكبيرة، وقد عُلقت فيها المصابيح في صفوف طويلة من زوايا السقف الأربع. وعلى المنبر شاهدت امرأة شابة في رداء أبيض، أجمل كثيرًا من الأفارقة العاديين في هذه الأنحاء، تغني «النعمة الرائعة» بلكنة أجنبية. مشينا جانبًا بين صفين من الناس، ظل معظمهم يثبتون عيونهم على عينيَّ حتى راودني شعور أننا مراقبون. وازدادت شكوكي عندما ذهبت أمي إلى خلف المنبر حيث يجلس راعي الكنيسة مع زوجته وكبار السن، وهمسَت في أذن القس. عندما انتهت المغنية، اعتلى القس المنصة، مرتديًا قميصًا وربطة عنق، وبنطاله معلق بحمالات.

«الإخوة والأشقاء»، بدأ حديثه بصوت عالٍ حتى إنه جعل السماعات المجاورة لصفنا تصمت بلا رجعة، واضطررنا إلى التقاط صوته من السماعة على الجانب الآخر من القاعة. «قبل أن أستكمل مع كلمة الرب الليلة، دعوني أقل إنه نمى إلى علمي للتوِّ أن الشيطان، في صورة أبولو، الملبوس بالعفاريت، والمتنبي الذي تعرفونه جميعًا، قد تعرَّض بالأذى لأناس من أهالي هذه البلدة، وأصاب بيت أخينا العزيز جيمس أغوو، أنتم جميعًا تعرفونه، زوج أختنا العزيزة هنا، الأخت باولينا أداكو أغوو. بعضكم هنا يعرف أن لديه أطفالًا كثيرين، وقد ضُبطوا، كما أخبرتني أختنا، وهم يصطادون عند «أومي-ألا» في شارع ألاغباكا».

ترددَت همهمة اندهاش خافتة وسط الحشد.

تابع القس كولينز، وصوته يرتفع وهو يُخرج الكلمات بغضب في الميكروفون: «ذهب أبولو إلى هؤلاء الأطفال وأخبرهم بأكاذيب. أشقائي، أنتم جميعًا تعرفون أن النبوءة إذا لم تكن من الله، فهي من...».

«الشيطان!»، صاح الحشد في صوت واحد.

«نعم. وإذا كانت من الشيطان، فلا بد أن تُنكر».

رددوا: «أجل!».

«لم أسمعكم»، زعق القس في الميكروفون وهو يهز قبضته. «إذا كانت من الشيطان **فلا بد** أن...».

«تُنكر!»، صرخ الحشد بحماسة كبيرة حتى بدت لي مثل صرخة حرب. ومن حول الحشد، انفجر أطفال صغار في النواح، من بينهم نكيم، وقد أفزعهم الصوت الهادر.

«هل أنتم جاهزون لإنكاره؟».

هدر الحشد بالموافقة، وصوت أمي يدوي فوق أصواتهم جميعًا، ويستمر بعدما توقفت كلها. نظرتُ إليها فرأيت أنها

شرعت في البكاء مجددًا.

«إذن، قفوا وأنكروا تلك النبوءة باسم الرب يسوع المسيح».

ارتفعت الصفوف، وقفز الناس على أقدامهم، وانخرطوا في جلسة حماسية من الصلوات الضارية.

***

ضاعت جهود أمي من أجل مداواة ابنها إيكينا سُدى، حيث كانت النبوءة، مثل وحش ثارت ثائرته، قد اهتاجت، وصارت تدمر عقله بشراسة الجنون، نازعة الدهانات، محطمة الجدران، مفرغة دواليب الملابس، قالبة الطاولات، حتى صار كل ما يعرفه، وكل ما هو عليه، وكل ما أصبح عليه، فوضى مبعثرة. بالنسبة لأخي إيكينا، كان الخوف من الموت كما تنبأ به أبولو عظيمًا، أصبح ملموسًا، وعالمًا حبيسًا حُصر من داخله بلا مخرج، عالمًا لا وجود لشيء وراءه.

سمعت ذات مرَّة أن الخوف عندما يستحوذ على قلب شخص، يجعله يتضاءل. يمكن أن ينطبق هذا على أخي، فعندما استحوذ الخوف على قلبه، جرَّده من أشياء كثيرة: سلامه، وراحة باله، وعلاقاته، وصحته، وإيمانه.

بدأ إيكينا يسير وحده إلى المدرسة التي يذهب إليها هو وبوجا. كان يستيقظ في السابعة صباحًا، ويفوِّت الإفطار، ليتجنب الذهاب مع بوجا. ويفوِّت وجبات الغداء والعشاء حين تتكون من «**الإيبا**» أو اليام المهروسة، وهي الوجبات التي عليه أن يأكلها مع إخوته من وعاء واحد. ونتيجة لذلك، بدأ يضمر حتى انحفرت تقوسات غائرة بين ترقوتيه ورقبته، وبرزت عظام وجنتيه فصارت مرئية. ومع مرور الوقت، تحول بياض عينيه إلى الأصفر الشاحب. لاحظَت أمي فاحتجَّت، وتوسلَت، وهددَت، لكن بلا جدوى. ذات صباح ومع اقتراب نهاية الفصل الدراسي في الأسبوع الأول من يوليو، أوصدَت الباب وأصرَّت أن يتناول إيكينا الإفطار قبل ذهابه إلى المدرسة. كان إيكينا محطمًا لأن لديه امتحانًا في ذلك اليوم. توسل إلى أمي أن تسمح له بالخروج: «أليس ذلك جسمي؟ ماذا يهمك إذا أكلت أم لا؟ اتركيني. لماذا لا تتركينني وشأني؟». انهار وأخذ ينشج، لكن أمي تماسكت حتى استسلم أخيرًا وأكل. أكل الخبز وعجة البيض، وراح يتذمر منها ومنا جميعًا. قال إن كل مَن في الأسرة يكرهه، ووعد أن يترك المنزل قريبًا فلا يراه أحد مجددًا.

«سوف ترون»، قالها مهددًا وهو يمسح عينيه بظهر يده. «كل ذلك سينتهي قريبًا، وستتحررون مني جميعًا. سوف ترون».

ردت أمي: «لكنك تعرف أن ذلك ليس صحيحًا يا إيكينا. لا أحد يكرهك؛ لا أنا، ولا أحد من إخوتك. أنت تفعل كل ذلك بنفسك بدافع الخوف، الخوف الذي حرثته وزرعته بيديك يا إيكينا. إيكينا، لقد اخترت أن تُصدِّق رؤى رجل مجنون، شخص لا قيمة له، لا يستحق أصلًا أن نسميه إنسانًا، ليس أكثر من - بماذا أقارنه؟ - السمكة، لا، الشراغف التي كنتم تلتقطونها من النهر. رجل حكى الناس في السوق منذ يومين أنه وجد قطيعًا يرعى في حقل، وعجولًا ترضع من ضروع أمهاتها، فانضم إلى الأبقار وبدأ يرضع من ضرع إحداها!». أطلقت أمي صوت بصاق لتُظهر احتقارها للصورة المزعجة لرجل يرضع من بقرة. «كيف يمكن أن تُصدِّق ما يقوله رجل يرضع من بقرة؟! لا يا إيكينا، لقد فعلت ذلك بنفسك، إيه؟ لا يجب أن تلوم أحدًا. لقد صلينا لأجلك حتى بعد أن رفضت الذهاب للصلاة لأجل نفسك. لا تلُم أي شخص على استمرارك في العيش في خوف عقيم».

أنصت إيكينا إلى أمي، محدقًا بخواء في الحائط أمامه. لثانية، بدا أنه أدرك حماقته، وأن كلمات أمي مزَّقت نياط قلبه المعذب، فدفعت دماء الخوف السوداء للتسرب منه. تناول وجبته على طاولة الطعام للمرَّة الأولى منذ وقت طويل في صمت، وعندما انتهى، تمتم لأمي «شكرًا لكِ»، الشكر المعتاد الذي نوجهه لوالدينا بعد كل وجبة، والذي لم ينطق به إيكينا منذ أسابيع. أخذ الصحون إلى المطبخ وغسلها كما علَّمتنا أمي أن نفعل، بدلًا من تركها على الطاولة أو في غرفته كما ظل يفعل لأسابيع، ثم غادر متوجهًا إلى المدرسة.

عندما خرج، دخل بوجا، الذي غسل أسنانه لتوِّه وظل ينتظر أن ينتهي أوبمبي من استخدام الحمَّام، إلى غرفة الجلوس ملفوفًا بفوطة الحمَّام التي يتشاركها مع إيكينا.

قال لأمي: «أخشى أن يُنفذ تهديده ويرحل».

هزت أمي رأسها، وعيناها تركزان على البرَّاد، الذي تنظفه بخرقة. ثم قالت، وهي تنحني حتى لم يعد يظهر منها سوى ساقيها تحت باب البرَّاد: «لن يرحل. إلى أين سيذهب؟».

رد بوجا: «لا أعرف، لكنني خائف».

«لن يرحل. هذا الخوف لن يدوم، سوف يغادره»، قالتها أمي بصوت مطمَئن، وأيقنتُ أنها تُصدِّق ذلك حقًّا.

جاهدت أمي من أجل مداواة جراحه وحمايته. أتذكر عصر يوم أحد عندما دخلت إيا إيابو ونحن نأكل اللوبيا بصلصة زيت النخيل. كنت قد رأيت الهرج حول البيت، لكننا تعلَّمنا ألا نخرج لمشاهدة هذه التجمهرات كما يفعل أطفال البلدة. حذرنا أبي دائمًا: «ربما يكون أحدهم مسلحًا، وربما تُطلق نيران، وربما تصابون». ظللنا في غرفتينا، لأن أمي موجودة في البيت وستعاقبنا أو تبلغ أبي عن المذنب. كان على بوجا أن يقدم اختبارين في اليوم التالي، في العلوم الاجتماعية والتاريخ، وهما مادتان يكرههما، وقد أصبح سريع الغضب، يلعن كل الشخصيات التاريخية في الكتاب («هؤلاء الموتى الأغبياء»). ولم أرغب أنا وأوبمبي في إزعاجه أو الاقتراب منه وهو محبط هكذا، فجلسنا في غرفة الجلوس مع أمي عندما طرقت المرأة الباب.

«آه، إيا إيابو»، نادت أمي، وهي تسرع بالنهوض من مقعدها فور دخول المرأة.

قالت المرأة، التي أكرهها لأنها أبلغت عنا: «ماما إيكي».

قالت أمي: «انضمي إلينا لتناول الطعام، نحن نأكل».

رفعت نكيم يديها عن الطاولة ومدتهما للمرأة التي رفعتها عن كرسيها على الفور.

قالت أمي: «ماذا حدث؟».

قالت المرأة: «أديرونكي. أديرونكي قتلت زوجها اليوم».

صرخت أمي: «**إي-ووا!**».

شرعت المرأة تقول: «**وو، بي أو سي، شيلي ني**». كانت عادةً ما تتكلم بلغة اليوروبا مع أمي التي تفهمها جيدًا، مع أنها ليست طليقة اللسان فيها، ولا تكاد تتكلم بها مع أحد آخر، بل تجعلنا دائمًا نتكلم مع الناس نيابة عنها. قالت إيا إيابو وهي تنتقل إلى إنجليزية مهجنة: «بيي كان سكران أمس، وجاء للمنزل عاريًا». وضعت يديها على رأسها وبدأت تهتز نائحة.

«أرجوكِ يا إيا إيابو، اهدئي وأخبريني».

«طفلها، أونيبيلادون، هو مريض. زوجها دخل، قالت له أعطيني نقود دواء، لكن هو بدأ يضرب ويضرب في هي وفي الطفل».

«**تشي-نيكي!**»، شهقت أمي، وغطت فمها بيديها.

قالت إيا إيابو: «**بي ني** - هذا حدث. أديرونكي قال لماذا تضرب طفل مريض، وهي خاف لأنه يشرب، وقال إنه سيقتله، وضرب زوجه بكرسي».

تلعثمت أمي: «إيه، إيه».

وقالت إيا إيابو: «الرجل مات. مات هكذا».

كانت المرأة جالسة على الأرض، مسندة رأسها على الباب، وراحت تؤرجح جسدها وتهز ساقيها. جلست أمي ساكنة مصدومة، واحتضنت نفسها في رعب. نسيت الطعام الذي دسسته لتوي في فمي فور سماعي خبر موت «أوغا بيي»، لأنني أعرف الفقيد. كان يشبه الجدي. ومع أنه ليس مجنونًا، فقد كان يدمدم ويمشي متثاقلًا وهو في حالة السُّكر المعتادة. في الصباح، كثيرًا ما نراه على الطريق إلى المدرسة، يسير عائدًا إلى بيته، متزنًا، لكن في المساء نراه مترنحًا، سكران من جديد.

قالت ماما إيابو، وهي تمسح عينيها: «تعرفين، لا أظن أنها قتلت هو بعيون مفتوحة».

وقالت أمي: «**إيه**، ماذا تقصدين؟».

«هذا المجنون، أبولو سبب هو. هو قال لبيي إنه يقتله أكثر عزيز عليه. الآن زوجه يقتله».

رمتنا أمي بنظرة، كأنما أصابتها وخزة، والتقت عيناها بعيوننا. نهض شخص من فوق كرسي في مكان ما، ليس في غرفة الجلوس، وفتح الباب برقة وظهر في الغرفة. ومع أنني لم أستدر لرؤيته، فقد عرفته. واتضح أن أمي وكل مَن في الغرفة يعرفونه أيضًا. إنه إيكينا.

قالت أمي بصوت عالٍ: «لا، لا، إيا إيابو. لا أريدك أن تقولي هذا الهراء، هذا الشيء هنا».

«آه، ماذا...؟».

صرخت أمي: «قلت لا! كيف تُصدِّقين أن رجلًا مجنونًا يمكن أن يرى المستقبل؟ كيف؟».

غمغمت المرأة: «لكن يا ماما إيكي. هم يقولون إن هو...».

قالت أمي: «لا. أين أديرونكي الآن؟».

«قسم الشرطة».

هزت أمي رأسها.

قالت إيا إيابو: «هم قبضوا عليها».

قالت أمي: «هيا نذهب لنتكلم في الخارج».

نهضت المرأة، فخرجتا معًا، تتبعهما نكيم. بعد خروجهما، ظل إيكينا واقفًا هناك، عيناه خاويتان من الحياة كأنهما عينا دمية، ثم قبض على بطنه فجأة، واندفع إلى الحمَّام وهو يُصدر أصواتًا مخنوقة ويهم بالتقيؤ في المغسلة. كانت تلك هي اللحظة التي بدأ فيها مرضه، عندما جرَّده الخوف من صحته، إذ بدا أن قصة موت الرجل قد رسَّخت في عقله القدرات التنبؤية المؤكدة لأبولو، التي ليس منها مهرب أو مفر، وجعلت الدخان يتصاعد من أشياء لم تحترق بعد.

بعدها ببضعة أيام، في صباح يوم سبت، كنا جميعًا نتناول الإفطار على طاولة الطعام؛ يامًا مقليًّا وعصيدة ذرة، عندما اندفع إيكينا، الذي كان قد أخذ طعامه وذهب إلى غرفته، خارجًا فجأة، ويده على بطنه، ينخر. وقبل أن نفهم ماذا يحدث، سقطت حفنة من الطعام المتقيأ على الأرضية المبلطة خلف الأريكة الزرقاء التي نُسميها «عرش أبي». كان إيكينا في طريقه إلى الحمَّام، لكن الآن، وقد منعته القوة التي يحاول احتواءها، سقط بإحدى ركبتيه على الأرض، وتقيأ، واختفى جزء منه خلف الأريكة.

خرجَت أمي من المطبخ مندفعة نحوه صائحة: «إيكينا، إيكينا»، وحاولَت رفعه، لكنه احتج بأنه بخير، مع أنه في الحقيقة بدا شاحبًا ومريضًا.

سألته أمي عندما توقف: «ما الأمر يا إيكينا؟ متى بدأ كل هذا؟». لكنه لم يجبها.

«إيكينا، لماذا؟ لماذا لا تجيبني؟ لماذا؟ إيه، لماذا؟».

دمدم قائلًا: «لا أعرف. اتركيني أذهب لأنظف نفسي الآن، من فضلك».

تركت أمي يده، وبينما توجه إيكينا إلى الحمَّام، قال بوجا: «آسف يا إيكي!». وقلت الشيء نفسه، وكذلك فعل أوبمبي وديفيد أيضًا. لم يرد إيكينا على مواساتنا، ولكنه لم يصفع الباب هذه المرَّة، بل أغلقه وأوصده بهدوء.

فور ابتعاد إيكينا عن الأنظار، اندفع بوجا إلى المطبخ وعاد بجاروف، ومقشة من عيدان ألياف النخل الرفيعة مثل الإبرة مربوطة معًا برباط محكم. حركت السرعة التي ركض بها بوجا لتنظيف الأوساخ مشاعر أمي، فقالت بصوت عالٍ حتى يسمعها إيكينا من فوق صوت الماء: «إيكينا، أنت تعيش في خوف من أن يقتلك أحد إخوتك، لكن تعال وانظر...».

توسل إليها بوجا بقوة: «لا، لا، نني، لا، لا تقوليها، أرجوكِ...».

قالت ماما: «اتركني، دعني أخبره. تعال يا إيكينا وانظر إليهم، تعال فقط و...». اعترض بوجا قائلًا إن إيكينا لن يسعد إذا عرف أنه ينظف قيأه، لكن ذلك لم يردع أمي.

أكملت: «انظر إلى هؤلاء الإخوة أنفسهم وهم يبكون لأجلك. انظر إليهم وهم ينظفون قيأك. تعال وانظر إلى «أعدائك» وهم يهتمون لأمرك، حتى وأنت لا تريد».

ربما ذلك هو ما جعل إيكينا يستغرق وقتًا طويلًا قبل أن يخرج من الحمَّام في ذلك اليوم، لكنه خرج في نهاية المطاف، ملفوفًا في فوطة. في ذلك الوقت، كنس بوجا البقع، ومسح الأرض وأجزاء من الحائط وظهر الأريكة التي طالها القيء، ورشَّت أمي مطهر الديتول في كل مكان. أجبرت أمي إيكينا على الذهاب معها إلى المستشفى بعد ذلك، بتهديده أنها ستتصل بأبي إن رفض. كان إيكينا يعرف أن أبي يأخذ الأمور الصحية بجدية شديدة، ولذلك استسلم لها.

أثار فزعي أنني رأيت أمي عائدة إلى البيت وحدها بعد ساعات. أصيب إيكينا بالتيفويد، وحُجز في المستشفى، ليتلقى علاجًا بالحقن الوريدي، وعندما انهرتُ أنا وأوبمبي، وقد استحوذ علينا الخوف، هدهدتنا أمي وطمأنتنا بأنه سيُصرف من المستشفى في اليوم التالي، وأنه سيكون بخير.

خفتُ من أن يُصاب إيكينا بسوء، ولم أتكلم كثيرًا في المدرسة، وتعاركت مع كل شخص يستفزني حتى ضربني مدرس الانضباط. وهذا أمر نادر؛ حيث كنت طفلًا مطيعًا، ليس لوالديَّ فقط، وإنما لمدرسيَّ أيضًا. كنت أرتعب من العقاب الجسدي، وأفعل كل شيء لتجنبه. لكن الحزن الذي شعرت به بسبب وضع أخي المتدهور أضرم كراهية مريرة بداخلي تجاه كل شيء، خصوصًا المدرسة ومن فيها. تلاشى الأمل في أن يتعافى أخي، وأصبحتُ أخاف عليه.

بعد أن جرَّدت سموم الحقد إيكينا من صحته وراحة باله، جردته من إيمانه. فوَّت الذهاب إلى الكنيسة ثلاثة آحاد متتالية، متذرعًا بمرضه، إضافةً إلى الأحد الذي لم يحضره بسبب بقائه ليلتين في المستشفى. لكن في صباح الأحد التالي أعلن إيكينا أنه لا يريد الذهاب إلى الكنيسة، وقد تجرأ عندما عرف أن أبي سافر إلى غانا في دورة تدريبية تستمر لثلاثة أشهر ولن يزور أكوري ثانية حتى عودته.

قالت أمي: «هل سمعتك جيدًا يا إيكينا؟».

رد إيكينا بقوة: «نعم، سمعتِني جيدًا. اسمعي يا ماما، أنا عالِم، لم أعد أؤمن بوجود إله».

«ماذا؟»، صرخت أمي وهي تتراجع إلى الخلف كأنها داست على شوكة حادة. «إيكينا، ماذا قلت؟».

تردد قليلًا، وعلى وجهه تقطيبة عابسة.

«سألتُك: ماذا قلت يا إيكينا؟».

أجابها: «قلت إنني عالِم». ورنَّت كلمة «عالِم» في المكان بتحدٍّ مفزع، قالها بالإنجليزية حيث لا وجود لكلمة مرادفة في الإغبو.

«ثم؟». دفعها الصمت الذي قوبلت به أن تقول: «أكمِل يا إيكينا، أكمِل هذا الكلام الكريه الذي قلته». أشارت إلى وجهه بإصبعها، في حركة اتهامية، وقالت: «إيكينا، انظر إليَّ: أنا وإيمي لا نقبل، ولن نقبل أبدًا، أن يكون لدينا ابن مُلحد. أبدًا!».

أبدت استهجانها لما قاله محدثة بعض الأصوات بلسانها، وطرقت بإصبعيها فوق رأسها لكي تطرد الفكرة. «وهكذا يا إيكينا، إذا كنت راغبًا في أن تبقى جزءًا من هذا البيت، أو أن تأكل طعامًا فيه. انهض من فراشك الآن».

انكمش إيكينا عندما سمع هذا التهديد. دخلَت إلى غرفتها وعادت ممسكة بأحد حزامي أبي الجلديين القديمين وقد لفت نصفه حول معصمها، مستعدة لجلده، وهو شيء لم تفعله من قبل. وعندما رأى إيكينا ذلك المنظر، سحب نفسه إلى الحمَّام ليستحم ويستعد للذهاب إلى الكنيسة.

سار إيكينا أمامنا في طريق عودتنا إلى البيت بعد القداس، حتى لا تفتح معه أمي أي موضوعات أمام الناس، ولأن أمي كانت عادةً تعطيه المفتاح ليفتح لنا البوابة والباب الرئيسي. لم تكن ترجع من الكنيسة إلى البيت مباشرة إلا فيما

ندر، حيث تنتظر مع الصغيرين لأجل اجتماعات النساء بعد القداس، أو لحضور أحد «واجبات الزيارة». عندما ابتعدنا عن أنظار أمي، بدأ إيكينا يسرع خطاه، وتبعناه في صمت. لسبب ما، سلك إيكينا طريقًا أطول إلى البيت عبر شارع إيغوكا، وهو شارع يسكنه الفقراء الذين يعيشون في بيوت قليلة التكلفة أغلبها غير مطلي، وفي أكواخ خشبية. كان هناك أطفال صغار يلعبون في كل ركن تقريبًا من المنطقة القذرة، وثمة فتيات يتقافزن داخل مربع كبير من الأعمدة، وثمة ولد، لا يتجاوز الثالثة من عمره، منحنٍ على ما بدا أنه حبال صفراء مسودَّة من البراز تنزل منه وتُشكِّل هرمًا لزجًا. وفيما كان ذلك الهرم يتشكَّل ويلوث الهواء، ظل الولد يواصل اللعب، ويرسم على التراب بعصا، غير منزعج من أسراب الذباب التي تحوم حوله. بصقتُ أنا وإخوتي على التراب، ثم بحركة غريزية، مسحنا البصاق على الفور بمقدمة صنادلنا ونحن نمر، وبوجا يلعن الولد الصغير وأهالي الحي - «خنازير، خنازير». تأخر عنا أوبمبي فجأة، وهو يحاول أن يمسح بصاقه. كان مسحُنا للبصاق التزامًا بخرافة تقول إنه إذا داست امرأة حامل على لعاب، فإن الشخص الذي بصقه - إذا كان ذكرًا - سيصاب بعنَّة دائمة، وقد ظننت في ذلك الوقت أنها تعني أن عضو الشخص سوف يختفي على نحو سحري.

كان شارعًا قذرًا بحق، ذلك الشارع الذي يعيش فيه صديقنا كايودي مع والديه، في بناية غير مكتملة من طابقين لم يُبلط منها إلا أرضها. بدا البيت في حالة بدائية، حتى إن أعمدة من الإسمنت والحديد امتدت من سقفه كأشعة تندفع إلى أعلى، وأكوام من الكتل غير المطلية مخضرَّة من الطحالب التي انتشرت في أرجاء البيت. وفي ثقوب الطوب، وفي الإطار بأكمله، عششت حشود من السحالي والسقنقورات التي راحت تمرق في كل مكان. أخبرنا كايودي ذات مرَّة أن أمه وجدت سحلية داخل البرميل حيث يخزنون مياه الشرب في المطبخ. ظلت السحلية الميتة طافية على سطح الماء لأيام من دون أن يلاحظها أحد، حتى اكتسب الماء مذاقًا غريبًا. عندما أفرغت أمه البرميل وانزلقت السحلية الميتة على الأرض في بركة من الماء، كان رأسها قد انتفخ إلى الضعف، و**مثل كل الأشياء التي تغرق** في الماء بدأت في التحلل. في كل ركن من أركان الحي تقريبًا، نخرت أكوام من القمامة البلاط وانسكبت على الطرق. وتراكم بعض من القمامة في المصارف المفتوحة، متوعدة وخانقة مثل أورام، ملتفة حول جسور المشاة مثل أفاعي الأصلة، رابضة مثل أعشاش طيور بين الأكشاك على جانبي الطريق، تشبه دمامل في تجاويف الأرض الصغيرة والأفنية الضاجَّة بالبشر. وعلق هواء آسن في كل أرجاء المكان، رابطًا بين المباني بنتانته غير المرئية.

كانت الشمس قاسية في السماء، تجبر الأشجار على تشكيل مظلات تحت أستارها. على أحد جانبي الطريق، رأيت امرأة تقلي سمكًا في صينية على مستوقد تحت سقيفة خشبية، وكانت أمواج من الدخان تتصاعد باطِّراد من جانبي المستوقد، زاحفة في اتجاهنا. عبرنا إلى الجانب الآخر بين شاحنة متوقفة وشرفة بيت لمحتُ بداخله رجلين جالسين على كنبة بُنيَّة، يومئان وهما يتكلمان، بينما مروحة عمودية تدوِّر رأسها ببطء. وكانت عنزة وأطفالها تختبئ تحت طاولة أمام الشرفة، محاطة بقرون سوداء من فضلاتها.

عندما وصلنا إلى بيتنا، وبينما ننتظر أن يفتح إيكينا البوابة، قال بوجا: «رأيت أبولو يحاول دخول الكنيسة أثناء القداس اليوم، لكنه مُنع لأنه عارٍ». انضم بوجا إلى فريق من الصبية يعزفون الطبول لكنيستنا المحلية، ويلعبون بالتبادل، وكان الدور على بوجا في ذلك اليوم، وهكذا جلس أمام الكنيسة بالقرب من المذبح، وهذا ما جعله يرى أبولو وهو يدخل من الباب الخلفي للكنيسة. فتش إيكينا في جيبه عن المفتاح، وقلب جيبه إلى الخارج لأن المفتاح اشتبك في خيط من الكتان والألياف المفرودة، والتف حولها، فصار صعب الاستخلاص. كان الجيب قذرًا، ومبقعًا بالحبر، وانهمرت فتات صغيرة من قشور الفول السوداني على الأرض مثل التراب عندما قلبه إلى الخارج. حاول فك تشابك المفتاح ولكنه لم ينجح، فنزعه بعنف، وقطع الجيب. كان يستعد لإدارة المفتاح في الثقب عندما قال بوجا: «إيكي، أعرف أنك تصدق النبوءة، لكنك تعرف أننا أطفال الرب...».

رد إيكينا بحدة: «إنه نبي».

فتح الباب، وأخرج المفتاح من الثقب، وقال بوجا: «نعم، لكنه ليس من عند الرب».

انفجر إيكينا، وهو يدير وجهه إلى بوجا: «وكيف عرفت؟ أسألك، كيف عرفت؟».

«ليس من عند الرب يا إيكي، أنا متأكد».

«ما دليلك؟ هه، ما دليلك؟».

لم ينطق بوجا. تعلَّقت عينا إيكينا بشيء ما فوق رؤوسنا، فنظرنا ورأينا ما ينظر إليه: طائرة ورقية مصنوعة من النايلون تنساب عاليًا في البعيد.

قال بوجا: «ما قاله لا يمكن أن يحدث. اسمع، لقد ذكر نهرًا أحمر. قال إنك ستسبح في نهر أحمر. كيف يمكن لنهر أن يكون أحمر». فرد يديه في إشارة على الاستحالة، وهو ينظر إلينا بحثًا عن تأييد لما قاله. ورد أوبمبي بإيماءة. «إنه مجنون يا إيكي. لا يعرف ماذا يقول».

اقترب بوجا من إيكينا، وفي إيماءة شجاعة غير متوقعة، وضع يده على كتفه. «يجب أن تصدقني يا إيكي، يجب أن تصدقني»، قالها وهو يهز كتفي إيكينا محاولًا أن يقوِّض جبل الخوف في أعماق أخيه.

وقف إيكينا في مكانه، وعيناه مثبتتان على الأرض، وقد بدا عليه التأثر بكلمات بوجا. كانت لحظة أمل، لحظة بدا فيها أننا يمكن أن نسترجع ما ضاع منا. وأردت أن أفعل مثل بوجا، وأن أقول لإيكينا إنني لا يمكن أن أقتله، لكن أوبمبي هو مَن تكلم بعدها.

تلعثم أوبمبي قائلًا: «إنه.. محق. لن يقتلك أحدٌ منا. نحن لسنا.. يا إيكي.. نحن لسنا صيادين بمعنى صيادين. لقد قال إن صيادًا سيقتلك يا إيكي، لكننا لسنا صيادين بحق».

رفع إيكينا عينيه إلى أوبمبي وارتسم على وجهه تعبير شخص مرتبك مما سمعه، وعلقت الدموع في عينيه. ثم جاء دوري.

«لا يمكن أن نقتلك يا إيكي، أنت قوي، وأكبر منا جميعًا»، قلتها في صوت استجمعته بقدر الإمكان، وقد وخزني شعور أنني يجب أن أقول شيئًا. لكنني لم أعرف ما الذي أعطاني الجسارة لأن أتناول يده وأقول: «أخي إيكي، لقد قلتَ إننا نكرهك، لكن هذا غير صحيح. إننا نحبك جدًّا أكثر من أي شخص».

ومع أنني شعرت بدفء في حلقي وقتها، تابعت بكل ما استطعت استجماعه من هدوء: «إننا نحبك حتى أكثر من بابا وماما».

تركته وتراجعت إلى الخلف، وسقطت عيناي على بوجا، الذي كان يومئ برأسه. للحظة، بدا إيكينا ضائعًا، بدا أن كلماتنا قد تركت أثرًا فيه، وللمرَّة الأولى منذ أسابيع، التقت عيوننا بعينيه. كانت عيناه حمراوين بلون الدم، ووجهه شاحبًا، لكنْ عليه تعبير لا يُوصف، لا يُفهم، لدرجة أنه - بقدر ما كانت ذاكرتي تحتمل في ذلك الوقت - أصبح الوجه الذي أتذكره به الآن أكثر من أي وجه آخر.

تلت ذلك لحظة أمل عظيم، وكلنا ننتظر ما سيفعله بعدها. وكأنما لكزته روح غير مرئية، استدار وهرع إلى غرفته، وصاح من داخلها قائلًا: «لا أريد أن يزعجني أيٌّ منكم بعد الآن. ابقوا في حالكم واتركوني وحدي. أنا أحذركم، اتركوني وحدي!».

***

بعدما دمَّر الخوف راحة بال إيكينا، وصحته، وإيمانه، دمَّر علاقاته، وكانت أقربها معنا نحن، إخوته. بدا أنه خاض معركة داخلية لزمن طويل جدًّا، ثم أصبح راغبًا في إنهاء الأمر. وليتحدى النبوءة أن تثبت صحتها، بدأ يفعل كل ما بوسعه ليؤذينا. بعد يومين من محاولتنا إقناعه، استيقظنا لنكتشف أنه خرَّب ملكيتنا الثمينة: نسخة من صحيفة «أكوري هيرالد» بتاريخ 15 يونيو 1993. كانت الصحيفة تحمل صورتينا: صورة إيكينا على الصفحة الأولى وتحتها تعليق: «بطل صغير يقود إخوته الصغار إلى بر الأمان»، وصورتي أنا وبوجا وأوبمبي موضوعة في مربع صغير فوق صورة إيكينا الكبيرة، تحت اسم الصحيفة. لم تكن الصحيفة تُقدر بثمن، هي ميدالية شرف خاصة بنا، أقوى حتى من روزنامة

«M.K.O». في وقت آخر، كان إيكينا مستعدًّا لأن يَقتل من أجلها. تحكي الصحيفة كيف قادنا إلى بر الأمان أثناء أعمال شغب سياسية ضارية، ولحظات حاسمة غيَّرت كل شيء في حياة أكوري.

في ذلك اليوم المشهود، بعد شهرين فقط من لقائنا بـ«M.K.O»، كنا في المدرسة عندما بدأت بعض السيارات تطلق نفيرها بلا انقطاع. كنت في صف أغلب مَن فيه لم يتجاوزوا السادسة، غير مُدرك للاضطراب الذي يغلي في أكوري ومختلف أرجاء نيجيريا. سمعت أبي يتحدث عن حرب نشبت قبل وقت طويل، كثيرًا ما ذكرها عابرًا وهو يقول عبارة «قبل الحرب»، ثم يُتبعها عادةً بجملة ليس لها علاقة بأحداث الحرب، وبعدها ينهي كلامه أحيانًا بـ«لكن الحرب أوقفت كل ذلك». في بعض الأوقات، وهو يوبخنا على سلوك ينم عن الكسل أو الضعف، كان يحكي لنا قصة هروبه وهو صبي في العاشرة أثناء الحرب، عندما تُرك بمفرده مع أمه وأخواته الصغيرات، ليلبي احتياجاتهن، ويصطاد لأجلهن ويطعمهن ويحميهن، بعد أن خرج الجميع إلى غابة «أوغبوتي» الكبيرة هربًا من غزو قريتنا على يد الجيش النيجيري. كانت تلك المرَّة الوحيدة التي أتى فيها على ذكر شيء مما حدث «أثناء الحرب». بدلًا من ذلك، تكون العبارة غالبًا: «بعد الحرب»، ثم تتشكَّل جملة جديدة لا صلة لها بالحرب المذكورة.

اختفت مُدرستنا مبكرًا عندما بدأ الشغب ونفير السيارات. وفور مغادرتها، خلت غرفة الدرس، فيما راح الأطفال يركضون، وهم ينادون على أمهاتهم. بُنيت المدرسة من ثلاثة طوابق، وكانت الحضانة وفصلي في الطابق الأرضي، بينما تبدأ الفصول الأكبر؛ فصول الصفوف الابتدائية، من الطابق الأول وحتى الثاني. رأيت من نافذة صفي حشدًا من السيارات في أحوال مختلفة، بعضها بأبواب مفتوحة، وبعضها تنطلق مسرعة، وبعضها متوقفة. جلستُ هناك، في انتظار مجيء أبي مثل الآباء الآخرين الذين جاؤوا لأخذ أطفالهم، لكن بوجا ظهر عند باب صفي مناديًا على اسمي. أجبته وتناولت حقيبتي وزمزميتي.

قال وهو يخطو فوق الطاولات في اتجاهي: «تعالَ، سنرجع إلى البيت».

قلت وأنا ألتفت حولي: «لماذا؟ فلننتظر أبي».

«أبي لن يأتي»، قالها، ووضع سبابته على شفتيه ليسكتني.

سحب يدي وقادني إلى خارج الصف. جرينا بين صفوف الطاولات الخشبية والكراسي المتناثرة التي كانت مرتَّبة قبل بدء أعمال الشغب. رأيت تحت كرسي مقلوب علبة طعام مكسورة تخص أحد الأولاد، وقد تبعثرت محتوياتها على الأرض - أرز أصفر وسمك. بدا العالم في الخارج كأنه شُطر إلى شطرين، ونحن جميعًا نتأرجح على حافة الهاوية. نزعت يدي من قبضة بوجا لأعود إلى صفي وأنتظر أبي.

صاح بوجا: «ماذا تفعل يا مجنون؟ إنها أعمال شغب. إنهم يقتلون الناس. لنرجع إلى البيت!».

قلت وأنا أتبعه بخطى حذرة: «الأفضل أن ننتظر أبي».

اعترض بوجا: «لا، لا نستطيع. إذا اقتحم هؤلاء الرجال المدرسة سيتعرفون علينا بصفتنا «أولاد M.K.O»، «أولاد الأمل 93»، أعداءهم، وسيكون الخطر محدقًا بنا أكثر من أي شخص آخر».

أرعبتني كلماته، وحطَّمت ترددي أشتاتًا. تجمَّع حشد أغلبه من التلاميذ الأكبر سنًّا عند البوابة محاولين الخروج، لكننا لم نتوجه إلى هناك. عبرنا السور المتداعي، ومضينا عبر صف من أشجار النخيل خارج المدرسة، والتحقنا بإيكينا وأوبمبي، اللذين انتظرانا خلف شجرة في الدغل، وركضنا معًا.

انسحقت الحشرات تحت أقدامنا، واقتحم رئتيَّ طوفان من الهواء. دقائق ودفعَنا الدغل خارجه إلى درب صغير عرف أوبمبي على الفور أنه شارع إيسولو.

كان الشارع مهجورًا تقريبًا. أخذنا نجري من أمام سوق الخشب، حيث كنا نضطر، في الأيام العادية، إلى سد آذاننا لحمايتها من صوت المثاقيب الآلية الرهيب. وكانت الشاحنات المتهالكة العديدة التي تنقل الخشب الثقيل من الغابات رابضة أمام جبل من نشارة الخشب، لكن لم يكن أحد حولها. من هنا، رأينا الطريق الواسع مقسومًا إلى قسمين بقضيب

طويل عرضه يماثل ثلاثًا من أقدامي موضوعة إحداها أمام الأخرى. يؤدي الطريق إلى البنك المركزي النيجيري، المكان الذي اقترح إيكينا أن نذهب إليه، لأنه أقرب مكان محمي بحراس مسلحين، ويمكننا الاختباء فيه لأن أبي يعمل هناك. أصر إيكينا أن نذهب إلى هناك، وإلا فإن قوات الانقلاب العسكري العازمة على الإغارة على مؤيدي «M.K.O» في مسقط رأسه أكوري، ستقتلنا. في ذلك اليوم، رأيت الطريق ممتلئًا بالأشياء المبعثرة - أغراض شخصية سقطت من أناس وهم يهربون من المجزرة - كأن طائرة ألقت بحمولتها على أكوري من ارتفاع هائل. عندما عبرنا إلى الجانب الآخر من الطريق، حيث يوجد بيت مسوَّر به أشجار كثيرة، انطلقت سيارة ممتلئة بالناس في الطريق بسرعة جنونية. وفور ابتعادها عن الأنظار، خرجت من الطريق الذي جئنا منه سيارة «مرسيدس بنز» زرقاء، تجلس في مقعدها الأمامي موجيسولا إحدى زميلاتي في الصف، ولوَّحَت لي بيدها، فلوحتُ لها، لكن السيارة انطلقت في سبيلها.

قال إيكينا بعد أن ابتعدت السيارة عن أنظارنا: «هيا بنا. ما كان لنا أن نظل في المدرسة؛ سيعرفون أننا أولاد «M.K.O»، وسنصبح في خطر. لنذهب من ذلك الطريق». أشار بيده واتسعت عيناه كأنه سمع شيئًا لم نسمعه.

ملأتني كل تفصيلة أخَّاذة من تفاصيل الشغب التي رأتها عيناي، وكل رائحة، بخوف ملموس من الموت. دخلنا إلى منعطف فصرخ إيكينا: «لا، لا، توقفوا. لا يجب أن نسير في الطريق الرئيسي. هذا الطريق ليس آمنًا».

عبرنا إلى الجانب الآخر، ودخلنا حارة تجارية كبرى، مليئة بمتاجر مغلقة أبوابها، وكان باب أحدها محطمًا، وقطع من الخشب المكسور وافر المسامير تتدلى على نحو خطير من الباب المحطم. اضطررنا إلى التوقف في مكان بين بارٍ مغلق به صناديق بيرة مكومة فوق بعضها البعض، وشاحنة تتناثر على سطحها ملصقات «ستار لاغر بير»، و«33»، و«غينيس»، وغيرها من الأسماء التجارية. في تلك اللحظة، تعالت صيحة استغاثة، بلغة اليوروبا، من مكان لم نستطع تحديده على الفور، وخرج رجل من أحد المتاجر وركض في اتجاه الطريق إلى مدرستنا، فتنامى خوفنا من الخطر المحدق.

قطعنا مَكَب القمامة، وسرنا في شارع رأينا فيه بيتًا يحترق، وثمة جثمان رجل مسجى في شرفته. انحنى إيكينا وراء البيت المحترق وتبعناه، ونحن نرتعش. كانت أول مرَّة بالنسبة لي، وربما بالنسبة لنا جميعًا، أرى فيها رجلًا ميتًا. تسارعت نبضات قلبي، وأحسست لحظتها بالدفء التدريجي الذي يتسرب ببطء على مؤخرة «شورتي» المدرسي. عندما نظرت إلى الأرض من تحتي، أدركت أنني بللت سروالي، وشاهدت النقاط الأخيرة القليلة وهي تتسرب إلى الأرض، وأنا أرتعش. مر أمامنا حشد من الرجال المسلحين بهراوات ومناجل، وهم يجيلون أبصارهم في الأنحاء ويهتفون: «الموت لبابانغيدا، الحكم لأبيولا». ظللنا مقرفصين مثل الكلاب، صامتين كالأحجار طيلة الوقت الذي ظلت فيه هذه الزمرة في مجال أنظارنا. وفور مرورهم، زحفنا خلف أحد البيوت، ووجدنا شاحنة بها رجل ميت متوقفة على الجانب الآخر من الباحة الخلفية، وكان بابها الأمامي مفتوحًا.

عرفنا من الثوب الذي يرتديه الرجل، وهو رداء سنغالي طويل فضفاض، أنه من الشماليين: الهدف الأساسي للهجوم من قِبل مؤيدي «إم. كيه. أو. أبيولا»، الذين اختطفوا أعمال الشغب وحولوها إلى صراع بين الغرب الذي ينتمي إليه، وبين الشمال الذي ينتمي إليه الرئيس العسكري، الجنرال بابانغيدا.

رفع إيكينا جثة الرجل عن مقعد السيارة، بقوة لم يظنه أحد قادرًا عليها، فسقط الرجل خارج السيارة بارتطام مكتوم، والدم يتناثر على الأرض من وجهه المحطم. صرختُ وشرعتُ في البكاء.

صاح بوجا: «اسكت يا بِنْ!». لكنني لم أستطع التوقف من شدة الخوف الذي يتملكني.

دخل إيكينا في مقعد السائق وجلس بوجا بجانبه، وجلست أنا وأوبمبي في المقعد الخلفي.

صاح إيكينا: «هيا بنا. هيا نستقل هذه السيارة إلى مكتب أبي. أغلقوا الأبواب بسرعة».

أدار إيكينا السيارة بالمفتاح المُعلَّق في المحرك بجوار عجلة القيادة الكبيرة، فزأر المحرك وبدأ في الدوران بهدير طويل.

سأل أوبمبي مرتعدًا: «إيكي، هل تعرف القيادة؟».

قال إيكينا: «نعم. أبي علَّمني منذ فترة».

سرَّع دورة المحرك، وارتجت السيارة وهي تندفع إلى الخلف، ثم توقفت. شرع يديرها ثانيةً، وعندها سمعنا صوت ذخيرة في البعيد فتجمَّدنا في أماكننا.

«إيكينا، أرجوك انطلق بها»، قالها أوبمبي منتحبًا، وهو يرفرف بيديه، وبدأت الدموع تنساب على وجهه أيضًا. «طلبت منا أن نترك المدرسة، الآن سنموت؟».

كانت النيران مضطرمة، والسيارات مشتعلة في كل مكان، وأُحرقت أكوري في ذلك اليوم. وكنا قد اقتربنا من شارع أوشينلي شرق البلدة عندما مرقت إلى جانبنا شاحنة عسكرية مليئة بجنود في زي القتال. لاحظ أحدهم أن صبيًا صغيرًا وراء عجلة قيادة سيارتنا، فلكز صديقه وأشار في اتجاهنا، لكن الشاحنة لم تتوقف. قاد إيكينا بسرعة ثابتة، ولم ينقل السرعة إلا عندما رأى مؤشر العداد الأحمر الشبيه بالساعة يصل إلى رقم كبير، مُقلدًا أبي حين يفعل ذلك في كل مرَّة يأخذنا فيها إلى المدرسة. اقتربنا من تخوم الطريق، سائرين بحذاء الرصيف، إلى أن قرأ بوجا لافتة «شارع أولواتويي»، وتحتها لافتة أخرى صغيرة مكتوب عليها «البنك المركزي النيجيري». عرفنا لحظتها أننا أصبحنا في أمان، ونجونا من انتفاضة انتخابات 1993 التي قُتل فيها أكثر من مائة شخص في أكوري.

أصبح الثاني عشر من يونيو يومًا مشهودًا في تاريخ نيجيريا. في كل عام، ومع اقتراب هذا اليوم، يبدو كأن زمرة من ألف جرَّاح غير مرئي، مسلحين حتى أخمص أقدامهم بالسكاكين، والمثاقيب المنشارية، والإبر، ومواد التخدير غير العادية، يأتون مع هبوب ريح الشمال ويستقرون في أكوري، ثم في الليل، بعد أن ينام الناس، يقومون بجراحة صدغية استئصالية مسعورة لأرواحهم في حركات سريعة غير مؤلمة، ثم يختفون عند الفجر قبل أن تبدأ تأثيرات الجراحة في الظهور. ويستيقظ الناس بأجساد مخضَّلة بالقلق، وقلوب نابضة بالخوف، ورؤوس مرتخية من ذكرى الفقد، وعيون يتقاطر منها الدمع، وشفاه مرتعشة بصلوات جليلة، وأجساد مرتجفة من الجزع. يصبحون جميعًا مثل رسوم مغبَّشة بالقلم الرصاص في كراس رسم مجعَّد لطفل، في انتظار أن تُمسح. في ذلك الوضع الكالح، تنسحب المدينة إلى الداخل مثل حلزون يشعر بالخطر. وعند أول ضوء معتم للفجر، يخرج مواليد الشمال من البلدة، وتُغلَق المتاجر، ويجتمع الناس في الكنائس لتأدية صلوات السلام، وقد أصبحت أكوري مثل عجوز واهنة كما هي العادة في ذلك الشهر بانتظار مرور اليوم.

***

أصاب تمزيق الصحيفة بوجا بصدمة هائلة، فلم يستطع أن يأكل. ومن جديد، قال لي أنا وأوبمبي لا بد من أحدٍ يُوقف إيكينا، وكررها مرَّات عديدة بعد ذلك: «لا يمكن أن يستمر هذا. إيكينا فقد عقله. لقد جُن».

في صباح الثلاثاء التالي، بعد أن كشرت الشمس عن أنيابها، كنت أنا وأوبمبي نائمين، وقد ظللنا نتبادل الحكايات حتى آخر الليل. انفتح باب غرفتنا بقوة، فاستيقظنا فجأة. كان بوجا. وقد نام في غرفة الجلوس، مكان مبيته منذ أولى معاركه مع إيكينا. دخل الغرفة باردًا ومكفهرًا، يحك كل جزء من جسده ويصر بأسنانه.

قال: «كاد البعوض أن يقتلني ليلة أمس. لقد تعبت مما يفعله بي إيكينا. تعبت حقًّا!».

كان صوته عاليًا جدًّا، حتى إنني خفت أن يسمعه إيكينا من غرفته. تسارعت دقات قلبي، ونظرت إلى أوبمبي، لكن عينيه كانتا على الباب. استشعرتُ أنه، مثلي، ينظر ليرى ماذا سيأتينا من خلف هذا الباب.

تابع بوجا: «أنا أكره عدم سماحه لي بدخول غرفتي. هل تتخيلان؟ لا يسمح لي بدخول غرفتي!». ضرب بيده على صدره في إشارة ملكية. «الغرفة التي أعطاها والدانا لنا نحن الاثنين».

خلع قميصه وأشار إلى المواضع على جلده، حيث يشعر بأنه قُرص. ومع أنه كان أقصر من إيكينا، فقد لحق به في البلوغ. ظهرت علامات نمو الشعر على صدره، وتشكَّلت شبكة من الشعر تحت إبطيه، وامتد ظل داكن من تحت سرته حتى داخل سرواله.

«هل الصالون سيِّئ إلى هذه الدرجة؟»، سألته في محاولة لتهدئته. لم أُرد أن يكمل حديثه لأنني خفت أن يسمعه إيكينا.

صرخ بصوت أعلى من ذي قبل: «سيِّئ جدًّا! أنا أكرهه على ذلك. أكرهه! لا أحد يستطيع أن ينام هناك!».

نظر أوبمبي إليَّ نظرة متحفظة، فلاحظتُ أنه، مثلي، يأكله الخوف. سقطت كلمات بوجا مثل صحن من الصيني، تفرقت شظاياه في كل مكان. وعرفت أنا وأوبمبي أن شيئًا سيحدث، وبدا أن بوجا عرف هو الآخر، حيث جلس ووضع يده على رأسه. وفي غضون دقائق، فُتح باب من داخل المنزل، مُطلقًا صريره بصوت عالٍ، ثم تعالى وقع أقدام، ودخل إيكينا الغرفة.

قال إيكينا بهدوء: «هل قلت إنك تكرهني؟».

لم يرد بوجا، وأبقى عينيه مثبتتين على النافذة. إيكينا، الذي بدا ملدوغًا، وقد رأيتُ دموعًا في عينيه، أغلق الباب برقة ومضى إلى داخل الغرفة، ثم رمى بوجا بنظرة احتقار أشبه برمح ثاقب، وخلع قميصه على عادة صبية البلدة وهم يستعدون للعراك.

«هل قلت ذلك أم لا؟»، صرخ إيكينا، لكنه لم ينتظر ردًّا، ودفع بوجا عن الكرسي.

أطلق بوجا صرخة، ونهض على قدميه على الفور وهو يلهث ويصرخ غاضبًا: «نعم، أكرهك يا إيكي. أكرهك!».

كلما تذكرت تلك الواقعة، توسلت إلى ذاكرتي لكي ترأف بحالي وتتوقف عند تلك النقطة، لكن من دون جدوى. أرى دائمًا إيكينا وهو يقف ساكنًا للحظة بعد أن نطق بوجا بتلك الكلمات، وشفتاه تتحركان لبرهة طويلة قبل أن تتشكَّل في النهاية كلمات: «أنت تكرهني يا بوجا». لكن إيكينا نطق بتلك الكلمات بقوة هائلة حتى إن وجهه بدا مشرقًا من الراحة. ابتسم، وأومأ برأسه، وأغمض عينيه طاردًا دمعة.

هز رأسه قائلًا: «كنت أعرف. كنت أعرف. فقط كنت أحمق طوال هذا الوقت. لهذا السبب رميت جواز سفري في البئر». ظهرت نظرة رعب على وجه بوجا عند سماع تلك الكلمات، وحاول أن يتكلم، لكن إيكينا تكلَّم بصوت أعلى، متحولًا من اليوروبا إلى الإغبو: «انتظر! لولا تلك الفعلة الخبيثة لكنتُ الآن في كندا، أعيش حياة أفضل». كان بوجا يشهق، كأن كل كلمة ينطقها إيكينا، وكل جملة كاملة، تلطمه. وينفتح فمه عن آخره، وتبدأ الكلمات في التشكُّل، قبل أن تُغرقها كلمة «انتظر!» أو «اسمع!» من إيكينا. وتابع إيكينا قائلًا إن أحلامًا غريبة أكدت له شكوكه أكثر، حيث رأى في أحدها بوجا وهو يطارده ببندقية. اختلج وجه بوجا لسماع ذلك، واحمرت وجنتاه بمزيد من الصدمة والعجز أمام ما يقوله إيكينا. «لذا، أعرف، وتشهد روحي كم تكرهني».

اندفع بوجا بقفزات إلى الباب راغبًا في المغادرة، لكنه توقف عندما تحدث إيكينا قائلًا: «لقد عرفت لحظة أن رأى أبولو تلك الرؤيا أنك أنت الصياد الذي يتكلم عنه. لا أحد غيرك».

وقف بوجا ساكنًا ينصت، ورأسه منكس كأنه يشعر بالعار.

قال إيكينا فجأة، وبقسوة: «لهذا لستُ مندهشًا وأنت تعترف الآن أنك تكرهني. لقد كرهتني دائمًا. لكنك لن تنجح».

اتجه إلى بوجا، ولطمه على وجهه، فسقط واصطدم رأسه بمكواة أوبمبي الموضوعة على الأرض، محدثًا رنينًا قويًّا، ثم أطلق بوجا صرخة ألم مدوية، وهو يضرب الأرض بقدمه ويصرخ. تراجع إيكينا، مهزوزًا، خطوة إلى الخلف كأنما يترنح على حافة هاوية، وعندما وصل إلى الباب، استدار وأطلق ساقيه للريح.

تقدَّم أوبمبي إلى بوجا فور مغادرة إيكينا الغرفة، ثم توقف فجأة وصرخ: «رباه!». في البداية، لم أرَ ما رآه إيكينا وأوبمبي، لكنني رأيته لحظتها: بركة الدماء التي تتكاثر على قمة المكواة وتقطر على الأرض.

ركض أوبمبي مفجوعًا إلى خارج الغرفة، وتبعتُه. وجدنا أمي في حديقتها في الباحة الخلفية، حيث كانت تمسك بجاروف وبعض حبات الطماطم في سلتها المجدولة من ألياف النخل، وتتحدث مع إيا إيابو، الجارة التي وشت بنا، فصحنا بأعلى صوت. عندما دخلَت أمي غرفتنا مع المرأة، أرعبهما المنظر. كان بوجا قد كف عن النحيب، وصار جسده ممددًا في سكون، ووجهه مخفيًّا بين يديه الداميتين، وجسده في حالة سكون غريبة كما لو كان ميتًا. وعندما رأته أمي

راقدًا في مكانه، انهارت وانفجرت في البكاء.

صاحت ماما إيابو: «هيا لنأخذه إلى عيادة كونلي بسرعة».

هرعت أمي، التي كانت مضطربة إلى أقصى حد، وارتدت بلوزة وتنورة طويلة، ثم رفعت بوجا على كتفها بمساعدة المرأة. ظل بوجا هادئًا، عيناه تحدقان في خواء، باكيًا بلا صوت.

قالت أمي للمرأة: «إن حدث له شيء، فماذا سيقول إيكينا؟ هل سيقول إنه قتل أخاه؟».

ردت إيا إيابو بسرعة: «**أولوهن ماجي!** حاشا لله! ماما إيكي، كيف تُدخلين شيئًا كهذا في عقلك بسبب مشاجرة؟ إنهم أولاد، وهذا شائع في سنهما. كُفي عن ذلك. هيا لنأخذه إلى العيادة».

فور أن غادرتا، انتبهتُ إلى الصوت المطَّرد لشيء يقطر على الأرض. نظرتُ فرأيت أنه بركة الدم. جلست في سريري، وقد صدمني ما رأته عيناي، لكن الذكرى التي كان إيكينا قد استحضرها هي التي أزعجتني. أتذكر تلك الواقعة، مع أني لم أكن قد تجاوزت الرابعة من عمري في ذلك الوقت. كان السيد بايو، صديق أبي في كندا، عائدًا إلى نيجيريا. ولما كان السيد بايو قد وعد بأن يأخذ إيكينا إلى كندا ليعيش معه عندما يرجع، فقد حصل لإيكينا على جواز سفر وتأشيرة دخول إلى كندا. وفي الصباح، حيث كان من المقرر أن يسافر إيكينا مع أبي إلى لاغوس، ليستقل الطائرة مع السيد بايو، لم يعثر إيكينا على جواز سفره. كان قد ترك الجواز في جيب الصدر داخل جاكيت السفر، وعلَّقه في خزانة الملابس التي يتقاسمها مع بوجا. لكنه لم يجده في ذلك الجاكيت. كانوا متأخرين، وبدأ أبي الثائر بحثًا محمومًا عن الجواز، لكنهم لم يجدوه. وخوفًا من أن تغادر الطائرة من دون إيكينا، إذ سيكون عليه أن يدخل في إجراءات جديدة للحصول على جواز ووثائق سفر من البداية، تصاعد غضب والدي. كاد أن يصفع إيكينا لإهماله عندما اعترف بوجا، وهو مختبئ خلف أمي لكيلا يضربه أبي، أنه سرق جواز السفر. سأله أبي لماذا؟ وأين هو؟ كان بوجا مرتعدًا وقال: «في البئر». ثم اعترف أنه رماه هناك في الليلة السابقة لأنه لم يرغب في فراق إيكينا.

اندفع أبي إلى البئر مذعورًا، وعندما نظر، رأى قطعًا من جواز السفر عائمة على سطح الماء، وقد مُزق وما عاد بالإمكان إصلاحه. وضع أبي يديه فوق رأسه، وراح يهتز. وكأنما استحوذت عليه روح فجأة، مد يده إلى شجرة اليوسفي، وكسر منها عصا، وركض عائدًا إلى البيت. كاد أن ينزل على بوجا بالعصا عندما تدخل إيكينا، وقال إنه اتفق مع بوجا على إلقاء الجواز في البئر لأنه لا يريد السفر من دونه، وإنهما سوف يسافران معًا عندما يكبران. ومع أنني فهمت لاحقًا، وفهم والدانا، أنها كانت كذبة، فقد تأثر أبي وقتها بما اعتبره إيكينا فعلًا من أفعال الحب، ذلك التصرف الذي أصبح يراه الآن، في لحظة التحول المسخي التي يمر بها، فعلًا من أفعال الكراهية القصوى.

عندما عادت أمي مع بوجا من العيادة في عصر ذلك اليوم، بدا أنه ابتعد أميالًا عن نفسه. كان الشاش الملوث بالدم، وتحته ضمادة من القطن، يغطي الجرح في مؤخرة رأسه. غاص قلبي عندما رأيته، وتساءلتُ عن حجم الدم الذي فقده، وارتجفتُ من الألم الذي لا بد أنه احتمله. حاولت أن أفهم ما حدث، وما يحدث، لكنني لم أستطع؛ كان استيعاب هذه الأشياء أمرًا مكلفًا.

ظلت أمي لبقية اليوم طريقًا ملغَّمًا ينفجر كلما اقترب أحدهم شبرًا منها. لاحقًا، وهي تحضر «الإيبا» للعشاء، شرعَت تناجي نفسها. راحت تشكو لأنها سألت أبي أن يطلب نقله مجددًا إلى أكوري أو أن ينقلنا إلى هناك معه، لكنه لم يفعل. والآن، راحت تولول، ها هم أطفاله يشجُّون رؤوس بعضهم بعضًا. وتابعَت أن إيكينا أصبح غريبًا عليها. كان فمها لا يزال يتحرك عندما وضعَت العشاء على الطاولة، فيما سحب كلٌّ منا كرسي المائدة الخشبي وجلس عليه. عندما وضعَت آخر مستلزمات العشاء، وهي وعاء غسل الأيدي، بدأت تنشج.

غرق البيت في الصمت والخوف في تلك الليلة. انسحبت أنا وأوبمبي إلى غرفتنا مبكرًا، وتبعَنا ديفيد، الذي خاف أن يقترب من أمي في حالتها المزاجية الخشنة تلك. وقبل أن أنام بوقت طويل، ظللت أنصت منتظرًا أي علامة على عودة إيكينا، لكنني لم أسمع شيئًا. مع ذلك، حتى وأنا أنتظر، كنت أتمنى سرًّا ألا يرجع إلى البيت حتى الصباح التالي. وكان

من بين أسباب خوفي، ثورة أمي، وما قد تفعله به إذا عاد في هذه الأجواء. والسبب الثاني كان خوفي مما أعلنه بوجا، عقب عودته من العيادة، أنه لم يعد يحتمل. قال، وهو يلعق قمة سبابته في إيماءة على القسم: «أتعهد بأنني لن أبتعد عن غرفتي بعد ذلك». ولكي ينفذ تهديده، ذهب لينام هناك. كنت خائفًا من احتمال أن يرجع إيكينا ويجده هناك، وملأني ذلك بهاجس عملاق أن ينتقم بوجا في يوم ما للإساءة الشديدة التي أُنزلت به. وبينما كان جسدي يستسلم للختام القوي لذلك اليوم، شرعت أفكر وأتساءل إلى أي مدى سَرَت سموم الحقد في عروق إيكينا، وإلى أين ستنتهي.

8

الجراد

الجرادات كانت طلائع.

اجتاحت أكوري ومعظم مناطق جنوب نيجيريا في بداية المواسم المطيرة. تلك الحشرات المجنحة، الصغيرة، الشبيهة بذبابات الصيد الصناعية، تنط خارج مسامات الأرض في غزو مفاجئ، وتحتشد كلما رأت نورًا، حيث يجذبها كالمغناطيس. يفرح أهالي أكوري عادةً بوصول الجراد، لأن المطر يشفي الأرض بعد مواسم الجفاف، حيث تسوم الشمس الوحشية الأرض سوء العذاب، بمساعدة رياح «الهرمتان». يشعل الأطفال اللمبات أو المصابيح، ويمسكون أوعية من الماء بقُربها، يصطادون فيها الحشرات ويجعلونها تطرح أجنحتها وتغرق في الماء. يتجمع الناس ويأكلون بقايا الجراد المحمص، فرحين بالمطر الوشيك. لكن المطر يهطل - غالبًا بعد يوم من غزو الجراد - مصحوبًا بعاصفة عنيفة، فيقتلع الأسقف، ويدمر البيوت، ويغرق الكثيرين، ويُحوِّل مدنًا بأكملها إلى أنهار غريبة، ويُحوِّل الجراد من بشير خير إلى نذير شر. هكذا كان المصير الذي جلبه الأسبوع التالي لإصابة رأس بوجا على أسرتنا، وعلى أهل أكوري، وعلى النيجيريين جميعًا.

كان أسبوعًا من شهر أغسطس، وصل فيه «فريق الأحلام» الأولمبي النيجيري إلى نهائيات كرة القدم للرجال. في الأسابيع السابقة على ذلك، كُتب اسم «تشيوما أجونوا» بحروف من نور في الأسواق والمدارس والمكاتب، بعد فوزها بالميدالية الذهبية باسم بلدنا المتداعي. وسيلعب الآن فريق الرجال مع الأرجنتين في النهائي، بعد أن هزم البرازيل في الدور نصف النهائي. عمَّت البلاد فرحة كبيرة، وبينما يلوح الجمهور بأعلام نيجيريا في الصيف القائظ في أتلانتا البعيدة، كانت أكوري تغرق في بطء. راحت أمطار ثقيلة، مدججة برياح شديدة تسببت في انقطاع الكهرباء وتركت البلدة في ظلام دامس، تنهمر عشية ليلة المباراة النهائية بين فريق الأحلام النيجيري والأرجنتين. استمرت الأمطار حتى صبيحة يوم المباراة في الثالث من أغسطس، ودكَّت السقوف المصنوعة من الصفيح والأسبستوس حتى غروب الشمس، إلى أن خفَّت حدتها ثم توقفت. لم يخرج أحد من بيته في ذلك اليوم، بمن فيهم إيكينا، الذي قضى أغلب اليوم حبيس غرفته، صامتًا، لا يرتفع صوته إلا ليغني مع اللحن المنبعث من جهاز الكاسيت المحمول الذي أصبح رفيقه الأساسي. كانت عزلته قد اكتملت بحلول ذلك الأسبوع.

واجهته أمي بعد الإصابة التي أوقعها ببوجا، وتحجج بأنه لم يخطئ لأن بوجا هدده أولًا. «كيف أظل هادئًا وأنا أرى صبيًّا صغيرًا مثله يهددني؟»، هكذا أصر، وهو يقف على عتبة غرفته حتى بعد أن طلبت منه أمي أن يجلسا ليتحدثا في غرفة الجلوس. وبعد أن قال ذلك انفجر في البكاء، ثم ركض، ربما خجلًا من بكائه، إلى داخل غرفته وأغلق الباب. قالت أمي يومها إنها أصبحت متأكدة **الآن** أن إيكينا فقد عقله، وإننا جميعًا يجب أن نتجنبه حتى يرجع أبي لكي يُعيد إليه عقله. لكن خوفي مما أصبح عليه إيكينا ظل يتنامى يومًا بعد يوم. أما بوجا، على الرغم من تهديده السابق بأنه لن يتنازل بعد الآن، فقد انصاع لتوجيهات أمي، وظل بعيدًا عن طريق إيكينا. كان قد برئ تمامًا من جرحه، ونُزع عنه اللاصق الطبي، كاشفًا عن حزٍّ مقوس محل الخياطة.

توقف المطر في تلك الأمسية، قبيل بداية المباراة. ومع اقترابها، اختفى إيكينا. انتظرنا جميعًا عودة الكهرباء في الوقت المناسب لنشاهد المباراة الحاسمة، لكنها ظلت مقطوعة حتى الثامنة مساء. ظللت طوال اليوم أنا وأوبمبي جالسين في غرفة الجلوس، نقرأ على ضوء السماء الرمادية الشاحب. كنت أقرأ كتابًا مثيرًا، تتكلم فيه الحيوانات، وتُسمى بأسماء بشرية، وكلها مستأنسة - كلاب، خنازير، دجاج، ماعز، إلى آخره. لم يكن الكتاب يحتوي على الحيوانات البرية التي أحبها، لكنني واصلت القراءة، وقد جذبتني الطريقة التي تتكلم بها الحيوانات وتفكر مثل البشر. كنت في منتصف الكتاب عندما تكلم بوجا، الذي جلس ساكنًا طوال الوقت، وقال لأمي إنه يريد الخروج لمشاهدة المباراة في «لا روم»،

وكانت أمي جالسة في غرفة الجلوس تلعب مع ديفيد ونكيم.

قالت أمي: «ألم يتأخر الوقت؟ هل يجب أن تشاهد المباراة؟».

«لا. لم يتأخر كثيرًا. سوف أذهب».

فكرَت قليلًا، ثم رفعت رأسها إلينا وقالت: «حسنًا، ولكن انتبهوا».

أخذنا المصباح اليدوي من غرفة أمي، وخرجنا إلى الشارع المظلم. في كل مكان كانت جيوب من البنايات مضاءة بمولدات تئز بضجيج، غامرة الحي بحشد من الضوضاء البيضاء. يعتقد الناس في أكوري على وجه العموم أن الأثرياء يرْشون فرع «الهيئة القومية للطاقة الكهربائية» لكي يقطع الكهرباء أثناء المباريات المهمة، مثل تلك المباراة، حتى يتربحوا من إعداد مراكز مشاهدة مرتجلة. وكان «لا روم» أحدث فندق في المنطقة، عبارة عن مبنى من أربعة طوابق، محاط بسور عالٍ مزود بأسلاك شائكة. في الليل، حتى في وجود الكهرباء، كانت لمبات الفلورسنت الساطعة الممتدة من داخل جدرانه تضيء شريطًا حول محيطه ببِركة من النور. قام مسؤولو «لا روم» في تلك الليلة، كما في معظم الليالي التي تنقطع فيها الكهرباء، بتحويل صالة الاستقبال إلى مركز مشاهدة مرتجل، وعُلقت لوحة كبيرة خارج الفندق لاجتذاب الناس، لُصق عليها الشعار الملون لدورة الألعاب الأولمبية، وكُتب عليه: «أتلانتا 1996». كانت الصالة مزدحمة عندما وصلنا إليها، والناس في جميع أرجاء الصالة، في أوضاع مختلفة، يحاولون التقاط نظرة من شاشتي التلفزيون - قياس أربع عشرة بوصة - المتواجهتين على طاولتين مرتفعتين. احتل المشاهدون الذين وصلوا مبكرًا الكراسي البلاستيكية الأقرب للشاشتين، وتجمَّع حشد متزايد حولهم، متفرجًا.

عثر بوجا على بقعة يستطيع من خلالها أن يحظى بلمحة من إحدى شاشتي التلفزيون، فتسلل بين رَجلين، تاركًا إياي وأوبمبي، لكن نحن أيضًا عثرنا في النهاية على بقعة نستطيع من خلالها أن نحظى برؤية متقطعة إذا انحنينا إلى اليسار عبر مساحة صغيرة بين رَجلين كان حذاءاهما نتنين مثل لحم خنزير عفن. انغمست أنا وأوبمبي بعدها في المشاهدة لمدة خمس عشرة دقيقة أو نحو ذلك، في بحر خانق ومثير للغثيان من الأجساد التي تنبعث منها أقوى الروائح البشرية. كان هناك رجل ينضح برائحة الشمع، وثانٍ برائحة الملابس القديمة، وثالث باللحم والدم الحيوانيين، ورابع بالطلاء الجاف، وخامس بالبنزين، وسادس بالصفائح المعدنية. همستُ في أذن أوبمبي أنني أريد العودة إلى البيت عندما تعبت من تغطية أنفي بيدي.

«لماذا؟»، سألني مندهشًا، مع أنه هو الآخر توجس خيفة من الرجل ذي الرأس الكبير خلفنا، والأرجح أنه أراد المغادرة أيضًا. كانت للرجل عينان تحدقان إلى الداخل، وتنظر كل منهما إلى الأخرى، مثل تلك العيون التي تُسمى «عيون الساعة الرابعة والرُّبع». خاف أوبمبي من هذا الرجل القبيح الذي يُشبه الوطواط لأنه نبح فينا «لنقف ثابتين»، ودفع رأس أوبمبي بوقاحة بيديه القذرتين.

قال هامسًا، وهو يختلس نظرات إلى الرجل من زاوية عينيه: «لا يجب أن نغادر؛ إيكينا وبوجا هنا».

رددت هامسًا: «أين؟».

صمت لحظة، ثم أحنى رأسه إلى الخلف ببطء حتى أصبح قادرًا على الهمس: «إنه جالس في المقدمة، لقد رأيتُ...». لكن صوته انجرف بعيدًا مع الهدير المفاجئ الذي دوَّى. هتفت صيحات مسعورة: «أمونيكي!» «هدف!»، وشقت الهواء، مغرقة القاعة في جلبة من الابتهاج. ارتطم مرفق زميل الرجل الوطواط برأس أوبمبي وهو يرفرف بذراعيه في الهواء، ويصيح. أطلق أوبمبي صرخة ابتلعها العويل المهتاج، فبدا كأنه يبتهج مع الرجال، ثم سقط في اتجاهي، منثنيًا من الألم، والرجل الذي ضربه لم يلاحظه، بل واصل الصياح.

قلت لأوبمبي: «لا بأس يا أوبي» عشرات المرَّات، ثم قلت له: «لنرجع إلى البيت. هذا المكان سيِّئ». لكنني شعرت أن ذلك قد لا يقنعه، فقلت ما تقوله أمي عادةً عندما نصر على الخروج لمشاهدة مباراة لكرة القدم: «لا يجب أن نشاهد هذه المباراة، ففي النهاية إذا فاز اللاعبون لن يتقاسموا معنا مكافأتهم».

نجحت هذه الحجة، وأومأ برأسه موافقًا وهو يمسح دموعه. استطعت أن أشق طريقي، ووضعت يدي على كتف بوجا حيث يقف محشورًا بين صبيين أكبر سنًّا.

سألني متعجلًا: «ماذا؟».

«سنذهب».

«لماذا؟».

لم أرد.

سألني ثانية، متلهفًا على إعادة عينيه إلى الشاشة: «لماذا؟».

قلت: «لا شيء».

قال وهو يستدير بسرعة عائدًا إلى التلفزيون: «حسنًا، أراك لاحقًا».

طلب أومبي المصباح اليدوي، لكن بوجا لم يسمع طلبه.

قلت وأنا أصارع للمرور بين رجلين طويلين: «لن نحتاج إلى المصباح. نستطيع أن نسير ببطء، وسنصل إلى البيت بسلام بفضل الرب».

خرجنا، وهو يضع يده على المكان الذي لكزه فيه الرجل، يتحسسه ليرى إن كان قد تورم. كانت ليلة ظلامها دامس، حتى إننا لم نرَ إلا على ضوء السيارات والدراجات النارية القليلة جدًّا التي تمر من حين إلى آخر على الطريق، فالجميع انشغلوا بمشاهدة المباراة الأولمبية.

«ذلك الرجل حيوان متوحش، إنه لم يبالِ أو يعتذر»، قلتها وأنا أجاهد رغبة متزايدة في البكاء. شعرت بألم أومبي كما يشعر هو به، واجتاحتني رغبة في البكاء.

عندها قال أومبي: «ششششش».

سحبني إلى ناصية قريبة من كشك خشبي. لم أرَ شيئًا في البداية، ثم رأيت ما رآه. كان أبولو المجنون واقفًا هناك بجانب نخلة أمام بوابة بيتنا. فاجأني المنظر، فبدا لي غير حقيقي لأول وهلة. لم أره منذ قابلناه عند «أومي-ألا»، لكنه في الأيام والأسابيع التي تلت ذلك، ملأ حياتي وحياتنا تدريجيًّا، ملئًا غيابيًّا - أو ربما عن بُعد، بوجوده المفجع. سمعت قصته في الماضي ولم أره، وحذروني منه، فدعوت عليه. مع ذلك، ومن دون أن أعرف، كنت أنتظره وأرغب في رؤيته. ها هو الآن يقف أمام بوابتنا، يحدق في بيتنا بإصرار، لكن لا يبدو أنه يريد دخوله. ظللت أنا وأومبي واقفين مكاننا نراقبه وهو يومئ ويحرك يده في الهواء كأنه في حوار مع شخص لا يراه سواه. استدار فجأة، وسار في اتجاهنا، هامسًا بشيء ما وهو يتحرك. وعندما مر بنا، سمعته - بين الأنفاس المخنوقة - يهمس بشيء ظننت أن أومبي أيضًا ميَّزه جيدًا؛ إذ قبض على يدي وسحبني بعيدًا عن طريق المجنون. ظللت أراقبه لاهثًا، وهو يمضي بعيدًا في الظلام الممتد. تمدد ظلٌّ له صنعته المصابيح الأمامية لشاحنة جارنا للحظة على الشارع، ثم اختفى مع اقتراب الشاحنة.

سألني أومبي عندما غاب عن أنظارنا: «هل سمعت ما يقوله؟».

هززت رأسي.

همس: «ألم تسمع؟».

وحين كنت على وشك الإجابة، تهادى أمامنا رجل يحمل طفلًا على كتفيه، وكان الطفل يدمدم إيقاعًا بطيئًا:

ابعد ابعد يا مطر
وانزل في يوم آخر
دع الصغار يلعبون

وفور ابتعادهما، سألني أومبي ثانية.

هززت رأسي، في إشارة إلى أنني لم أسمع، لكني كذبت؛ فمع أن الكلمة لم تكن واضحة، إلا أني سمعت أبولو يكررها عند مروره بنا. قالها كما نطقها في ذلك اليوم الذي بدأت فيه نهاية سلامنا: «**إيبكينه**».

***

اكتسحت نيجيريا فرحة ملتبسة، انتشرت من المساء إلى الصباح، كما ينهمر الجراد في الليل ويختفي بشروق الشمس، مخلفًا أجنحته متناثرة في أرجاء البلدة. ابتهجت أنا وأوبمبي وبوجا طوال الليل، وظللنا ننصت فيما كان بوجا يُعلِّق على المباراة دقيقة بدقيقة، كأنها فيلم سينمائي، هكذا، راوغ «جي-جي أوكوتشا» الخصوم كما ينقذ سوبرمان المختطفين، و«إيمانويل أمونيكي» سدد قذيفة في المرمى مثل «باور رينجرز». تدخلت أمي في منتصف الليل تقريبًا، وأصرت على أن نذهب إلى الفراش. عندما نمت في آخر الأمر، راودني مليون حلم، وظللت نائمًا حتى وقت متأخر من الصباح، حتى لكزني أوبمبي بقوة وهو يصرخ: «استيقظ! استيقظ يا بِنْ! إنهما يتعاركان!».

سألت مرتبكًا: «مَن؟ ماذا؟».

قال مضطربًا: «إنهما يتعاركان. إيكينا وبوجا. إنه شجار جاد. تعال».

تحرك في شعاع النور مثل فراشة مشوشة، واستدار ليراني ما زلت في الفراش، فصاح: «اسمع، اسمع، إنها معركة حامية. تعال!».

قبل أن يوقظني أوبمبي بوقت طويل، استيقظ بوجا، وهو يسب ويلعن. كانت الشاحنة المتهالكة الخاصة بآل أغباتي، جيراننا الملاصقين لنا، قد مزَّقت الطبقة الرقيقة التي تفصل عالم الحلم عن عالم اللاوعي بهدير متقطع: «**فرووم! فروووممم! فروووممممم!**». أيقظته الشاحنة، مع أنه كان ينوي منذ المساء أن يستيقظ مبكرًا حتى يتمكن من التمرن على ضرب الطبول مع بقية الأولاد في كنيستنا. اغتسل ثم تناول نصيبه من الخبز والزبدة الذي تركته لنا أمي قبل أن تذهب إلى متجرها مع ديفيد ونكيم، وكان عليه أن ينتظر ليغير ملابسه ويرتدي قميصًا وبنطالًا جديدين، لأن أغراضه لا تزال في خزانة ملابسه في الغرفة التي يتقاسمها مع إيكينا ولا ينام فيها. توسلت أمي، مربية الصقور، إليه مرارًا لكي ينتقل بأغراضه كاملةً إلى غرفتي أنا وأوبمبي، قائلة: «**ها بو لو إيكوينسو أولو يا** - اترك الشيطان في وكره»، لكن بوجا لم يستجب لها. قال إن الغرفة غرفته كما هي غرفة إيكينا، وإنه لن يغادرها. ولأنهما، هو وإيكينا، لا يتحدثان، كان على بوجا عادةً أن ينتظر حتى يستيقظ إيكينا ويفتح قفل الباب فلا يضطر إلى أن يطلب من إيكينا فتحه. ظل إيكينا في الخارج معظم الليلة السابقة للمشاركة في احتفالات الشارع الصاخبة التي اجتاحت نيجيريا، وبقي في غرفته حتى الظهيرة تقريبًا. سيخبرني أوبمبي وحدي بعد وقت طويل، أن إيكينا عاد إلى البيت ليلتها سكران، وأنه شم رائحة كحول قوية تنبعث منه عندما أدخله من شباك غرفتنا، حيث أوصدت أمي الباب الرئيسي والبوابة في منتصف الليل.

انتظر بوجا متململًا والغضب يعتمل بداخله. ومع اقتراب الساعة من الحادية عشرة، نفد صبره، فذهب إلى الباب وطرقه بهدوء أولًا، ثم بشدة. قال أوبمبي إن بوجا بعدما شعر بالإحباط ضغط أذنه على الباب كأنه بيت شخص غريب، واستدار إليه كمن ضربته صاعقة، وقال: «لا أسمع أي إشارة على الحياة. هل أنت متأكد أن إيكينا لا يزال حيًّا؟».

قال أوبمبي إن بوجا سأل ذلك السؤال بقلق حقيقي، وهو خائف من أن يكون مكروه قد أصاب إيكينا. ثم تنصَّت بوجا من جديد ليسمع أي إشارة على الحياة، قبل أن يشرع في الطرق ثانية، بقوة أكبر هذه المرَّة، وهو ينادي على إيكينا أن يفتح الباب.

عندما لم يأتِ رد، بدأ بوجا يخبط الباب بجسده بشدة. ثم توقف وتراجع إلى الخلف، وعيناه مليئتان براحة وخوف جديد.

دمدم لأوبمبي وهو يبتعد عن الباب: «إنه بالداخل. لقد سمعت حركة الآن. إنه حي».

هدر إيكينا من داخل الغرفة: «مَن المجنون الذي يقلق راحتي؟».

لم يرد بوجا في البداية، ثم صرخ: «إيكينا، أنت المجنون لا أنا. أفضل لك أن تفتح الباب حالًا، الغرفة غرفتي أنا أيضًا».

بخطى متسارعة، وفي لحظة خاطفة، وجدنا إيكينا خارج الغرفة. خرج بسرعة شديدة حتى إن بوجا لم يرَ الضربة وهي قادمة، ولم يشعر بنفسه إلا وهو على الأرض.

قال إيكينا، بينما كان بوجا يحاول النهوض على قدميه ثانية: «لقد سمعت كل ما قلته عني. سمعت كل شيء. كيف تقول إنني ميت ولست حيًّا. أنت، يا بوجا، بعد كل ما فعلته لك، تتمنى لي الموت، أليس كذلك؟ وفوق كل هذا تقول إنني مجنون؟ أنا؟ سوف أريك اليوم...».

كان لا يزال يتكلم عندما وجَّه إليه بوجا، بسرعة البرق، ضربة مقصية بساقه، أطاحت به، فاصطدم بالباب واندفع إلى داخل الغرفة. هبَّ بوجا ناهضًا فيما كان إيكينا، وقد كشَّر من فرط الألم، يسب ويلعن.

قال بوجا من فوق عتبة الباب الرئيسي: «أنا جاهز لك أيضًا. إذا كان هذا ما تريده، هيا نخرج إلى الباحة الخلفية حتى لا نحطم شيئًا في البيت، ولكيلا تعرف ماما ماذا حدث».

بعد أن قال ذلك، اندفع خارجًا إلى الباحة الخلفية، حيث البئر والحديقة، وتبعه إيكينا.

***

أول ما رأيته عندما وصلت إلى الباحة الخلفية مع أوبمبي، كان بوجا وهو ينحني محاولًا تفادي ضربة من قبضة إيكينا المضمومة، لكنه فشل ونزلت الضربة على صدره فدفعَته إلى الخلف متعثرًا. وفيما كان بوجا يتوازن على قدميه، دفعه إيكينا إلى الأرض بساقه، ثم تبعه إلى الأرض، واشتبكا كمصارعين بالأيدي العارية. كنت مأخوذًا برعب لا يوصف، وظللت أنا وأوبمبي مسمَّرين من الخوف عند الباب، عاجزين عن الحركة، نتوسل إليهما أن يتوقفا.

لم يعبآ بنا، وسرعان ما شتَّتت انتباهنا قسوة الضربات، وأذهلتنا السرعة الوحشية لسيقانهما وهي تلتف حول بعضها. سمعت أوبمبي يصرخ كلما نزلت ضربة على أحدهما، ويشهق عندما يصرخ أيٌّ منهما في ألم. لم أحتمل المنظر أنا أيضًا، وكنت أغمض عينيَّ أحيانًا عندما يقوم أحدهما بحركة عنيفة، وأفتحهما عندما تكتمل الحركة، وقلبي يضرب بعنف. راح أوبمبي يتوسل ثانية عندما بدأ بوجا ينزف من جرح فوق عينه اليمنى، لكن إيكينا زجره بعنف.

زمجر، وهو يبصق على التراب: «اخرس. إذا لم تخرسا الآن سوف تلحقان به. حمقى. ألم تسمعا كيف تكلم معي؟ الحق ليس عليَّ. هو من بدأ، وهو...».

قطع بوجا كلامه بلكمة عنيفة في ظهره، وحاول الإمساك بوسط إيكينا، فسقطا على الأرض، مثيرين سحابة من التراب. ظلَّا يتعاركان بعنف غير معتاد بين الإخوة في سنِّهما. كان إيكينا يلكم بقوة أكبر بكثير من قوته مع الصبي الذي يبيع الدجاج في سوق إيسولو بعد أن شتم أمنا وقال عنها **أشيوو** - عاهرة، لأنها رفضت أن تشتري دجاجته قُبيل احتفالات عيد الميلاد. هتفنا له ومعنا أمي، التي تكره كل أشكال العنف، وبعد أن نهض الصبي على قدميه، والتقط قفص دواجنه المشغول من جريد النخل وولى الأدبار. قالت إن الصبي يستحق الضرب. كانت ضربات إيكينا هذه المرَّة أشد بكثير، وأثقل وأقوى بكثير من أي وقت مضى. ركل بوجا أيضًا، ولكم بجرأة أكبر مما فعل عندما تعارك مع الصبية الذين هددوا بمنعنا من الصيد عند «أومي-ألا» في أحد أيام السبت. كان هذا الشجار مختلفًا، كأن أيديهما خضعت لقوة تتملك كل جزء من وجودهما، وصولًا إلى أصغر خلية بلازميَّة في دمائهما، وربما كانت تلك القوة - وليس كياناهما الواعيان - هي التي جعلتهما يتعاملان بهذه القسوة، كلٌّ ضد أخيه. وبينما أراقب عراكهما، استحوذ عليَّ هاجس أن الأمور لن تبقى على حالها بعد ذلك. هالني أن رأيت كل ضربة محملة بقوة تدمير جبارة لا يمكن صدها أو احتواؤها أو ردها. وإذ استحوذت تلك الأحاسيس عليَّ، ظل عقلي - مثل زوبعة تجمع التراب في مركزها - يدور في حلقات مجنونة من الأفكار المسعورة، وأكثرها تسلطًا تلك الفكرة الغريبة وغير المعهودة التي سيطرت على ما عداها من أفكار: فكرة الموت.

كسر إيكينا أنف بوجا، فانبجس الدم في دفقات، وقطر من فكه على التراب. غاص بوجا إلى الأرض في ألم واضح، وهو يبكي ويجفف أنفه بالأسمال التي تحول إليها قميصه. شرعت أنا وأوبمبي في البكاء عندما رأينا أنف بوجا الدامي. عرفتُ منذ البداية أن الشجار سيطول، وسوف يثأر بوجا لهذه الضربة الرهيبة، لأنه لم يكن جبانًا قَطُّ. عندما رأيته يزحف في

اتجاه الحديقة، في محاولة للنهوض، راودتني فكرة، فاستدرتُ إلى أوبمبي وقلت له إننا يجب أن نأتي بشخص بالغ ليفصل بينهما.

«نعم»، وافقني، والدموع تسيل على خديه.

اندفعنا على الفور إلى البيت المجاور، لكننا رأينا قفلًا على البوابة. نسينا أن الأسرة سافرت خارج البلدة قبل يومين ولن ترجع حتى المساء. انطلقنا من هناك، فرأينا راعي كنيستنا القس كولينز يمر من أمامنا بشاحنته. لوَّحنا له باهتياج، لكنه لم يرنا. واصل المسير، وهو يتمايل برأسه على أنغام موسيقى ما في «ستيريو» سيارته. قفزنا فوق مصرف مفتوح، رأينا فيه ثعبانًا ميتًا ملتفًّا حول نفسه، بدا من حجمه الكبير أنه أصلة، وقد سحقتها الأحجار والمقذوفات.

عثرنا في النهاية على السيد بودي، ميكانيكي السيارات، الذي يعيش على بُعد ثلاثة شوارع من بيتنا في سلسلة من بيوت البنغالو ذات الطابق الواحد بلا ملاط ولا دهان. كانت بناية نصف مكتملة مكونة من قطع من الخشب وأكوام رمال متناثرة. بدا السيد بودي في مظهر عسكري: قامة طويلة، وذراعان بعضلات مفتولة، ووجه كالح مثل لحاء شجرة إيروكو منخورة. عاد لتوه من ورشته ليريح نفسه في المرحاض الذي يتقاسمه مع بقية سكان الحجرات الخمس من البيت ذي الطابق الواحد. كان بنطاله لا يزال مفتوحًا، وسرواله الداخلي مرفوع حتى وسطه وهو يغسل يديه عند صنبور طويل الرقبة منتصب من الأرض بقرب الجدار، ويدندن لحنًا ما.

حيَّاه أوبمبي: «مساء الخير يا سيدي».

رد، وهو يرفع رأسه لينظر إلينا: «أهلًا يا أولاد. كيف حالكم؟».

رددنا في صوت واحد: «نحن بخير يا سيدي».

سألنا، وهو يمسح يديه ببنطاله الأسود من أثر السناج وزيت السيارات: «ما الأمر يا أولاد؟».

أجاب أوبمبي: «سيدي، شقيقانا يتعاركان ونحن... نحن...».

رأيت أوبمبي عاجزًا عن المتابعة فقلت: «إنهما ينزفان، **إيجي تي أو بو** - دمًا كثيرًا. أرجوك تعالَ وساعدنا».

انقبض وجه الرجل وهو يحدق في وجهينا الباكيين وكأنه أصيب بسكتة مفاجئة. ثم قال، وهو يحرك يديه المبللتين ليجففهما: «ما هذا الذي تقولان؟ لماذا يتعاركان؟».

كان أوبمبي سريع البديهة في رده: «لا نعرف يا سيدي. أرجوك تعالَ معنا».

قال السيد بودي: «هيا بنا».

اندفع عائدًا إلى المنزل كأنه سيجلب شيئًا، لكنه توقف وأشار إلى الأمام قائلًا: «هيا بنا». شرعت أنا وأوبمبي في الجري عندما خرجنا إلى الطريق، لكننا توقفنا حتى يستطيع السيد بودي اللحاق بنا.

توسلت إليه قائلًا: «يجب أن تسرع يا سيدي».

عندما سمع السيد بودي ذلك، بدأ يجري بدوره، حافي القدمين. بالقرب من البيت، وجدنا امرأتين تسدان حافة الرصيف، ترتديان ثوبين ملطخين بالسناج، وكلٌّ منهما تحمل شوالًا مليئًا بالذرة فوق رأسها. اندفع أوبمبي ليمر بجوار إحداهما فسقطت حبات صغيرة من فتحة في الشوال، وأطلقت المرأة سبابًا ونحن ننطلق بعيدًا.

أول ما رأيناه عندما وصلنا إلى بيتنا كان العنزة الحبلى ذات البطن المنتفخة والضروع المتهدلة، التي يمتلكها جيراننا. رأيناها جاثمة إلى جوار البوابة، تثغو ولسانها متدلٍّ من فمها مثل شريط لاصق وقد انفك من بَكرته. في كل مكان حول جسدها الداكن والثقيل والعطن كانت ثمة قرون صغيرة من برازها، بعضها مجروش إلى عجينة بُنيَّة تشبه الصديد، والبعض الآخر متخثر في ثنائيات، وثلاثيات، وقرون متعددة. الصوت الوحيد الذي استطعت سماعه من البيت كان صوت «**هويي، هويي**» الصادر من تنفس العنزة الثقيل. ركضنا إلى الباحة الخلفية، لكن ما رأيناه هو قطعٌ من الأسمال مما كانت ملابسهما، وبقع الدم ترسم خطوطًا على التراب، وصفحة من التراب الثقيل شوَّهت وجهها آثار أقدامهما. كان من المستحيل أن نتخيل أنهما أنهيا العراك من دون وساطة. فأين ذهبا؟ ومَن الذي تدخل بينهما؟

سأل السيد بودي متحيرًا: «أين كانا يتعاركان؟».

رد أوبمبي وهو يشير إلى التراب، والدموع تتراكم في عينيه: «هنا، في هذه البقعة».

«هل أنت متأكد؟».

قال أوبمبي: «نعم يا سيدي، هنا، هنا بالضبط تركناهما. هنا». نظر إليَّ السيد بودي، فقلت: «هنا، كانا يتعاركان هنا. هل ترى الدم؟». أشرت إلى البقعة التي اختلط فيها الدم بالتراب فتلبَّكا، وإلى بقعة أخرى حيث أثر رطب مستدير داكن اللون، على شكل عين نصف مغمضة.

قال السيد بودي مرتبكًا: «إذن، أين ذهبا؟». نظر حوله ثانية، وأثناء ذلك مسحتُ عينيَّ وتمخطتُ في التراب. حلَّقت حمامة على ارتفاع منخفض، وحطت على السور إلى جوار يدي اليمنى وهي ترفرف بجناحيها بسرعة، ثم قفزت كأن خطرًا داهمها، وحلَّقت فوق البئر إلى السور. رفعتُ عينيَّ لأرى إن كان جد إغبافي لا يزال حيث رأيته جالسًا أثناء الشجار، لكنه لم يعد هناك هو الآخر. رأيت فقط كوبًا من البلاستيك على الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه.

سمعت السيد بودي يقول: «حسنًا، دعونا ندخل إلى المنزل لنرى. خيرًا إن شاء الله. هيا بنا. ربما توقفا عن العراك وعادا إلى الداخل».

أومأ أوبمبي برأسه وتقدَّم، وظللت أنا في الباحة الخلفية. جاءت العنزة تهدج في اتجاهي، وتثغو. قمت بحركة لأُبعدها، لكنها لم تتوقف، ورفعَت رأسها ذا القرنين، وثَغت مثل كائن غير ناطق يحاول، وقد شهد شيئًا فظيعًا، أن يستجمع كل قوته ليُخرج كلامًا مفهومًا يحكي به ما حدث. لكن حتى مع جهدها الكبير، لم تستطع أن تخرج إلا بثغاء يصم الآذان: «**ممبرييييهيهيييه!**»، ثغاء، حين أتذكره الآن، أعرف أنه كان استعطافًا باللغة الجديانية.

تركتُ العنزة وتوجهتُ إلى الحديقة. دخل أوبمبي والسيد بودي إلى البيت، وهما يناديان على شقيقيَّ. كنت أشق طريقي عبر رؤوس الذرة التي بدأت تترعرع في مطر أغسطس الناعم، ووصلتُ تقريبًا إلى نهايتها، حيث تقبع ألواح الأسبستوس القديمة مكومة بجوار الحائط، فسمعتُ صيحة حادة من اتجاه مطبخنا. وعلى الفور، اندفعت بجنون إلى ذلك الاتجاه، فوجدت المطبخ مقلوبًا.

كانت نوافذ الأرفف العلوية مفتوحة، وبداخلها زجاجات «هورليكس» فارغة، وعلبة «كسترد» صفراء، وصفائح قهوة قديمة، مصفوفة بعضها فوق بعض. وإلى جوار الباب كرسي المطبخ البلاستيكي الخاص بأمي، مُلقى، ومكسور الذراع، وأرجله السوداء بلون السناج مرفوعة إلى أعلى. رأيت بركة من زيت النخيل المحمر ترسم خريطة على قمة اللوح المجاور للمغسلة المليئة بالصحون المتسخة، وتقطر من حافته على الأرض، والبرميل الأزرق الذي يُخزَّن فيه الزيت صار مُلقى فوق الأرض على جنبه، وبداخله ثمالة مسودة اللون هي كل ما تبقى من الزيت، وشوكة الطعام ملقاة مثل السمكة الميتة، ساكنة في بركة الزيت الأحمر.

لم يكن أوبمبي وحيدًا في المطبخ، كان السيد بودي واقفًا معه يصر على أسنانه، ويداه على رأسه. وكان هناك شخص ثالث، أشبه بمخلوق أقل من السمك والشراغف التي اصطدناها عند «أومي-ألا». كان ذلك الشخص طريحًا في مواجهة الثلاجة، وعيناه المفتوحتان على آخرهما مثبتتان في مكان واحد لا تستطيعان رؤية شيء، ولسانه متدلٍّ خارج فمه الذي ينساب منه زَبَد أبيض على الأرضية، ويداه مفرودتان على الجانبين كأنهما مسمَّرتان على صليب غير مرئي، وفي بطنه غُرس سكين المطبخ الخاص بأمي بنصله الحاد حتى منتصف طرفه الخشبي، وتشبعت الأرض بدمه: دم حي، متحرك، راح ينساب ببطء أسفل الثلاجة، ويتصل على نحو خارق - مثل نهري «النيجر» و«بينو» اللذين أنجب التقاؤهما في «لوكوجا» أمَّة موحلة ومحطمة - بزيت النخيل، مشكلًا بقعة غريبة من الأحمر والأبيض، مثل نُقَر المياه التي تتراكم في الفجوات الصغيرة على الطرق الترابية. مشهد تلك البقعة جعل أوبمبي، كأنما سكنه عفريت ثرثار، يردد لازمة بشفتين مرتعشتين: «نهر أحمر، نهر أحمر، نهر أحمر».

هذا كل ما استطاع فعله، حيث كان الصقر قد أقلع، منزلقًا على تيار ساخن، وصار بعيدًا عن متناول اليد. كل ما

كان هناك كانت له علاقة بالصراخ والنحيب، ثم الصراخ والنحيب.

تجمدتُ بلا حراك، مثل أومبي، عندما رأيت المنظر، وظللت أصرخ بالاسم، لكن لساني ضاع في لسان أبولو، فخرج الاسم من فمي مشوهًا، ومشققًا، وجريحًا، ومقطوعًا من الداخل، وميتًا، ومتلاشيًا: **إيبكينه!**

9

العصفور

إيكينا كان عصفورًا.

شيء له جناحان، قادر على الطيران بعيدًا عن الأنظار في غمضة عين. كانت حياته قد انتهت بالفعل عند عودتنا أنا وأوبمبي إلى البيت مع السيد بودي، وما وجدناه على الأرض وسط بركة من الدماء كان جسده الفارغ، والدامي، والشائه. وبعد وقت لم يطل من عثورنا عليه، اختفى في سيارة إسعاف تابعة للمستشفى العام، ثم عاد إلى بيتنا بعد أربعة أيام في نعش خشبي محمول على شاحنة. كنت أنا وأوبمبي عاجزين عن رؤيته ساعتها. التقطنا فقط تلميحات عن «جثمانه الذي صار في النعش». ابتلعنا الكلمات الكثيرة التي قالها لنا الناس لمواساتنا مثل حبات دواء مُرة قادرة على مداواتنا: «**إيغو، إيما سي سوكون مو، أوما ما آدا** - لا تبكيا، ستكون الأمور على ما يرام». لم يذكروا لنا أن إيكينا أصبح مسافرًا بين ليلة وضحاها، مسافرًا فضوليًا يرتحل خارجًا من جسده، تاركًا البقية من ذاته ممددة خاوية مثل شطري قشرة جوز جُمعا معًا بعد استخراج الحبَّة. ومع أنني عرفت أنه مات، فالأمر فاق احتمالي في ذلك الوقت. ومع أنه كان في سيارة الإسعاف أمام المنزل، فقد كان من الصعب تخيل أنه لن ينهض ويدخل البيت ثانية أبدًا.

عرف أبي أيضًا، فعاد بعد يومين من موت إيكينا. كانت السماء تمطر رذاذًا، وكان الجو رطبًا وباردًا إلى حدٍّ ما. رأيت سيارته تدخل ساحة البيت عبر القوس الذي تشكَّل بمسح طبقة الضباب عن خِصاص شباك غرفة الجلوس حيث قضيت الليلة. كانت أول زيارة له منذ الصباح الذي أطلق علينا فيه اسم صياديه. عاد بكل أغراضه، من دون نية لمعاودة الرحيل. كان قد حاول مرارًا، من دون جدوى، الحصول على تصريح لمغادرة الدورة التدريبية المستمرة ثلاثة أشهر في غانا لبضعة أيام لكي يزور أكوري، عندما بدأت أمي تخبره عن التغير الذي طرأ على سلوك إيكينا. وعندما أجرت أمي تلك المكالمة التعسة بعد ساعات من العثور على إيكينا ميتًا، وهي المكالمة التي لم تستطع فيها أن تقول إلا كلمات: «إيمي، إيكينا **أنااااا!**» قبل أن ترتمي على الأرض مجددًا، خطَّ أبي خطاب استقالته بسرعة وأرسله إلى زميل له في مركز الدورة التدريبية في غانا. بعد عودته إلى نيجيريا، استقل حافلة ليلية إلى يولا، وحزم أغراضه في سيارته، وقادها عائدًا إلى أكوري.

دُفن إيكينا بعد عودة أبي بأربعة أيام، بينما كان مكان بوجا لا يزال غير معلوم. ومع أن أخبار المأساة انتشرت في أرجاء المنطقة، وكان الجيران يتوافدون على بيتنا ليخبرونا بما سمعوه أو رأوه، لم يكن أحد يعرف مكانه. قالت جارة لنا، وهي امرأة حبلى تعيش في أحد البيوت المواجهة لنا على الجانب الآخر من الطريق، إنها سمعت صيحة عالية في الوقت الذي تُوفِّي فيه إيكينا تقريبًا، صيحة أيقظتها من النوم. بينما سمع آخر، وهو طالب دكتوراه جامعي يناديه الجميع باسم «بروف» - شخص قلَّما يُشاهَد، ولا يجلس في بيته تقريبًا؛ ذلك البنغالو الصغير المكون من غرفة نوم واحدة إلى جوار بيت إغبافي - وهو يدرس، صوت خبطة شيء معدني في ذلك الوقت تقريبًا. لكن أم إغبافي - وقد نقلت القصة عن والدها، جد إغبافي - هي التي أعطت تفاصيل قريبة مما قد يكون حدث. كان أحدهما، بوجا فيما يبدو، قد نهض مترنحًا من فوق الأرض، وبدلًا من استكمال العراك، اتجه إلى المطبخ وقد أعماه الغضب والألم، وطارده الآخر. عند تلك النقطة، غادر الرجل مقعده مذعورًا، ظانًّا أن المعركة قد انتهت، ودخل البيت، ولم يستطع أن يقول أين ذهب بوجا.

وصل إلى البيت في غضون يومين حشد من الناس، كلهم تقريبًا من أقاربنا، **ندي إكو نائيبي**، بعضهم رأيته من قبل، وبعضهم سكنَت وجوههم الصور الشمسية الكثيرة الملتقطة على ألواح فضية، تلك الصور الشاحبة المحفوظة بعيدًا في ألبومات الأسرة. كلهم جاؤوا من قرية أمانو، تلك القرية التي لا أكاد أعرفها. سبق لنا زيارتها مرَّة واحدة، أثناء جنازة

عم أبي «يي كينيوليسا»، وهو رجل عجوز قعيد. سافرنا عبر طريق بدا بالغ الطول، محصور بين امتدادين شاسعين من الغابات الكثيفة، حتى وصلنا إلى بقعة تقلص فيها الدغل العظيم إلى بضع أشجار وأكوام حصاد وجيش منتشر من الفزاعات. راحت سيارة أبي البيجو تناور الشاحنات المحملة بالرمال، وهي تنتفض بعنف. بدأنا نرى أناسًا نعرفهم، فحيونا بلطف بهيٍّ صاخب. لاحقًا، ونحن نرتدي ملابس سوداء مع جمع من الناس، سرنا في موكب الجنازة، لا أحد يتكلم، ولا صوت إلا البكاء، كأننا تحولنا من مخلوقات قادرة على الحديث فيما بينها إلى مخلوقات لا تستطيع إلا العويل، وقد أدهشني ذلك أيما دهشة.

جاء هؤلاء الناس إلى بيتنا بملابسهم السوداء، كما رأيتهم في آخر مرَّة بالضبط. كان إيكينا، في الواقع، هو الشخص الوحيد الذي يرتدي لونًا مختلفًا في جنازته، وقد منحه القميص والبنطال الأبيضان المتألقان اللذان ارتداهما مظهر ملاك كُسرت عظامه - بعد أن أُخذ على غرة أثناء تجلٍّ مادي على الأرض - لكي يُمنع من العودة إلى السماء. تلحف جميع مَن في الجنازة بالسواد، وتسربلوا بدرجات متباينة من الحزن، باستثنائي أنا وأوبمبي: نحن وحدنا لم نبكِ. على مر الأيام التي تجمَّعت مثل دم فاسد في دمل منذ وفاة إيكينا، رفضت أنا وأوبمبي البكاء، باستثناء الدموع الأولى التي ذرفناها في المطبخ، حيث رأينا جسده الخالي من الحياة. حتى أبي بكى بضع مرَّات: مرَّة وهو يلصق ملصق النعي الخاص بإيكينا على جدار منزلنا، ومرَّة أخرى وهو يتكلم مع القس كولينز أثناء زيارة العزاء الأولى له. ومع أنني لا أستطيع عقلنة قراري بألا أذرف الدمع، فقد تمسَّكت به بكل قوة، ويبدو أن أوبمبي فعل الشيء نفسه. وبدلًا من البكاء، ركزت عينيَّ على وجه إيكينا، الذي خفتُ أن يضيع قريبًا. كان وجهه مغسولًا ومدهونًا بزيت الزيتون حتى يشرق ببهاء غير دنيوي. ومع أن الدموع على شفتيه والندبة على حاجبيه كانت لا تزال مرئية، فإن وجهه كان مضيئًا بسلام مدهش، كأنه ليس حقيقيًّا، وكأننا في منظر من نتاج أحلامنا أنا وبقية المكلومين. وهو ممدد هناك، رأيت للمرَّة الأولى ما سبق أن رآه أوبمبي وعرفه قبل زمن طويل: أن إيكينا نَمت له لحية. بدت كأنها نبتت بين ليلة وضحاها، حتى إنها الآن تظهر أسفل فكه مرسومة بقلم رقيق.

وضِع جسد إيكينا في النعش، رأسه إلى أعلى، وسدادات قطنية تسد منخاريه وأذنيه، ويداه ملتصقتان بجنبيه، وساقاه مربوطتان معًا، وله شكل كرة متطاولة بيضاوية على هيئة طائر. كان إيكينا في حقيقة الأمر عصفورًا، وشيئًا هشًّا لم يرسم مصيره بنفسه، بل رُسم لأجله. كان «**التشي**» الخاص به - ذلك الإله الشخصي الذي يؤمن الإغبو أنه رفيق لكل إنسان - ضعيفًا واهنًا، من نوع «**الإيفوليفو**»، وهو الرقيب غير المسؤول الذي يترك قرينه أحيانًا ويذهب في رحلات بعيدة، تاركًا إياه بلا حماية. ذلك ما جعله، وهو لا يزال بعد مراهقًا، ينال كفايته من الحوادث المشؤومة والمآسي الشخصية، فكان مجرد عصفور يعيش في عالم من العواصف السوداء.

ركله صبي عندما كان في السادسة في منفرج ساقيه، وهما يلعبان كرة القدم، مطيحًا بإحدى خصيتيه من كيس الصفن إلى داخل جسده. نُقل بسرعة إلى المستشفى، وتزاحم الأطباء حوله لإجراء زراعة خصية. وفي غرفة أخرى في المستشفى نفسه، أخذوا يكافحون لإنعاش أمي، التي أُصيبت بإغماءة عند سماعها بإصابة إيكينا. في صباح اليوم التالي، كان كلاهما لا يزال حيًّا - الأم وقد حلَّت الراحة محل الحزن الذي أصابها في اليوم السابق عندما ارتعبت من أن يموت ابنها، وإيكينا بحصاة صغيرة في كيس صفنه بدلًا من الخصية المفقودة. لم يلعب كرة القدم لثلاثة أعوام، وعندما عاد ليلعب ثانية، كان حريصًا على حماية خصيتيه بيده كلما رُكلت الكرة في اتجاهه. بعد ذلك بعامين، وهو في الثامنة، لدغته عقرب وهو جالس تحت شجرة في مدرسته. نجا من اللدغة أيضًا، لكن ساقه اليمنى تلفت تلفًا مزمنًا، وانكمشت، فصارت أصغر حجمًا من الأخرى.

أقيمت الجنازة في مقابر «سانت أندرو»، وهي ساحة مسوَّرة مليئة بشواهد قبور وبضع أشجار وملصقات صُنعت من أجل الدفن. لُصقت بعض إعلانات النعي المطبوعة على أوراق «A4» على الحافلات التي تنقل أبناء كنيستنا وغيرهم من الضيوف إلى الجنازة، وبعضها على الزجاج الأمامي والخلفي لسيارة أبي، وعُلق أحدها على الجدار الخارجي لمنزلنا،

إلى جوار الرقم البريدي الذي كتبه موظفو التعداد بطباشير الفحم أثناء التعداد القومي لسنة 1991، ولُصق واحد على عمود الكهرباء المستدير أمام بوابة بيتنا، وغيره على لوحة الأخبار الخاصة بالكنيسة، ولصقوا واحدًا على بوابة مدرستي - حيث كان إيكينا تلميذًا يومًا ما - وعلى باب «الكلية الأكوينية» في أكوري، تلك المدرسة الثانوية التي ارتادها هو وبوجا. وقد قرر أبي أنها يجب أن تلصق فقط في الأماكن الضرورية، «لإخبار الأسرة والأصدقاء بما حدث». كانت الملصقات معنونة بكلمة «نعي» (obituary) بالبنط الكبير، مطبوعة بالحبر الذي انسال على رأس حرف «b»، وفي ذيل حرفي «a» و«r». وفي كل الملصقات تقريبًا، بدا أن بياض الورق يموِّه صورة إيكينا، ويجعله كأنه شخص عاش في القرن التاسع عشر. تحت الصورة كُتبت عبارة: «مع أنك تركتنا مبكرًا، فأنت محبوبنا الغالي. نتمنى أن نلتقي ثانيةً عندما يحين الأوان»، وتحتها كُتب:

إيكينا أ. أغوو (1981 - 1996).

رحل في حياة والديه: السيد والسيدة أغوو.

وأشقائه: بوجا، وأوبمبي، وبنجامين، وديفيد، ونكيم أغوو.

***

في الجنازة، وقبل أن يُدفن إيكينا وتُهال عليه الرمال، طلب القس كولينز من أسرتنا التجمع حوله، ومن الآخرين التراجع إلى الخلف. «تراجعوا **قليلًا** من فضلكم»، قالها بإنجليزية مطعمة بلكنة إغبو غليظة. «أوه، شكرًا لكم، شكرًا لكم. فليباركِكم الرب. خطوة أخرى من فضلكم. فليباركِكم الرب».

أحاطت الأسرة والأقارب المقربون بالقبر. كانت هناك وجوه لم أرها منذ زمن بعيد. بعد أن أحاط الجميع تقريبًا بالقبر، طلب منا القس أن نغمض عيوننا من أجل الصلاة، لكن أمي أطلقت صرخة لوعة حارقة، مرسلة موجة رهيبة من الحزن بطول الصف. تجاهلها القس كولينز وواصل صلاته، وصوته يرتعش. ومع أن كلماته - **أن ترحم روحه وتستقبلها في ملكوتك... نعرف أنك أخذت ما قد أعطيت... وامنحهم الصبر والسلوان... الحمد لك أيها الرب فإننا نعلم أنك سمعت صلاتنا** - بدت لي بلا معنى تقريبًا، فقد ردد الناس «آمين» بهمهمة عالية في نهايتها. واحدًا بعد آخر، راحوا يغترفون الرمال بجاروف واحد، ويهيلونها في القبر. وفيما كنت أنتظر دوري وهم يمررون الجاروف، رفعت رأسي فلاحظت امتلاء الأفق بسحب أشبه بالصوف، رمادية كثيفة، إلى حد أنني ظننت أن طيور البلشون البيضاء ستعلق في اللون الرمادي إن طارت فوق رؤوسنا في هذه الساعة. كنت شاردًا في تلك الملاحظة عندما سمعت اسمي. نكستُ عينيَّ فرأيت أوبمبي يغمغم دامعًا بشيء غير مسموع وهو يناولني الجاروف بيدين مرتعشتين. كان الجاروف كبيرًا وثقيلًا في يديَّ، وازداد ثقلًا بسبب كتلة التربة التي علقت بمؤخرته مثل حدبة. كان الجو باردًا، أيضًا. غاصت قدماي في كومة الرمال عندما غرستُ الجاروف في التربة، ورفعتُ بعضًا منها، ثم ألقيته في القبر، ومرَّرت الجاروف إلى أبي. تناوله مني، واغترف كومة هائلة من الرمال وأهالها في القبر. ولأنه الأخير، فقد أسقط الجاروف ووضع يده على كتفي.

تنحنح القس ثانيةً، كأن شخصًا ما أشار له أن يبدأ، وحاول أن يتقدم إلى الأمام، لكنه مال على نحو حرج على حافة القبر، دافعًا الرمل سهوًا إلى داخله وهو يترنح ليمنع نفسه من السقوط. ساعده أحد الرجال لكي يستعيد توازنه، فتراجع إلى الخلف قليلًا.

عندما استوى في وقفته، قال: «حان الوقت لقراءة بعض من كلمة الرب». راح يتكلم في دفقات، كأن كلماته جنادب استوائية تتطاير من فمه ثم تتوقف، كما يجثم الجندب ثم ينط، مرَّة، بعد مرَّة، بعد مرَّة، حتى أكمل كلمته. وفيما كان يتكلم، كانت تفاحة آدم ترتفع وتنخفض في حنجرته. «دعونا نقرأ من رسالة العبرانيين، الرسالة التي وجهها بولس إلى العبرانيين. دعونا نقرأ من الآية الأولى في الإصحاح الحادي عشر». رفع رأسه، وقبض على مجموعة المعزين بنظرة واحدة متجهمة، ثم انحنى قليلًا، وبدأ يقرأ: «وأما الإيمان فهو الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى...».

بينما يقرأ القس، شعرت برغبة جارفة في مراقبة أوبمبي، وقياس مشاعره في تلك اللحظة. عندما نظرت إليه، ملأتني

ذكريات عن شقيقيَّ الفقيدين، إذ بدا كأن الماضي قد انفجر فجأة وبدأت فتات منه تطفو حرَّةً في عينيه مثل نثار في بالون مملوء بالهواء. أولًا، رأيت إيكينا ووجهه ممطوط، وعيناه داكنتان، وغاضبًا، يقف وقامته تعلو فوقي أنا وأوبمبي ونحن راكعون على الأرض. كان ذلك بالقرب من دغل الإيسان في طريقنا إلى «أومي-ألا» بعد أن استهزأ أوبمبي بكاهن كنيسة الرداء الأبيض، عندما أمرنا أن نركع عقابًا على «عدم احترام إيمان الآخرين». بعدها، رأيتني أنا وإيكينا جالسين في منحنى شجرة اليوسفي في بيتنا، نمثِّل «كوماندو» و«رامبو»، راقدين في انتظار أوبمبي وبوجا. كانا يلعبان دور «هالك هوغان» و«تشانك نوريس» على الترتيب، ويختبئان في شرفة دارنا، ويخرجان من حين إلى آخر ليصوبا إلينا بنادق لعبة، ويصدران أصوات الرصاص - **دررررررررررري** أو **تي-تي-تي-تي-تي**. وأثناء قفزهما وصراخهما، كنا نرد بصوت انفجار قنبلة: **جبووم!**

رأيت إيكينا، مرتديًا صدريته الحمراء، واقفًا على الخط المرسوم بالطبشور الأبيض على المضمار الترابي لساحة الألعاب الرياضية في مدرستنا الابتدائية. العام 1991 وقد أنهيت للتوِّ سباق الحضانة في زي الفريق الأزرق، وأحرزت المركز الثاني من الخلف - بعدما تمكنتُ من تجاوز عدَّاء «البيت الأبيض». أنا الآن بين ذراعي أمي، أقف مع أوبمبي وبوجا خلف الحبل الطويل المربوط إلى عمودين على الجانبين حاجزًا المتفرجين عن مضمار السباق، نهتف لإيكينا من على الخط الجانبي، يصفق بوجا وأوبمبي من حين إلى آخر. تنطلق صافرة في لحظة ما، وينحني إيكينا - الذي يقف على خط واحد إلى جانب أربعة ألوان أخرى: أخضر، وأزرق، وأبيض، وأصفر - على رُكبة واحدة على الأرض فيما يخرج صوت الأستاذ لورنس، المدرس صاحب السبع صنائع الذي كان أيضًا مسؤولًا عن النشاط الرياضي، قائلًا: «في أماكنكم!». صمتَ قليلًا بينما رفع العداؤون ساقًا ووضعوا أصابعهم على الأرض مثل حيوانات الكنغر، ثم صاح الأستاذ لورنس: «استعدوا!». وعندما صاح: «انطلقوا!»، بدا أنهم شرعوا في الانطلاق، لكنهم ظلوا على الخط نفسه، واقفين كتفًا بكتف. ثم تفرقوا واحدًا بعد الآخر. تظهر ألوان قمصانهم مثل رؤيا عابرة، ثم تختفي لتأتي ألوان أخرى وتحتل أماكنهم المختلفة، ثم يتعثر عدَّاء «البيت الأخضر»، ويسقط، مثيرًا الغبار في الهواء. يبدو الصبية مغمورين بالدخان، لكن بوجا يرى إيكينا وهو يرفع ذراعه احتفالًا على الجانب الآخر من خط النهاية، ثم أراه أنا أيضًا. وفي لحظة خاطفة يصبح محاطًا بسرب من أصحاب «الصدريات الحمراء» وهم يهتفون: «يحيا البيت الأحمر! يحيا البيت الأحمر!». تقفز أمي من الفرحة وأنا بين يديها ثم تتوقف فجأة، لأنها رأت بوجا وقد زحف تحت الحبل الحاجز وهرول في اتجاه خط النهاية وهو يصيح: «إيكي الفائز! إيكي الفائز!»، ومن خلفه، يجري المدرس الذي يحرس الحاجز بسرعة محمومة وعصا طويلة.

عاد انتباهي إلى الجنازة، وكان القس قد وصل إلى الآية الخامسة والثلاثين، وصار صوته أعلى كأنه يُلقي تعاويذ، وصارت كل آية يقرؤها تعلُق بصنارة العقل، وتنبض مثل سمكة وقعت في شص. أغلق القس كتابه المقدس بصفحاته مطوية الزوايا ووضعه تحت إبطه، وبمنديل رطب من الاستخدام مسح جبهته.

قال: «دعونا نبتهل إلى الله».

تجمَّع كل مَن في الجنازة في رفقة من الحناجر الصاخبة استجابة له. ورحت أتلو بصوت عالٍ قدر استطاعتي وعيناي مغمضتان بقوة: «فلتحل نعمة سيدنا يسوع المسيح، ومحبة الرب، والرفقة الحلوة للروح القدس، علينا الآن وإلى الأبد. آمين».

احتضرَت «آمين» بطيئًا، وحملتها صفوف المقبرة الهائلة التي كان الصمت لغتها. أشار القس إلى حفاري القبور، وعلى الفور رجعوا من حيث جلسوا يتكلمون ويضحكون أثناء الجنازة. بدأ هؤلاء الرجال الغريبون يعيدون الكومة إلى مكانها في سرعة، معجلين من طمس إيكينا، كأنهم غافلون عن حقيقة أنهم فور تغطيته، لن يراه أحد ثانيةً. وحين كانت كتل من التربة تسقط عليه، تفجرت موجة جديدة من الحزن، وانفتح في البكاء كل مَن في الجنازة تقريبًا مثل الجوز المنتج لقرون الإيفوكا. وعلى الرغم من أنني لم أبكِ هناك، فقد غمرني المد الحقيقي الملموس للفقد. واصل الحفارون الردم على نحو أسرع، بلامبالاة محيِّرة، وتوقف أحدهم ليخرج زجاجة مياه مفلطحة مغطاة بالتراب نصف مدفونة في تلة الرمل

التي تغطي الآن جثمان إيكينا. وبينما كنت أراقب الرجال وهم يهيلون المزيد من التراب في القبر، نبشتُ في تربة عقلي الباردة، فاتضح لي فجأة - كما لا تتضح الأمور إلا بعد وقوعها - أن إيكينا كان عصفورًا رقيقًا هشًّا.

كانت هناك أشياء صغيرة قادرة على إطلاق العنان لروحه، وكثيرًا ما انطلقت الأفكار المحزونة تمشط روحه الكئيبة بحثًا عن حفر تملؤها بالأسى. وهو في سنه الصغيرة، كثيرًا ما جلس في الباحة الخلفية، مفكرًا ومتأملًا، ذراعاه متشابكتان فوق ركبتيه. كان شديد الانتقاد للأشياء، وهي السمة التي يتشابه فيها كثيرًا مع أبي، ويُعلِّق الأشياء الصغيرة على صلبان كبيرة، ويفكر مليًّا في كلمة خاطئة قالها لشخص ما، ويرتاع كثيرًا من أن يلومه أحد. لم يكن لديه مكان للتهكم أو السخرية؛ كانت تلك الأمور تزعجه.

مثل العصافير، التي ظننا أنها لا تملك بيوتًا، لم يكن لقلب إيكينا بيت، ولا ولاءات ثابتة. كان يحب البعيد والقريب، والصغير والكبير، والغريب والمألوف. لكن الأشياء الصغيرة كانت أكثر ما يجتذب تعاطفه ويأسره. أتذكر منها ذلك الطائر الصغير الذي امتلكه لبضعة أيام في عام 1992. كان جالسًا في ردهة البيت وحده عشية أحد أعياد الميلاد، بينما يرقص الآخرون في الداخل وينشدون الترانيم، ويأكلون ويشربون، عندما سقط طائر أمامه على الأرض. انحنى إيكينا واقترب منه في الظلام، ثم لف يديه حول جسده المغطى بالريش. كان عصفورًا انتزع بعض ريشه، اصطاده أحد الصيادين، لكنه هرب، وثمة خيط لا يزال مربوطًا حول ساقه. انفطرت روح إيكينا عند رؤية العصفور، فحماه ورعاه وأطعمه لثلاثة أيام. طلبت منه أمي أن يطلق سراحه، لكنه رفض. وذات صباح، رفع جسد الطائر الخالي من الحياة في يده وحفر حفرة في الباحة الخلفية، وقلبه محطم. غطى معه بوجا العصفور الصغير بالرمل حتى غاب عن الأنظار. اختفى إيكينا أيضًا بالطريقة نفسها: غطى الثرى الذي أهاله المعزون وحفارو القبور جذعه المكفن بالأبيض، ثم ساقيه، وذراعيه، ووجهه، وكل شيء، حتى صار في طي النسيان، وغاب عن العيون إلى الأبد.

10
الفطر

بوجا كان فطرًا.

جسده مملوء بالفطور، وقلبه يضخ دماءً مملوءة بالفطور، ولسانه مصاب بالفطور، وربما بقية أعضاء جسده كذلك. ولأن كليتيه كانتا مملوءتين بالفطور لم يستطع التوقف عن تبليل فراشه حتى بلغ الثانية عشرة. راود أمي القلق من أن يكون مصابًا بلعنة تبليل الفراش. بعد أن أخذته للصلاة، بدأت تحدد حواف فراشه بزيت المسوح - زجاجات صغيرة من زيت الزيتون قُرئت عليها صلوات - كل يوم قبل أن ينام. ومع ذلك، لم يستطع بوجا أن يتوقف، وكان عليه أن يتحمل عار إخراج فراشه - الذي لُوث ببقع من البول ذات أشكال ومقاسات مختلفة - كل صباح، لكي يجف في الشمس، مجازفًا بأن يراه أطفال الحي، خصوصًا إغبافي وابن عمه توبي، اللذين كان بإمكانهما رؤية بيتنا من بيتهم متعدد الطوابق. كان توبيخ أبي له بسبب تبوله في فراشه هو ما جعله يثير البلبلة في المدرسة في ذلك الصباح المشهود من عام 1993، الذي قابلنا فيه «M.K.O».

ومثلما يختبئ فطر في جسد عائل غافل، عاش بوجا غير مرئي في بيتنا أربعة أيام بعد موت إيكينا، من دون أن نعرف. كان هناك، ساكنًا، مختبئًا، عازفًا عن الكلام، بينما الحي بأكمله، بل البلدة بأكملها تبحث عنه. لم يترك خيطًا واحدًا للشرطة النيجيرية يدل على كونه في الجوار. لم يحاول كبح جماح المعزين الذين اجتاحوا بيتنا مثل نحلات حول برميل عسل. لم يهتم لصورته المطبوعة على ملصق بحبر باهت، طافية مثل وباء أنفلونزا تفشى في أرجاء البلدة: في محطات الحافلات، ومواقف السيارات، والنُّزُل، والطرقات. لم ينشغل باسمه الذي طُبع على شفاه أهالي البلدة.

> بوجانونيميوكبو «بوجا» أغوو، 14 عامًا، شوهد آخر مرة في منزله رقم 21 طريق مدرسة أكوري الثانوية، شارع أرارومي، في 4 أغسطس، 1996. يرتدي قميصًا أزرق باهتًا مرسومًا عليه صورة لمنتجع الباهاما. كان القميص مبقعًا بالدم وممزقًا عندما شوهد آخر مرة. رجاءً، في حالة العثور عليه، إبلاغ أقرب مركز للشرطة، أو الاتصال برقم 04-8904872.

لم يتعالَ صياحه عندما راحت شاشات التلفزيون في أكوري تبث صورته بلا توقف، مستنفدة قدرًا كبيرًا من وقت البث في قناتي «OSRC» و«NTA». وبدلًا من أن يكشف عن نفسه، أو عن مكانه، قرر أن يظهر في أحلامنا ليلًا، وفي خيالات الرؤى المضطربة لأمي. وهكذا راح يجلس في الأريكة الكبيرة في غرفة جلوسنا في حلم أوبمبي - في الليلة التي سبقت دفن إيكينا - يضحك على ألاعيب «مستر بين» في التلفزيون. وكثيرًا ما ذكَرت أمي أنها رأته في غرفة الجلوس، مُكفنًا في الظلام، يختفي كلما حاولت لفت الانتباه إليه بإضاءة لمبة أو مصباح. مع ذلك، لم يكن بوجا مجرد فطر؛ لكنه جسَّد تشكيلة واسعة من بني جنسه. كان فطرًا مدمرًا: رجلًا ذا قوة، جاء بنفسه قسرًا إلى العالم، وأخرج نفسه قسرًا منه. أخرج نفسه قسرًا من رحم أمي وهي في الفراش تستعد لقيلولة في 1982. باغتها طَلق، وكأن أمعاءها تتلوى بقوة بفعل حقنة شرجية. الوخزة الأولى كانت طلقة من الألم اكتسحتها. سحبها الألم إلى أسفل، فزحفت فوق فراشها وهي تصرخ، عاجزة عن تحريك جسدها. سمعتها مالكة البيت الذي عاش فيه والدانا في ذلك الوقت تصرخ، فجاءت لنجدتها. ولما رأت المرأة أن الوقت لا يسمح بنقل أمي إلى المستشفى، أغلقت الباب، وتناولت قطعة من القماش ولفتها حول ساقي أمي، ثم نفخت في الموضع الحميم لأمي وروَّحت عليه بكل ما استطاعت من قوة، فولدَت على الفراش الذي تتشاركه مع أبي. كثيرًا ما تذكرت أمي، بعد ذلك بسنوات، كيف تسرب دم غزير عبر الفراش حتى شكَّل بقعة هائلة لا تُمحى على الأرض.

دمر سلامنا، ودفعنا جميعًا إلى الحافة. كان أبي لا يكاد يجلس دقيقة واحدة في تلك الأيام. فبعد أقل من ساعتين من عودتنا من دفن إيكينا، أعلن أنه سيذهب إلى مركز الشرطة ليتابع ما استجد من تطورات في البحث عن بوجا. قال ذلك ونحن جالسون جميعًا في غرفة الجلوس. ولم أعرف ما الذي دفعني إلى أن أعدو خلفه مناديًا: «بابا! بابا!».

«ماذا يا بِن؟»، سألني وهو يستدير، وسلسلة مفاتيح مُعلقة في سبابته. لاحظت أن سحَّاب بنطاله مفتوح، فأشرت إليه قبل أن أرد. سألني ثانية بعد أن نظر إلى سحَّابه: «ما الأمر؟».

«أريد أن أذهب معك».

رفع السحَّاب، وهو يحدق فيَّ كأنني شيء مثير للريبة التقاه في طريقه. ربما لاحظ أنني لم أذرف دمعة واحدة منذ عودته. كان مركز الشرطة مشيدًا بحذاء الخط الحديدي القديم الذي يلف حول عطفة ثم ينحرف يسارًا إلى طريق تملؤه حُفر من الماء الموحل. كان المركز مبنى كبيرًا صُفت أمامه بضع عربات مطلية بالأسود - لون الشرطة النيجيرية - أسفل مظلة قماشية أعمدتها مصبوبة من حديد ثُبت في الأرضية المرصوفة. وكان بضعة شباب، جميعهم عرايا حتى وسطهم، يتجادلون بصوت عالٍ حول شيء ما تحت مظلة قماشية ممزقة، بينما ينصت إليهم ضباط الشرطة. توجهنا مباشرة إلى مكان الاستقبال، وهو مكتب خشبي ضخم، يجلس خلفه ضابط على مقعد عالٍ بلا ظهر. سأله أبي إذا كان بالإمكان مقابلة معاون المباحث.

«هلَّا عرفتني بنفسك يا سيدي؟»، سأله الشرطي الجالس إلى المكتب بوجه خالٍ من الابتسام، وكان يتثاءب وهو يتكلم، مجرجرًا الكلمة الأخيرة «سيدي»، حتى خرجت ككلمة ختامية في مرثية.

قال أبي: «السيد جيمس أغوو، موظف في البنك المركزي النيجيري».

مد أبي يده إلى جيب صدره وأظهر بطاقة هوية حمراء للرجل. فحصها الشرطي، والتوى وجهه ثم أشرق. أعاد إليه البطاقة بابتسامة تملأ وجهه، وهو يحك صدغيه بيديه.

قال الرجل: «ستقوم معنا بالواجب يا سيدي، أليس كذلك؟».

طلب الرشوة المتخفي هذا ضايق أبي، الذي يكره بشدة كل أشكال الفساد المنتشرة كالوباء في نيجيريا، وكثيرًا ما يبدي تذمره منها.

قال أبي: «ليس عندي وقت لهذا. ابني مفقود».

«آه!»، صاح الشرطي، كأن لحظة تنوير فظيعة واتته فجأة. وسأله مصدومًا: «أنت إذن أبو هؤلاء الأولاد؟». ثم تدارك الأمر بعد أن أدرك فجأة ما قاله: «آسف يا سيدي! انتظر من فضلك».

نادى الشرطي على شخص، فخرج شرطي آخر من الردهة، وهو يحرك قدميه بطريقة مرتبكة. وقف انتباهًا، رافعًا يده إلى جانب وجهه الضامر الداكن، وأصابعه مفرودة فوق أذنه، ثم أسقط يده على جنب ساقه.

أمره الشرطي الأول بالإنجليزية: «أوصله إلى مكتب الرئيس معاون المباحث».

«أمرك يا سيدي»، صاح بها الشرطي الأدنى رتبة وهو يدق بقدمه على الأرض ثانية.

تقدم الشرطي، الذي بدا مألوفًا على نحو غريب، في اتجاهنا، وقد تجهمت ملامحه، وقال: «آسف يا سيدي! لكننا سنقوم بتفتيشك سريعًا قبل أن تدخل».

مرَّر يده على جسد أبي، صاعدًا إلى جيوب البنطال، مفتشًا. حدق فيَّ، وبدا أنه يمسحني بعينيه لبرهة، ثم سألني إن كنت أحمل شيئًا في جيبي. هززت رأسي، فاستدار عني مقتنعًا وكرر التحية بيده مكورة فوق أذنه ثانية، وهتف قائلًا للشرطي الآخر: «كل شيء على ما يرام يا سيدي».

أومأ الأخير إيماءة بسيطة، مشيرًا إلينا لكي نتبعه، وتقدمنا إلى القاعة.

كان معاون المباحث رجلًا نحيفًا وطويلًا جدًّا، له تركيبة وجه لافتة، وجبهته تمتد عرضيًّا مثل لوح إردواز فوق وجهه،

وعيناه غائرتان جدًّا، وحاجباه ناتئان كأنهما متورمان. نهض على قدميه سريعًا عند دخولنا.

قال، وهو يمد يده ليصافح أبي: «السيد أغوو، أليس كذلك؟».

دمدم أبي: «نعم، وابني بنجامين».

«مرحبًا بك، تفضل بالجلوس».

جلس والدي على الكرسي الوحيد أمام طاولة المكتب، وأشار لي أن أجلس على الكرسي الآخر بجوار الجدار القريب من الباب. كان المكتب قديم الطراز، والخِزانات الثلاث في الغرفة مملوءة بأكداس من الكتب والملفات. نفذ قضيب ساطع من ضوء النهار عبر الفرجة بين الستائر البُنيَّة في غياب الإضاءة، وفاح الهواء برائحة اللافندر، التي ذكرتني بزياراتي لمكتب أبي وهو لا يزال يعمل في فرع البنك المركزي في أكوري.

فور جلوسنا، وضع الرجل مرفقيه على طاولة المكتب، وشبك يديه معًا، وقال: «ممم، سيد أغوو، يؤسفني أن أقول إننا ما زلنا ننتظر معلومات عن مكان ابنك». عدَّل جلسته على كرسيه، وفك يديه، ثم استطرد سريعًا: «لكننا أحرزنا تقدمًا. استجوبنا امرأة من الجيران أكدت لنا أنها رأت الصبي في مكان ما على الجانب الآخر من الشارع في عصر ذلك اليوم، والوصف الذي أدلت به يتفق مع أوصافك: الصبي الذي رأته كان يرتدي ملابس ملوثة بالدم».

سأل أبي في تعجل مضطرب: «إلى أي اتجاه قالت إنه ذهب؟».

شرع معاون المباحث يقول: «لا نعرف حتى الآن، لكننا نحقق مليًّا. هناك رجال من فريقنا...»، قطع كلامه ليسعل في يده، وهو يرتجف بخفة.

تمتم أبي: «سلامتك»، فشكره الرجل.

واصل كلامه بعد أن بصق في منديل: «أقصد أن فريقنا يقوم بالبحث. لكنك تعرف، حتى ذلك سيكون بلا جدوى إذا لم نعلن عن مكافأة قريبًا. أقصد أن نشرك سكان البلدة ونجعلهم يساعدوننا». فتح كتابًا بغلاف مقوى أمامه، وبدا كأنه يقرأ فيه وهو يتكلم: «مع وجود مكافأة مالية، أثق أن الناس سيستجيبون. بغير ذلك، ستصبح جهودنا أشبه بكنس الشارع بمكنسة في الليل، أقصد، على أشعة القمر الواهنة».

قال أبي بعد برهة: «أفهم ما تقوله يا سيادة المعاون، لكنني أريد أن أثق في حواسي في هذا الشأن، وأن أنتظر استكمال البحث الأوَّلي قبل أن أبدأ أي خطط شخصية».

أومأ معاون المباحث برأسه متعجلًا.

تابع أبي: «هناك شيء ما يقول لي إنه آمِن في مكان ما. ربما يختبئ فحسب بسبب ما فعله».

قال معاون المباحث في صوت مرتفع قليلًا: «نعم، ربما يكون الأمر كذلك». بدا أنه غير مرتاح في جلسته، عدَّل كرسيه مستخدمًا المقبض السفلي، ثم وضع يديه على طاولة المكتب، وبدأ بطريقة آلية يلتقط أوراقًا متناثرة على سطح مكتبه وهو يتكلم: «تعرف أن الطفل، وحتى البالغين، بعد أن يرتكب شيئًا رهيبًا كهذا، أقصد، بعد أن يقتل شقيقه من لحمه ودمه، يكون خائفًا. ربما يكون خائفًا منا نحن الشرطة، أو خائفًا من والديه، أو من المستقبل، أو من كل شيء، بل هناك احتمال أن يكون قد غادر البلدة بأكملها».

«نعم»، قالها أبي في نبرة متأسية، وهو يهز رأسه.

قال الشرطي بطرقعة من إصبعه: «هذا يذكرني بشيء: هل حاولت أن تتصل بأيٍّ من أقاربك في الأماكن القريبة لكي تسأل...».

«نعم، لكنني لا أظنه احتمالًا قائمًا؛ فأبنائي لم يزوروا أقاربنا إلا نادرًا عندما كانوا صغارًا جدًّا، ولم يفعلوا ذلك مرَّة واحدة في غيابي أنا أو غياب أمهم. إضافة إلى أن معظم أقاربنا هنا، ولم يره أحد منهم. لقد جاؤوا لجنازة شقيقه التي انتهت قبل ساعات قليلة».

التقت عينا معاون المباحث بعينيَّ في تلك اللحظة وأنا أحدق فيه، متأملًا الشبه الكبير بينه وبين الرجل العسكري ذي النظارة الداكنة في الصورة المعلَّقة خلفه - الدكتاتور النيجيري، الجنرال ساني أباتشا.

«أتفهم ما تقول. سوف نبذل قصارى جهدنا، ونأمل أن يرجع بنفسه، في الوقت الذي يحدده هو».

«ونحن أيضًا»، قالها أبي، وكررها بصوت مختنق. «شكرًا على جهودكم يا سيدي».

سأل الرجل أبي عن شيء لم أستطع سماعه، حيث غبت ثانية، وراحت صورة إيكينا والسكين مغروس في بطنه تحوم في عقلي. نهض أبي والرجل وتصافحا، ثم غادرنا المكتب.

***

كان بوجا فطرًا من ذلك النوع الذي يكشف نفسه. بعد أربعة أيام من العذاب، حيث نجهل جميعًا ما حدث له، أو أين يكون، أظهر نفسه. أشفق على أمي، التي كادت تموت من الحزن، أو ربما عرف أن أبي تهالك بسبب ما جرى، ولم يعد قادرًا على الجلوس في البيت لأن أمي تسبه وتلومه بلا توقف. عندما عاد أبي بسيارته إلى الدار في الصباح التالي لوفاة إيكينا، ركضَت ناحيته، وفتحَت باب سيارته، وجرجرته تحت المطر، وهي تصرخ ممسكة بخناقه: «ألم أقل لك؟ ألم أقل لك إنهم يتسربون من يدي؟ ألم أقل لك؟ ألم أقل لك؟ إيمي، ألم تكن تعرف أن الجدار الذي لا يتشقق ويفتح فمه، لا تستطيع السحالي دخوله؟ إيمي، ألم تكن تعرف؟». لم تتركه، حتى عندما ركضت السيدة أغباتي، وقد أيقظتها الضجة، داخلة إلى ساحة الدار وهي تتوسل إلى أمي أن تدع أبي يدخل. «انظر إلينا، انظر، انظر. لقد فتحنا أفواهنا يا إيمي، فتحناها عن آخرها، وها نحن نبتلع الكثير من السحالي».

لا يمكنني أن أنسى كيف حافظ أبي، وهو يشهق ليسحب أنفاسه، وملابسه مشرَّبة بالمطر، على ذلك الهدوء، الذي أُقسم أنه لم يكن قادرًا عليه، حتى نزعوه من بين يدي أمي. في أوقات كثيرة، في الأيام الأربعة الماضية، حاولَت مهاجمته، ولم يمنعها إلا الناس الذين يأتون لمواساتنا. كذلك، ربما نظر بوجا بعين الرحمة إلى نكيم التي ظلت تسير وراء أبي، منتحبة بلا توقف، لأن أمي لا ترعاها. كان أوبمبي في أغلب الوقت يرعى ديفيد، الذي يصرخ أيضًا بلا سبب أحيانًا، فتضربه أمي عندما يثقل عليها. ربما رأى بوجا كل ذلك وأشفق عليها وعلينا أيضًا. أو ربما كان مجبرًا فحسب على كشف نفسه، لأنه لم يستطع الاختباء أكثر من ذلك. لا أحد سيعرف أبدًا.

كشف عن نفسه بعد عودتنا أنا وأبي من مركز الشرطة. كانت صورته التي مد يده فيها باتجاه المصور وكأنه سينقض عليه، قد ظهرت لتوِّها في إعلانات قناة «OSRC News» تحت عنوان «مفقود»، مباشرة بعد فيديو لفريق الأحلام الأولمبي النيجيري وسط الحشود المهنئة عند وصوله إلى لاغوس عائدًا من الولايات المتحدة بالميدالية الذهبية في كرة القدم للرجال. كنا نأكل اليام وصلصة زيت النخيل - أنا وأوبمبي وأبي وديفيد، وأمي راقدة على السجادة في الجزء الآخر من غرفة الجلوس، لا تزال ترتدي الأسود. ونكيم في حضن «ماما بوسي»، الصيدلانية. وكانت إحدى الخالات، آخر من تبقى من معزين، التي ستأخذ الحافلة الليلية إلى «أبَا» في اليوم نفسه، تجلس إلى جوار ماما بوسي وأمي. تحدثت أمي مع المرأتين عن السلام النفسي، وكيف تجاوب الناس مع أحزان أسرتنا حتى الآن، بينما كانت عيناي مركزتين على التلفزيون، حيث يصافح لاعب فريق الأحلام «أوستين جي-جي أوكوتشا» الجنرالَ أباتشا في «أسو روك». رأينا السيدة أغباتي، جارتنا في البيت الملاصق، تركض إلى باب بيتنا، وهي تصرخ. جاءت لتجلب الماء من بئرنا، وهي بئر عمقها إحدى عشر قدمًا، يُعتقد أنها واحدة من أعمق الآبار في المنطقة. وكان جيراننا، خصوصًا آل أغباتي، كثيرًا ما يستخدمونها عندما تجف آبارهم أو يقل مستوى مياهها.

رمت بنفسها عند عتبة باب العواصف الخاص بنا، وهي تصرخ: «إيوووووو! **إيوووووو!!**».

سألها أبي، وقد انتفض لصراخها: «بولانلي، ما الخطب؟».

قالت أغباتي وهي تنتحب وتتلوى حسرة على الأرض: «إنه.. في البئر. أيوووو، **إيووووو!**».

سأل أبي بصوت عالٍ: «مَن؟ ماذا؟ مَن الذي في البئر؟».

«هناك، هناك، في البئر»، هكذا ظلت المرأة تكرر، تلك التي لم يكن بوجا يحبها، وكثيرًا ما أطلق عليها «**أشيوو**»؛ لأنه رآها ذات مرَّة تدخل فندق «لا روم».

«سألتكِ مَن؟». لكن، وهو يسأل، راح يجري خارجًا من البيت. خرجتُ وراءه، وخرج أوبمبي ورائي.

كانت البئر، بغطائها المعدني المتفسخ قليلًا، مملوءة بالماء إلى مستوى يزيد على ثماني أقدام، وكان الدلو البلاستيكي الخاص بجارتنا عند فوهة البئر، وجسد بوجا طافيًا على الماء، وملابسه تُشكِّل «باراشوت» من خلفه، منفوخة مثل بالون ممتلئ، وإحدى عينيه مفتوحة ويمكن رؤيتها من تحت سطح الماء الصافي، والأخرى مضمومة ومنتفخة، ورأسه مرفوعًا فوق الماء، مستندًا على طوب البئر حائل اللون، بينما يداه ذاتا الجلد الرقيق تتأرجحان ببطء فوق الماء كأنه تجمد أثناء عناق شخص آخر لا يستطيع رؤيته سواه.

تلك البئر التي اختبأ بداخلها، ثم ظهر، كثيرًا ما كانت جزءًا من تاريخه. فقبل عامين، سقطت أنثى صَقر - يبدو أنها كانت عمياء أو بها إعاقة ما - داخل البئر المفتوحة وغرقت، ولم يكتشفها أحد إلا بعد أيام عدة، شأنها شأن بوجا، فظلت راقدة أسفل الماء بهدوء، مثل سُم في مجرى الدم، وعندما حان وقتها، انتفخت وطفت إلى أعلى، لكن في ذلك الوقت، **كانت قد بدأت في التحلل**. تلك الحادثة وقعت في الوقت الذي اعتنق فيه بوجا معتقده الجديد، في «حملة البشارة العظمى» بقيادة الواعظ الإنجيلي الألماني رينهارد بونكي، في 1994. أعلن بوجا أنه سيصلي على الماء ويشربه. وضع إيمانه في آية الكتاب المقدس التي تقول: «ها أنا أعطيكم سلطانًا لتدوسوا الحيَّات والعقارب وكل قوة العدو، ولا يضركم شيء». وبينما ننتظر موظفي وزارة شؤون المياه الذين استدعاهم أبي لتطهير الماء، شرب بوجا كأسًا منه، وعندما خاف إيكينا أن يموت شقيقه، أفشى السر، مما أصاب والدينا بالذعر. أخذ أبي بوجا إلى المستشفى، وقد أقسم أن يجلده بقوة بعدها. ارتحنا جميعًا عندما أظهرت نتائج التحليل أنه بخير. وهكذا هزم بوجا البئر وقتها، لكن البئر قتلته بعد ذلك بسنوات!

تغيَّر شكله، فلم يعد التعرف عليه ممكنًا عندما رُفع إلى الخارج. وقف أوبمبي يحدق فيَّ مرتعبًا، بينما تجمع حشد من أرجاء حيِّنا. في المجتمعات الصغيرة في غرب أفريقيا في تلك الأيام، كانت الحوادث المأساوية من هذا القبيل ترتحل مثل حرائق الغابات مع رياح «الهرمتان». فور أن أطلقت المرأة صيحتها، بدأ الناس - الذين نعرفهم والذين لا نعرفهم - يتوافدون على دارنا حتى ملأوها. وعلى عكس ما حدث في مشهد موت إيكينا، لم أحاول أنا وأوبمبي أن نوقف بوجا وهم يأخذونه بعيدًا. لم يتصرف أوبمبي كما فعل وقتها، بعد أن تعافى من الترتيل المسحور لعبارة: «نهر أحمر، نهر أحمر، نهر أحمر»، وأمسك برأس إيكينا، وحاول مهتاجًا أن يضخ الأكسجين داخل فمه، مناديًا: «اصحَ يا إيكي، اصحَ يا إيكي، أرجوك!»، حتى جذبه السيد بودي بعيدًا عن إيكينا. تلك المرَّة، في وجود والدينا، رحنا نراقب من الشرفة.

كان الحشد كبيرًا جدًّا، حتى إننا كنا بالكاد نرى المشهد الذي يتكشف، إذ كان أهل أكوري ومعظم البلدات الصغيرة في وسط أفريقيا حمائم: مخلوقات سلبية ترعى بكسل في الأسواق أو الساحات، وتتسكع كما لو أنها تنتظر شائعة أو خبرًا، وتتجمَّع كلما نُثرت حفنة من الحبوب على الأرض. كل شخص يعرفك، وأنت تعرف كل شخص. كل شخص أخ لك، وأنت أخ لكل شخص. كان يصعب أن تكون في مكان ما ولا ترى شخصًا يعرف أمك أو أخاك. وكان ذلك ينطبق على جميع جيراننا. جاء السيد أغباتي مرتديًا فانلة داخلية بيضاء وشورتًا بُنيًّا، وجاء والد إغبافي ووالدته في زي تقليدي من اللون نفسه، بعد أن وصلا لتوِّهما من حفل ما، ولم تسنح لهما الفرصة لتغيير ملابسهما. وكان هناك أناس آخرون، منهم السيد بودي، الذي دخل البئر وأخرج بوجا. وقد استجمعت من تعليقات الناس هناك أنه نزل البئر أولًا باستخدام سلم، وحاول جذب بوجا إلى الخارج بيد واحدة، لكن جثمان بوجا الثقيل رفض أن **يرتفع**. وضع السيد بودي يده على جانب البئر، وشد بوجا إلى أعلى ثانيةً. في تلك المرَّة، تمزَّق قميص بوجا من تحت الذراع، وغطس السلم أكثر داخل البئر. وعند رؤية ذلك، أمسكه الرجل الواقف عند فوهة البئر بقوة ليمنعه من الانزلاق، وقبض ثلاثة رجال على ساقَيْ ووسط هذا

الأخير، لكن عندما حاول السيد بودي ثانيةً، وقد نزل درجات السلم أكثر قليلًا، تمكَّن أخيرًا من رفعه من المقبرة المائية التي ظل ميتًا فيها أيامًا. ومثلما حدث عندما أقيم ليعازر من الموت، جأر الحشد بهتاف الاستحسان.

كان مظهره لا يشبه جسدًا بُعث من جديد، بل صورة مخيفة لا تُنسى لجثة منفوخة. ولمنع تلك الصورة من الانطباع في عقلينا، أجبرنا أبي، أنا وأوبمبي، على الدخول إلى المنزل.

«أنتما، اجلسا هنا»، قالها وهو يلهث، بتعبير لم أره على وجهه من قبل. كانت تجاعيد فجائية قد ظهرت على وجهه، وكانت عيناه حمراوين بلون الدم. ركع عندما جلسنا، ووضع يديه على فخذينا وهو يقول: «منذ اللحظة، ستكونان رجلين قويين. ستكونان رجلين ينظران إلى العالم في عينيه، ويشقان الطرق والدروب رغمًا عنه... بـ... بالشجاعة التي كان يتمتع بها شقيقاكما. هل تفهمان؟».

أومأنا برأسينا.

«عظيم»، قالها وهو يومئ برأسه مرارًا وعقله شارد.

أحنى رأسه، ووضع وجهه بين كفيه. كان بوسعي سماع أسنانه تصرُّ في فمه وهو يواصل تمتمة آلية. كانت الكلمة الوحيدة التي سمعناها منه: «ربَّاه». عندما نكس رأسه، رأيت منتصف فروة رأسه حيث توقفت صلعته، على خلاف جدِّي، عن التمدد، وظلت مجرد قوس أجرد مختبئ وسط حلقة من الشعر.

قال أبي، وهو يرفع وجهه ثانية: «هل تتذكر ما قلتَه قبل بضع سنوات يا أوبمبي؟».

هز أوبمبي رأسه.

«لقد نسيتَ». برقَت ابتسامة جريحة على وجه أبي ثم ذَوت. «ما قلتَه عندما قاد شقيقك إيكي السيارة إلى مكتبي أثناء أحداث شغب «M.K.O»، هناك على طاولة الطعام؟». أشار إلى الطاولة التي تُركت في حالة فوضى، حيث يربض الذباب على بقايا الطعام، وأكواب المياه نصف الفارغة، وإناء من الماء الساخن ظل البخار يتصاعد منه، غافلًا عن غياب شارِبِيه. «لقد سألتَ ما الذي ستفعله لو ماتا؟».

أومأ أوبمبي برأسه؛ لقد تذكر، كما تذكرت أنا، ليلة 12 يونيو 1993 تلك، فبعد أن اصطحبنا أبي بسيارته إلى البيت، بدأنا جميعًا نتناوب في حكي وقائع الشغب على العشاء. حكت أمي كيف جرت هي وصديقاتها إلى ثكنة عسكرية قريبة، فيما راح المشاغبون من أنصار «M.K.O» يخربون السوق، ويقتلون أي شخص يظنونه شماليًّا. وعندما انتهينا جميعًا، قال أوبمبي: «ماذا سيحدث لي أنا وبِنْ عندما يكبر إيكينا وبوجا ويموتان؟».

انفجر الجميع في الضحك، باستثناء الصغيرين، أنا وأوبمبي. ومع أنني لم أفكر في ذلك الاحتمال حتى وقتها، فقد اعتبرت السؤال استفسارًا منطقيًّا.

رد أبي وهو يزقزق من الضحك: «أوبمبي، عندها ستكونان قد كبرتما أيضًا، إنهما ليسا أكبر منكما بكثير».

«حسنًا». تردد أوبمبي للحظة. ظل ينظر إليهما، والأسئلة تتزاحم في عقله تبحث عن إجابة. «ولكن ماذا لو ماتا؟».

صرخت أمي: «هل يمكن أن تصمت؟ يا ربي! كيف تسمح لفكرة كهذه أن تقتحم عقلك؟ شقيقاك لن يموتا، هل تسمعني؟». أمسكَت بشحمة أذنها، فأومأ أوبمبي برأسه موافقًا وقد اهتز من الخوف.

هدرت أمي: «عظيم، تناول طعامك الآن!».

نكس أوبمبي رأسه، مغمومًا، وأكمل وجبته في صمت.

***

تابع أبي بعد أن أومأنا برأسينا: «نعم، الآن بعد أن حدث ذلك يا أوبمبي، عليك أن تقود نفسك وأخويك، بِنْ هنا، وديفيد. سوف يتطلعان إليك باعتبارك شقيقهما الأكبر».

أومأ أوبمبي برأسه.

وهز أبي رأسه قائلًا: «لا أقول إنك يجب أن تقودهما في سيارة. أقصد عليك أن تكون قائدًا لهما».

أكد أوبمبي على إيماءته السابقة.

غمغم أبي: «قائدًا لهما».

وأجاب أوبمبي: «سأفعل يا أبي».

نهض أبي ومسح أنفه بيده، فانزلق الوسخ على ظهر يده، لونه أشبه بالفازلين. وبينما أراقبه، تذكرت أنني قرأت ذات مرَّة في «أطلس الحيوانات» أن معظم العقبان، بعد أن تخرج من بيضاتها، تقتلها الفراخ الأكبر سنًّا، خصوصًا عندما يشح الطعام، فيما سمَّاه الكتاب «متلازمة قابيل وهابيل». قرأت أن العقبان، على الرغم من قوتها وعنفوانها، لا تفعل شيئًا لوقف عمليات قتل الإخوة. ربما تحدث عمليات القتل تلك عندما تكون العقبان بعيدة عن أوكارها، أو عندما تسافر مسافات بعيدة لجلب الطعام إلى البيت، أو عندما تصطاد سنجابًا أو فأرًا وتصعد فوق السحب في رحلة متعجلة إلى عشها، ثم ترجع لتجد الفراخ - ربما فرخين - ميتة: واحدٌ دامٍ داخل الوكر، ودماؤه الحمراء الداكنة تتسرب من العش، والآخر تورم جسده وتضاعف حجمه، منفوخًا وطافيًا على سطح بركة قريبة.

قال أبي، قاطعًا أفكاري: «ابقيا هنا. لا تخرجا حتى أقول لكما. اتفقنا؟».

رددنا في صوت واحد: «اتفقنا يا أبي».

نهض لكي يغادر، لكنه استدار ببطء. أظنه بدأ يقول جملة، ربما توسلًا: «من فضلكما.. أرجوكما...»، لكن ذلك كان كل شيء. خرج وتركنا هناك، ودُهشنا نحن الاثنين.

بعد أن غادر أبي، خطر ببالي أن بوجا كان أيضًا فطرًا مدمرًا لذاته، فطرًا يسكن جسم كائن ثم يتسبب تدريجيًّا في تدميره. كان هذا هو ما فعله بإيكينا. أولًا، نزل بمعنويات إيكينا إلى الحضيض، ثم أفرغه من الروح بأن أحدث ثقبًا قاتلًا في جسده سالت منه دماء إيكينا وشكَّلت نهرًا أحمر من تحته، بعدها، شأنه شأن بني جنسه، انقلب على نفسه وقتلها.

كان أوبمبي أول من أخبرني أن بوجا قتل نفسه. استجمع أوبمبي من الناس الذين احتشدوا في دارنا أن المسألة لا بد أن تكون هكذا، وانتظر لكي يخبرني بالأمر. وفور أن غادر أبي الغرفة، استدار إليَّ وقال: «هل تعرف ما فعله بوجا؟».

لدغني سؤاله بقوة.

تابع أوبمبي: «هل تعرف أننا شربنا الدم من جرحه؟».

هززت رأسي.

«اسمع، أنت لا تعرف أي شيء. ألا تعرف أن هناك ثقبًا كبيرًا في رأسه؟ أنا.. رأيت.. ذلك! ونحن أعددنا شايًا من ماء هذه البئر صباح اليوم، وشربنا جميعًا منه».

لم أفهم ذلك، لم أفهم كيف استطاع أن يظل هناك طوال هذا الوقت. «إن كان هناك، هناك طوال الوقت، هناك...»، شرعتُ أقول لكنني توقفت.

قال أوبمبي: «أكمل».

«إن كان هناك طوال ذلك الوقت، هناك.. هناك»، تلعثمتُ.

قال: «أكمل».

«حسنًا، إن كان هناك فكيف لم نره في البئر عندما جلبنا الماء منه صباح اليوم؟».

«لأن الأشياء عندما تغرق، لا تصعد على الفور. اسمع، هل تتذكر السحلية التي سقطت في برميل المياه عند كايودي؟».

أومأت برأسي.

«والطائر الذي سقط في البئر قبل سنتين؟».

أومأت ثانيةً.

«بالضبط مثل هذين. يحدث الأمر بهذه الطريقة»، أشار بتعب إلى النافذة وكرر: «بهذه الطريقة.. يحدث الأمر بهذه الطريقة».

نهض عن الكرسي، وتمدد فوق السرير، وغطى نفسه بالربَّا التي أعطتها لنا أمي، المطبوع عليها صور متكررة لنمر. تابعتُ حركة رأسه فيما كان صوت نشيج مكتوم يتعالى من تحت الغطاء. جلست ساكنًا، ثابتًا في مكاني، شاعرًا بتهيُّج تدريجي في أمعائي، وكأن أرنبًا بريًّا صغيرًا يقضمها من الداخل. استمر القضم، وشعرت فجأة بطعم حامض في فمي، فتقيأت كتلة من الطعام الرطب في عجينة سائلة على الأرض، وتلت هذه الدفقة نوبات من السعال. انحنيت إلى الأرض ورحت أسعل أكثر فأكثر.

قفز أوبمبي من سريره إليَّ: «ماذا؟ ماذا حدث لك؟».

حاولت أن أجيب، لكنني لم أستطع، فالأرنب كان يواصل الخمش بقوة أكبر داخل عظامي، وشهقت لأتنفس.

قال: «إيه، ماء. دعني أحضر إليك بعض الماء».

أومأت برأسي.

جلب لي ماءً، ورشه على وجهي، لكنني شعرت أني مغمور بالماء، كأنني أغرق. شهقت فتقاطرت الحبات على وجهي فمسحتها باهتياج.

سألني: «هل أنت بخير؟».

أومأت برأسي وغمغمت: «نعم».

«عليك أن تشرب بعض الماء».

غادر وعاد بماء في كأس.

قال: «خذ. اشرب. لا تخف بعد الآن».

عندما قال ذلك، تذكَّرت ونحن عائدون من ملعب لكرة القدم ذات مرَّة قبل أن نبدأ الصيد، كيف قفز كلب من إحدى الغرف الهيكلية لبناية غير مكتملة، ونبح علينا. كان الكلب نحيلًا، أعجف إلى درجة أن ضلوعه يمكن أن تُعدَّ بسهولة، وكانت بقع وجروح طازجة تغطي جسده مثل نمش على ثمرة أناناس. تقدَّم الحيوان المسكين في اتجاهنا بخطى متقطعة، وعدوانية، كأنه ينوي مهاجمتنا. ومع أنني أحب الحيوانات، لكني أخاف من الكلاب والأسود والنمور، وكل الحيوانات التي تنتمي إلى عائلة القطط، لأنني قرأت عنها كثيرًا، وعرفت كيف تمزق الناس وغيرها من الحيوانات إربًا إربًا. صرختُ عند رؤية الكلب، وتشبثتُ ببوجا، ولكي يُهدئ من روعي، التقط حجرًا وصوَّبه نحو الكلب. أخطأ الحجر الكلب، لكنه أخافه كثيرًا حتى راح ينبح، ويمد فمه على نحو آلي، ثم مضى بعيدًا وهو يهز ذيله الرفيع، مخلفًا آثار أقدامه على التراب. بعدها قال لي بوجا وهو يستدير: «رحل الكلب يا بِنْ، لا تخف بعد الآن». وفي تلك اللحظة، اختفى خوفي.

بينما أشرب من الماء الذي جلبه أوبمبي، سمعت الفورة المفاجئة من الهرج بالخارج. كان ثمة صفارة إنذار تصدح من مسافة قريبة. ومع ارتفاع الضجيج، راحت أصوات تصرخ في الناس وتأمرهم أن يتركو**هم** يدخلون. كان من الواضح أن سيارة إسعاف قد وصلت. واجتاحت دارنا جلبة عالية، فيما كان الرجال يحملون جسد بوجا المنتفخ إلى سيارة الإسعاف. هرع أوبمبي إلى نافذة غرفة الجلوس ليشاهدهم وهم يحملون جثمان بوجا إلى داخل السيارة، حريصًا على ألا يراه أبي، ومحاولًا أن يتابعني بنظره في الوقت نفسه. عاد إليَّ عندما بدأت صفارة الإنذار تصدح ثانيةً، ولكن في هذه المرَّة على نحو يصمُّ الآذان. كنت قد شربت الماء وتوقفت عن التقيؤ، لكن عقلي لم يستطع التوقف عن الدوران.

فكرت فيما قاله لي أوبمبي يوم دفع إيكينا بوجا إلى الصندوق المعدني. كان جالسًا بهدوء في ركن غرفتنا، محتضنًا

نفسه كأنه مصاب بالبرد، ثم سأل إن كنت رأيت ما في جيب إيكينا عندما دخل إلى غرفتنا في وقت سابق.

أجبته: «لا، ماذا كان؟»، لكنه اكتفى بالتحديق، دائخًا، وفمه مغلق بالكاد، حتى إن قواطعه الكبيرة ظهرت أكبر من حجمها الحقيقي. مضى إلى النافذة، ووجهه لا يزال مملوءًا بتلك النظرة. أطلق عينيه إلى الخارج حيث كان موكب طويل من النمل المحارب يسير على طول السور الرطب من أثر أيام المطر الطويلة، وثمة خرقة من القماش ملتصقة به، تقطر الماء في خط طويل ينزلق ببطء إلى أسفل الجدار، وسحابةعالقة في الأفق فوق الجدران.

انتظرت بصبر أن يجيبني أوبمبي، لكن عندما طال الوقت سألته ثانيةً.

أجابني دون أن يستدير ناحيتي: «إيكينا كان معه سكين.. في جيبه».

اعتدلتُ في جلستي، وهرعت إليه كأن وحشًا دق الجدار واقتحم الغرفة ليلتهمني، وسألته: «سكين؟».

قال وهو يومئ برأسه: «نعم. لقد رأيته. سكين المطبخ الخاص بأمي، ذلك الذي قَتل به بوجا الديك». هز رأسه ثانيةً، ثم كرر، وهو يحدق في السقف أولًا، وكأن شخصًا هناك قد أومأ إليه مؤكدًا صحة ما قاله: «كان معه سكين»، ثم قال، وقد انقبض وجهه الآن وخفت صوته: «ربما أراد أن يقتل بوجا».

بدأت صفارة الإسعاف نواحها مرة أخرى، وارتفع ضجيج الحشد إلى درجة تصم الآذان، فتراجع أوبمبي عن النافذة واتجه إليَّ.

«لقد أخذوه»، قالها أوبمبي بصوت مبحوح، وكررها وهو يمسك بيدي ويمددني برقة. كانت ساقاي قد وهنتا من القرفصة حين كنت أتقيأ على الأرض.

قلت: «شكرًا».

أومأ برأسه.

«سوف أنظف هذا وآتي لأرقد إلى جوارك. ارقد هناك فحسب»، قالها واتجه نحو الباب، وكأن فكرة راودته فجأة، توقف وابتسم، وقد التصقت لؤلؤتان بمقلتيه.

ناداني: «بِنْ».

«نعم؟».

«لقد مات إيكي وبوجا». ارتعش فكه، وزمَّ شفتيه، بينما انزلقت اللؤلؤتان راسمتين مساريهما بخطين سائلين توأمين.

ولأنني لم أعرف ماذا أفعل بما قاله، أومأت برأسي، فاستدار وغادر الغرفة.

أغمضت عينيَّ بينما كان ينظف الأوساخ بالمجرفة، وقد انشغل عقلي بتخيل طريقة موت بوجا، كيف قتل نفسه وفقًا لروايتهم؟ تخيلته يقف فوق جثة إيكينا بعدما طعنه، نائحًا، وقد أدرك فجأة أنه سَلَب حياته مثل لص ينهب كهفًا مليئًا بالكنوز القديمة. لا بد أنه رأى مستقبله. لا بد أنه فكر في الأيام التي تنتظره فارتعب. لا بد أن تلك الأفكار ولَّدت الشجاعة الشنيعة التي دوَّرت الفكرة الانتحارية مثل مورفين في أوردة عقله، مُطلقةً عملية موته البطيئة. ومع موات عقله، لا بد أنه وجد سهولة في تحريك ساقيه، وفي رفع جسده، والخوف والشك يخيطان عقله خيطًا بعد خيط، والعُقد تكبر وتتكور فوق النسيج، حتى قفز قفزته، برأسه أولًا، مثل غواص، كما كان يغطس دائمًا في «أومي-ألا». لا بد أنه شعر على الفور بدفقة من الهواء تجتاح عينيه وهو يغوص، بصمت، من دون آهة ولا كلمة. لا بد أنه لم يشعر بزيادة في نبضه أو تسارع في خفقان قلبه وهو يغوص إلى أسفل؛ بالأحرى، لا بد أنه حافظ على هدوء وسكينة عجيبتين. في تلك الحالة العقلية، لا بد أنه لمح تجليًا وهميًّا، «مونتاج» من الصور لماضيه، لا بد أنه كان يتكون من صورٍ ثابتة له: بوجا في الخامسة من عمره وهو يعتلي فرعًا عاليًا من فروع شجرة اليوسفي في دارنا، مغنيًا «الصبي الطرزان» لفرقة «بالتيمورا». بوجا ابن الخمسة أعوام ببنطال مبقع بالبراز عندما طُلب منه أن يقف أمام المدرسة بأكملها ويقود طابور الصباح في «صلاة الرب». بوجا ابن العشرة أعوام الذي لعب دور يوسف النجار، زوج مريم أم يسوع في مسرحية عيد الميلاد في كنيستنا سنة 1992، وقال: «يا مريم، لن أتزوجك لأنك **أشيوو!**»، فأذهل الجميع. بوجا، الذي قال له

«M.K.O» ألّا يحارب أبدًا، **أبدًا!** بوجا الذي كان صيادًا متحمسًا في وقت سابق من هذا العام. ربما تجمّعت تلك الصور في عقله مثل سرب من النحل في قفير وهو يغطس أكثر فأكثر حتى اصطدم بقاع البئر صدمةً حطمت القفير فتناثرت الصور.

تصورتُ أن الغطسة كانت سريعة بلا شك، ومع غوص رأسه، لا بد أنه اصطدم أولًا بالصخرة الناتئة من جنب البئر، وهذه الصدمة تلاها صوت انفلاق، وتهشُّم جمجمة، وتحطُّم عظام، وخرخرة دماء، ثم انسكابها ودورانها في رأسه. لا بد أن مخه تناثر أشتاتًا، والأوردة التي تربطه ببقية أجزاء رأسه تفككت. لا بد أن لسانه اندفع خارج فمه لحظة الاصطدام، وتمزَّقت طبلة أذنه مثل وشاح عتيق، وانسكب عُشر أسنانه داخل فمه مثل حفنة من النرد. تفاعلات متزامنة صامتة لا بد أنها تلت ذلك. لبرهة، لا بد أن فمه ظل ينطق بشيء غير مسموع، مثل قِدرٍ من الماء تغلي وتبقبق فيما يتشنج جسده. لا بد أن هذا كان ذروة الأمر. لا بد أن التشنج تراجع تدريجيًّا، والهدوء عاد إلى عظامه، وسلامٌ ليس من هذا العالم نزل عليه مهدهدًا، حتى همد بلا حراك.

11
العناكب

تقول الأم عندما تجوع: «حمِّر شيئًا لأطفالي يأكلونه»
مَثل من الأشانتي

العناكب دواب أحزان.

كائنات يؤمن شعب الإغبو بأنها تعشش في بيوت المكلومين، تغزل المزيد من الشباك، وتنسج بلا صخب، على نحو مؤلم، حتى يتمدد غزلها ويغطي مساحات هائلة. ظهرت مثل واحدة من الأشياء الكثيرة التي تغيرت في هذا العالم بعد أن مات شقيقاي. في الأسبوع الأول بعد وفاتهما، راودني شعور بأن المظلة القماشية التي نختبئ تحتها معًا تمزَّقت إربًا، فتركتني في العراء. بدأت أتذكر شقيقيَّ، أفكر في التفاصيل الدقيقة لحياتهما، عبر تلسكوب من الإدراك المتأخر يعظِّم كل تفصيل، وكل فعل صغير، وكل حدث. لكن ما تغيَّر بعد الأحداث لم يكن عالمي وحدي؛ لقد عانينا جميعًا بأشكال مختلفة: أبي، وأمي، وأوبمبي، وأنا، وديفيد، وحتى نكيم. وفي الأسابيع القليلة الأولى بعد موتهما، كانت أمي صاحبة المعاناة الأعظم.

شيَّدت العناكب ملاجئ مؤقتة، وعششت في بيتنا كما يؤمن شعب الإغبو أنها تفعل عندما يكون الناس في حالة حداد. تقدَّمت في غزوها خطوة أبعد، فغزت عقل أمي. كانت أمي أول من لاحظ العناكب والمدارات الناتئة المتشبثة بالسقف بكلَّابات تشبه الخيوط؛ لكن ذلك لم يكن كل شيء. بدأت ترى إيكينا يتجسس علينا من دروع العناكب المُعلَّقة في المدارات، أو ترى عينيه تنظران عبر التشكيلات اللولبية. واشتكت منها: **ندي أجو إيفي** - تلك المخلوقات القشرية، الحرشفية، المرعبة، تخيفها، تجعلها تبكي وهي تشير إليها، حتى قام أبي - في محاولة لتهدئتها، وقد تعرض لضغوط قوية من ماما بوسي، الصيدلانية، وإيا إيابو، لكي يصغي إلى صوت امرأة مكلومة بغض النظر عن عبثية طلبها - بإزالة كل مأوى شبكي في البيت، وسحْق العديد من العناكب على الجدران، ثم تابع بطرد أبراص الحائط، وخاض معركة ضد الصراصير، التي كاد تكاثرها يتحول إلى خطر متوعد. ساعتها فقط حل السلام من جديد؛ لكنه كان سلامًا أعرج متورم القدمين؛ إذ سرعان ما بدأت أمي، بعد مغادرة العناكب، تسمع أصواتًا من الحافة. انتبهت فجأة إلى المناورات اللانهائية لجيش من الأرضَات العضَّاضة التي أدركَت أنها عششت في مخها وبدأت تقضم المادة الرمادية. كانت تقول للناس الذين يأتون لمواساتها إن بوجا سبق أن أخبرها في أحد الأحلام أنه سيموت، وكثيرًا ما حكت الحلم الغريب الذي راودها صبيحة وفاة إيكينا وبوجا للجيران وأبناء الكنيسة الذين اجتاحوا بيتنا مثل أسراب النمل في الأيام التالية للأحداث، رابطةً الحلم بالمأساة، لأن الناس في تلك المنطقة، بل في أفريقيا كلها، لديهم إيمان قوي بأن الأم قادرة على استبصار موت طفلها وثمرة رحمها.

أول يوم سمعتُ فيه أمي تحكي هذه التجربة - عشية جنازة إيكينا ـ هزتني ردة الفعل التي أعقبت ذلك. ارتمت ماما بوسي الصيدلانية على الأرض في عويل صاخب، وراحت تتأوه وهي تتقلب على الأرضية من أولها إلى آخرها: «أووووه، لا بد أنه كان إنذارًا من الرب. لا بد أنه كان إنذارًا من الرب بأن ذلك سيحدث، **أووووو، إيييييي**». كان الألم والأسى المنبعثان منها مسموعين في آهات بلا كلمات تتشكَّل من حروف متحركة متنافرة ممتدة إلى مستويات متهورة - أحيانًا بلا معنى على الإطلاق، لكن الموجودين أدركوا الفروق الدقيقة بينها. أكثر ما أثَّر في الحضور هو ما فعلته أمي بعد أن روت القصة. وقفَت بالقرب من روزنامة البنك المركزي المُعلَّقة على الحائط، التي لا تزال مفتوحة على صفحة العُقاب - على شهر مايو - لأن أحدًا لم يتذكر تغييرها في الأسابيع الفظيعة التي شهدت التحول المسخي لإيكينا. صاحت أمي وهي

ترفع يديها إلى أعلى: «**إلو نا آلا** - السماء والأرض، انظرا إلى يديَّ كم هما نظيفتان. انظرا، انظرا إلى ندبة ميلادهما، لقد ماتا وهي لما تلتئم بعد». عندما قالت ذلك، رفعَت بلوزتها وأشارت أسفل سرتها. «انظروا إلى الثديين اللذين رضعا منهما، إنهما لا يزالان ممتلئين، لكن لم يعد لهما وجود». رفعت بلوزتها إلى أعلى - لكي تكشف ثدييها فيما يبدو ـ وخفَّت إحدى النساء إليها لتسحبها إلى أسفل ثانية، لكن بعد فوات الأوان، إذ رأى المنظر كل مَن بالغرفة تقريبًا: الثديين المعروقين بحلمتيهما البارزتين، في ضوء النهار الساطع.

أول مرة أسمع فيها أمي تحكي هذه القصة، راودني شعور بخوف مقبض أنني لو كنت أعرف أن الحلم يكون نذيرًا، لرأيت نذيرًا أكثر وضوحًا في حلم الجسر. أخبرتُ أخي بالحلم بعد أن قصَّت أمي حلمها، وقال إنه نذير. روت أمي ذلك للقس كولينز راعي كنيستنا، وزوجته، بعدها بأسبوع أو نحو ذلك. لم يكن أبي في البيت في ذلك الوقت. كان قد ذهب لشراء البنزين من إحدى المحطات في ضواحي البلدة، حيث رفعت الحكومة أسعار الوقود في الأسبوع الذي عثرنا فيه على بوجا من اثنتي عشرة نايره إلى إحدى وعشرين نايره، مما جعل المحطات تخزن البنزين وتتسبب في طوابير طويلة لا تنتهي أمام المحطات في كل أنحاء البلاد. ظل أبي في واحدة منها منذ العصر وحتى أول المساء قبل أن يرجع بسيارته وقد ملأ خزانها، وبرميل مملوء بالبنزين في صندوق السيارة. ولما كان متعبًا، توجه مباشرة إلى إحدى الأرائك، «عرشه»، وغاص فيها. كان لا يزال يخلع قميصه المتعرق عندما بدأت أمي تخبره بأمر الناس الذين اتصلوا في ذلك اليوم. جلسَت إلى جواره، غافلة عن رائحة نبيذ النخيل القوية التي عادت معه مثل ذبابات تتعقب بقرة مثخنة بجراح طازجة. تحدثت إليه لوقت طويل حتى صرخ فيها: «كفى!».

«قلت كفى!»، كررها، ونهض على قدميه، والعروق النافرة تكاد تشق ذراعيه العاريتين وهو واقف فوق أمي، التي تنشج وتشبك يديها على فخذيها. «ما هذا الهراء الذي تحكينه لي؟ إيه، **يا صديقتي**؟ هل أصبح منزلي الآن حديقة حيوانات ضالة لكل كائن حي في هذه البلدة؟ كم شخصًا سوف يأتي للتعزية؟ قريبًا ستأتي الكلاب، ثم الماعز، والضفادع، وحتى القطط منتفخة الأوداج. ألا تعرفين أن هؤلاء الناس ليسوا سوى ندَّابين يصرخون أعلى من أصحاب المصاب؟ ألا يوجد حد لهذا الأمر؟».

لم ترد أمي عليه. تحولت بعينيها إلى فخذها المغطى بربًّا حال لونها، وهزت رأسها وهي تحدق فيها. رأيت الدموع تتراكم في عينيها، على ضوء مصباح الكيروسين على الطاولة أمامهما، واقتنعتُ بعد ذلك أن تلك المواجهة كانت الإبرة التي نكأَت جرحها النفسي فبدأ ينزف منذ ذلك اليوم. كفت عن الكلام، وبدأ الصمت يُنمِّل عالمها بأكمله، وصارت تجلس في البيت صامتةً تحدق بعنف في اللاشيء. وفي معظم الأوقات، حين يتحدث إليها أبي، تكتفي بالتحديق فيه كأنها لم تسمع شيئًا على الإطلاق. هذا اللسان، الذي صار الآن متجمدًا، اعتاد أن ينتج كلمات مثلما تنتج الفطور الجراثيم. في عهدها السابق، كانت تتألم فيثِب الكلام من فمها مثل النمور، أما في اتزانها فينسكب مثل ماء متدفق من ماسورة مكسورة. لكن منذ تلك الليلة فصاعدًا، صارت الكلمات تتجمَّع في مخها، ونادرًا ما تتسرَّب خارجه، فتتخثَّر في عقلها. لكن عندما بدأ أبي - وقد اغتاظ من الصمت - يناكفها كل يوم، كسرت نظام الصمت، وراحت تشكو كثيرًا من حضورٍ قالت إنه روح بوجا القلقة. وعندما حلَّت الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر، كانت الشكاوى قد تحولت إلى تذمر يومي لم يستطع أبي احتماله أكثر من ذلك.

«كيف لامرأة من بنات المدينة أن تؤمن بهذه الخرافات؟»، هكذا انفجر في أمي ذات صباح بعد أن أخبرته أنها شعرت ببوجا يقف في المطبخ وهي تطبخ. «كيف، **يا صديقتي**؟».

ثارت ثائرة أمي، وجُن جنونها، فردت عليه صارخة: «كيف تجرؤ على قول ذلك يا إيمي؟ كيف تجرؤ؟ ألستُ أم هذين الطفلين؟ ألا أعرف عندما تزعجني روحاهما؟».

مسحت يديها المبللتين في الربًّا الخاصة بها، فيما قبض أبي، وهو يصر على أسنانه، على جهاز التحكم عن بُعد، ورفع صوت التلفزيون حتى عَلَت تعاويذ ممثل اليوروبا مهددة بإغراق صوت أمي.

وبَّخَته قائلة، وهي تصفق بيديها معًا: «تستطيع التظاهر بأنك لا تسمعني، لكنك لا تستطيع التظاهر بأن طفلينا ماتا ميتة طبيعية. إيمي، أنا وأنت نعرف ذلك! اخرج وانظر. **آ نا إيمي يي إيمي** - ليس هذا هو المعتاد، في أي مكان. الآباء لا يجب أن يدفنوا أولادهم! العكس هو ما يجب أن يحدث!».

مع أن التلفزيون كان لا يزال مفتوحًا، والموسيقى التصويرية لأحد الأفلام تصدح مثل صفارة إنذار من الشاشة، إلا أن كلمات أمي لفَّت الغرفة بلحاف من الصمت. كان الأفق في الخارج مغطى بضباب رمادي من السحب الثقيلة. وفور أن غاصت أمي في إحدى الأرائك، بعد أن أنهت حديثها، شقت السماء انفجارات من الرعد، مرسلة وشيشًا من الريح المشبَّعة بالمطر صفعت باب المطبخ فأغلقته، وانقطعت الكهرباء في لحظة، فغرقت الغرفة في الظلام. أغلق أبي النوافذ، لكنه ترك الستائر لتُدخل بقايا الضوء من الخارج. عاد إلى كرسيه، صامتًا، محاطًا بجحافل استولدتها كلمات أمي.

***

راحت المساحة التي تشغلها أمي في فراغ الوجود تتضاءل تدريجيًّا مع مرور الأيام. أصبحَت محاصرة بالكلمات العادية، والمجازات الشائعة، والأغاني المألوفة، التي تحولت جميعها إلى عفاريت غرضها الوحيد أن تطمس وجودها. جسد نكيم المألوف، بذراعيه الطويلتين، وشعرها الطويل المجدول - وهي الأشياء التي كانت تعبدها عبادة - تحول فجأة إلى شيء بغيض. وذات مرَّة، عندما حاولت نكيم أن تجلس على حِجرها، قالت: «هذا الشيء يحاول تسلق حجري»، فأفزعت الفتاة الصغيرة، وانتبه أبي، الذي كان غائبًا في عالم «الجارديان» في ذلك الوقت.

سألها ملتاعًا: «يا ربي! هل أنتِ جادة يا أداكو؟ هل تعاملين نكيم بهذه الطريقة؟».

أحدثت كلمات أبي تغييرًا عنيفًا في قسمات وجه أمي، كأنما كانت عمياء وعاد إليها بصرها فجأة. حدقَت في نكيم تتفحَّصها بوهن، وانفغر فمها، ثم تمتمت وهي تجيل نظرها من نكيم إلى أبي ثم إلى نكيم ثانية: «نكيم»، ولسانها يترجرج داخل فمها كأنه نُزع من مفصله. رفعت رأسها ثانية، وقالت: «إنها نكيم، ابنتي» بنبرة بدت في آنٍ واحد تقريرية، واستفسارية، واقتراحية.

نهض أبي، وكأن قدميه تسمرتا إلى الأرض، ولم يتكلم مع أن فمه كان مفتوحًا.

عندما قالت أمي ثانيةً: «لم أعرف أنها هي»، أومأ أبي برأسه، ورفع نكيم، التي كانت تنتحب وتمص إبهامها، إلى صدره، وخرج بهدوء من المنزل.

بدأت أمي في البكاء ردًّا على ذلك، ثم قالت: «لم أعرف أنها هي».

في اليوم التالي، أعد أبي الإفطار، بينما راحت أمي، وقد ارتدت ملابس ثقيلة كأنها مريضة بالبرد، تنشج في سريرها، ورفضت النهوض. رقدَت هناك طيلة النهار إلى أن حل الليل فخرجت من غرفتها ونحن جميعًا جالسون نشاهد التلفزيون مع أبي.

سألَت، وهي تشير في أرجاء الغرفة: «إيمي، هل ترى البقرة البيضاء التي ترعى هنا؟».

«ماذا؟ أي بقرة؟».

رمَت برأسها إلى الخلف، وضحكَت ضحكة مبحوحة. كانت شفتاها جافتين ومتشققتين.

سألَت ثانية، وهي تفتح كفها: «ألا ترى البقرة التي تأكل العشب هناك؟».

«أي بقرة، **يا صديقتي**؟». كانت قد قالتها بعينين توحيان باقتناع شديد، حتى إن أبي جال بنظره للحظة في الغرفة كأنه يتوقع أن يرى بقرة بالفعل.

«إيمي، هل عميتَ؟ ألا تستطيع رؤية هذه البقرة البيضاء الزاهية؟».

أشارت إليَّ وأنا جالس على كرسي منعزل واضعًا وسادته على حجري. لم أُصدق. كنت مندهشًا جدًّا، واستدرت لأرى - وكأن الأمر ممكن - إن كانت هناك بقرة وراء الكرسي الذي أجلس عليه، ثم أدركت أن أمي تقصدني أنا.

تابعَت، وهي تشير إلى أوبمبي وديفيد: «انظر، هاك واحدة، وهاك أخرى، وهاك واحدة تأكل في الخارج، وواحدة في

الغرفة. إنها ترعى في كل مكان. إيمي، لماذا لا تراها؟».

هدر أبي: «هل يمكن أن تخرسي؟ عمَّ تتكلمين؟ رباه! متى أصبح أطفالك أبقارًا يرعون في منزلنا؟».

شدها ودفعها في اتجاه غرفة نومهما. ترنَّحَت، وشعرها المجدول ينسكب على وجهها، وثدياها الهائلان يتراقصان في الجاكيت الرمادي.

صرخَت وهي تتملص: «اتركني، اتركني، اتركني أشاهد البقرات البيضاء الزاهية».

«اخرسي!»، راح أبي يصرخ فيها عند كل مرَّة تتحدث.

زعق صوتها بارتباك، فيما كان أبي يدفعها إلى الأمام. انفجرت نكيم في النواح لرؤية عراكهما، ومد أوبمبي يديه وحملها، لكن ساقيها راحتا تتراقصان أمامه، وهي تنوح أعلى وأعلى طالبة أمها. جرجر أبي أمي إلى غرفتهما وأوصد الباب. بقيا هناك لفترة طويلة، وأصواتهما تتعالى على فترات. في النهاية، خرج أبي وطلب منا أن نذهب إلى غرفتنا، وطلب من ديفيد ونكيم أن يظلا معنا قليلًا إلى أن يخرج ويأتي ببعض الخبز، فوافقا. كانت الساعة السادسة مساء تقريبًا، وفور أن أوصدنا بابنا، سمعنا أصوات أقدام تتحرك في المكان، والباب يُفتح ويُصفع في الجدار، والصرخة المهتاجة: «إيمي، اتركني لحالي، اتركني، إلى أين تأخذني؟»، ثم صوت أنفاس أبي المجهدة، وبعدها صوت انغلاق باب البيت بصوت عنيف.

اختفت أمي لأسبوعين. كانت، كما سيتبين لي لاحقًا، في مستشفى للأمراض النفسية، معزولة كأنها مادة متفجرة خطيرة. كان ثمة انفجار مفجع في عقلها، ونُسف إدراكها للعالم المعروف نسفًا، وصار أشتاتًا. أصبحت حواسها فائقة الحساسية، حتى صار صوت ساعة العنبر في أذنها أعلى ضجيجًا من صخب ماكينة الحفر، وصارت تسمع صوت الفأر كجلجلة أجراس عدة.

أصابها رُهاب مدمر من الظلام، فأصبحت في كل ليلة أمًّا حُبلى تلد ما في أحشائها من أشتات مرعبة، وتضاءلت الأشياء الكبيرة إلى منمنمات، بينما تضخمت الأشياء الصغيرة، وانتفخت، وتحولت إلى وحوش. أحاطت بها فجأة أوراق «الأتشارا» المتحركة، ذات السويقات الطويلة العملاقة الوخَّازة، التي لها قدرة غير طبيعية على النمو في كل دقيقة، وبدأت تعتصرها بطيئًا إلى خارج الوجود. عذَّبتها رؤيا متعلقة بهذه النبتة، وبالغابة التي صارت مقتنعة أنها فيها، وبدأت ترى المزيد من الأشياء. والدها، الذي فجرته نيران المدفعية فمزقته إربًا إربًا بينما كان يحارب على جبهة «بيافرا» أثناء الحرب الأهلية سنة 1969، صار يأتي كثيرًا لكي يرقص وسط غرفة المستشفى. في معظم الأحيان، كان يرقص ويداه في الهواء، بجسده السابق على الحرب، وفي أوقات أخرى، حيث يتعالى صراخها أكثر فأكثر، يأتي ليرقص في جسد ما بعد الحرب وفي أثنائها، بيد متحركة والأخرى قطعةٌ لحمية دامية. كان يغرِّر بها أحيانًا، ويتودد إليها لكي ترقص معه. لكن بين كل ذلك، كانت الرؤى المتعلقة بالعناكب الغازية هي الأفظع. وفي نهاية أسبوعها الثاني في المصحة، كان كل خيط من شبكة عنكبوت قد أزيل من الجوار، وكل عنكبوت سُحق إلى فتات. وبدا أنها مع كل عنكبوت يُسحق، ومع كل لطخة على الحائط، تقترب أكثر من الشفاء.

كانت أيام ابتعادها عن البيت صعبة، وفيها راحت نكيم تصرخ بلا انقطاع تقريبًا، رافضة أن يهدئها أحد. حاولتُ كثيرًا أن أغني لها الأغاني، والتهويدات التي كانت أمي تغنيها لها، لكنها لم تقبل. كذلك كانت محاولات أخي محض طقوس سيزيفية. عندما رجع أبي ذات صباح ورأى نكيم في تلك الحالة من الحزن العاجز، أعلن أنه سيأخذنا لرؤية أمي، فتوقفت نكيم عن النواح على الفور. وقبل أن نغادر، قام أبي، الذي أصبح يُعدُّ كل الوجبات منذ غادرت أمي، بإعداد الإفطار - خبزًا وبيضًا مقليًّا. بعد الإفطار، تبعه أوبمبي إلى دار إغبافي لجلب بعض دلاء الماء، حيث لا تزال بئرنا موصدة منذ أن سُحب بوجا منها. ثم استحممنا واحدًا بعد الآخر وارتدينا ملابسنا. ارتدى أبي قميصًا أبيض كبيرًا برقبة اصفرَّت من الغسيل، وقد ترك لحيته تنمو على غير العادة، فتغير مظهره تمامًا. تبعناه جميعًا إلى السيارة، وجلس أوبمبي في الأمام معه، وأنا وديفيد ونكيم في المقعد الخلفي. لم ينطق بشيء، فقط أغلق الباب، وأنزل النافذة، وشغل المحرك.

قاد بصمت في الشوارع التي ضجت بالحياة في ذلك الصباح. أخذنا الطريق الذي يدور حول الاستاد الكبير ذي الأضواء الكاشفة، وحيث يتأرجح عدد لا يُحصى من الأعلام النيجيرية. كان تمثال «أوكواراجي» الضخم، الذي كثيرًا ما أصابني بالرهبة، يحوم فوق هذا الجزء من البلدة. ظللت أنظر إليه، ولاحظتُ طائرًا ضخمًا حالك السواد يشبه النسر، جاثمًا فوق رأسه. مضينا على الجانب الأيمن من الطريق ذي الحارتين الذي يقود خارجًا من شارعنا، حتى وصلنا إلى السوق المفتوحة الصغيرة في الفَسَحة المحاذية للطريق. هدأت السيارة، وهي تراوغ الجزء غير الممهد من الطريق حيث يتناثر التراب. كانت هناك دجاجة نافقة راقدة على أحد جانبي الحارة، مفلطحة على الأسفلت، وريشها متناثر حولها. بعد بضعة أمتار رأيت كلبًا يتغذى على محتويات كيس قمامة ممزق، ورأسه ضائع في الكيس. من هناك، تحركت السيارة بحذر بين الشاحنات الثقيلة وسيارات النقل ذات المقطورة المرصوصة على جانبي الطريق. وقف شحاذون يمسكون بلافتات تعلن عن مآسيهم - **أنا أعمى، أرجوك ساعدني**، أو، **لورانس أوجو، ضحية حريق يريد مساعدتك** - مثل حراس شرف على جانبي الممر داخل السوق المفتوحة. عرفت أحدهم لأنني كنت أراه في كل مكان في شارعنا - بجانب الكنيسة، بجوار مكتب البريد، بالقرب من مدرستي، وحتى في السوق - يزحف على عربة صغيرة بعجلات، ويداه مقفزتان بـ«شبشب» منكمش. وعند مرورنا أمام محطة إذاعة «أوندو» التابعة للدولة، التحمنا على نحو مرتبك بحركة المرور حول الميدان في قلب أكوري، وقد انتصبت في وسطه تماثيل ثلاثة رجال يضربون على «الطبول المتكلمة» التقليدية. وحول اللوحة الإسمنتية أسفل التماثيل كان ثمة صبَّارات تكافح للنمو وسط الحشائش الصغيرة. أوقف أبي سيارته أمام البناية الصفراء، وجلس لدقيقة في السيارة كأنه أدرك لتوِّه أنه ارتكب خطأ. عندها فقط، لاحظتُ لماذا حاد أبي من ذلك الطريق؛ فمن السيارة التي أمامنا مباشرة، ترجل مجموعة من الناس يحيطون برجل في منتصف العمر، يضحك على نحو مجنون، ويؤرجح عضوه الذكري الكبير الذي يبرز من فتحة بنطاله. كان هذا الرجل مثل أبولو غير أنه أفتح بشرة وأحسن منظرًا. فور أن رآه أبي، استدار إلينا على الفور وقال بصوت عالٍ: «يا أولاد! أغمضوا أعينكم ودعونا نصلي من أجل أمكم.. بسرعة!».

استدار على الفور ورآني لا زلت أحدق في الرجل.

زعق: «كلكم، أغمضوا أعينكم الآن!». ظل يراقبنا ليتأكد أننا جميعًا انصعنا، ثم قال: «بنجامين، قُد أنت الصلاة».

«أمرك يا أبي»، قلتها، وأنا أتنحنح، ثم بدأت أصلي بالإنجليزية، اللغة الوحيدة التي كنت أعرف الصلاة بها. «باسمك يا يسوع، الرب السيد، أسألك أن تساعدنا.. أن تباركنا، رباه، أرجوك اشف ماما، أنت الذي تشفي المرضى، اليعازر وغيره، اجعلها تكف عن الكلام مثل المجانين بحق يسوع الذي صلينا باسمه».

ردد الجميع معًا: «آمين!».

عندما فتحنا عيوننا، كانت المجموعة قد وصلت إلى مدخل المستشفى، لكن كفل الرجل المعتوه كان لا يزال مرئيًّا وهو يُدفع إلى داخل المستشفى. توجه أبي إلى باب المقعد الخلفي وفتحه من الجهة التي أجلس فيها، وكانت نكيم محشورة بيني وبين ديفيد.

شرع يقول، وعيناه الحمراوان بلون الدم تحدقان في وجوهنا: «اسمعوا، **يا أصدقائي**، أمكم ليست مجنونة. اسمعوا، جميعًا، عندما تدخلون إلى هناك، لا تنظروا يمينًا ويسارًا، فقط انظروا أمامكم. فما ترونه داخل تلك القاعات سوف يظل في عقولكم. من يسيء السلوك منكم سأعطيه «عطيَّة» عندما نرجع إلى البيت».

أومأنا جميعًا برؤوسنا موافقين، واصطففنا واحدًا بعد آخر يقودنا أوبمبي، وأبي إلى جانبه وأنا في المؤخرة. مضينا عبر الصف الطويل من الأزهار الذي يقود إلى مدخل البناية الكبيرة التي كانت أرضها مبلطة بالكامل وتفوح برائحة اللافندر. دخلنا قاعة كبيرة مليئة بأناس يثرثرون. حاولت ألا أنظر، لكيلا أُجلد، لكنني لم أستطع المقاومة. وهكذا عندما ظننت أن أبي لا ينظر، التفتُّ إلى اليسار، وسقطت عيناي على فتاة شاحبة بعنق طويل نحيل تتحرك بصورة آلية كأنها روبوت، ولسانها يمتد طويلًا خارج فمها، وشعرها خفيف وشاحب للغاية يُظهر فروة رأسها. كنت مرتعبًا، وعندما استدرت إلى

أبي رأيته يتناول بطاقة زرقاء من امرأة ترتدي زيًّا أبيض على الجانب الآخر من مكتب الاستقبال، ويقول: «نعم، كلهم أطفالها، سيدخلون معي».

عندما قال هذا، وقفت المرأة خلف المنضدة الزجاجية على قدميها ونظرت إلينا.

دمدم أبي: «أطفالها».

سألته المرأة: «هل أنت متأكد أنهم يستطيعون رؤيتها في تلك الحالة؟!».

كانت فاتحة البشرة، ترتدي مريلة بيضاء، وقبعة التمريض تجلس بثبات فوق شعرها المزيَّت على نحو جميل، والبطاقة المُعلَّقة على قمة صدرها مكتوب عليها: **نكيتشي دانيال**.

دمدم أبي: «أظن أنه لا بأس. لقد حسبتُ التبعات بحرص، وأظن أنني أستطيع إدارة الأمور».

هزت المرأة رأسها غير موافقة.

قالت: «لدينا هنا قواعد يا سيدي، لكن من فضلك أعطني دقيقة واحدة، دعني أسأل رئيسي».

قال أبي: «حسنًا».

بينما ننتظر هناك، متجمعين حول أبي، لم أستطع تجنب الإحساس بأن عينَي الفتاة الشاحبة مثبتتان عليَّ. في المقابل، حاولت التركيز على الروزنامة المُعلَّقة على الجدار الخشبي للغرفة الصغيرة خلف المنضدة، وعلى الصور العديدة للأدوية والتعليمات الطبية. كانت إحداها صورة ظليَّة لامرأة حامل تحمل طفلًا على ظهرها وإلى جانبيها صغيران آخران، وعلى بُعد قليل منها وقف رجل يبدو أنه زوجها، وكان هناك طفل يجلس على كتفه، وواحد في طولي تقريبًا يقف أمامهما يحمل سلة مجدولة من ليف النخل. لم أتمكن من رؤية الكتابة تحتها، لكنني خمَّنت: واحد من الإعلانات العديدة ضمن حملة الحكومة الشرسة لتنظيم النسل.

عادت الممرضة وقالت: «حسنًا، يمكنكم الدخول جميعًا يا سيد أغوو: عنبر اثنين وثلاثين. **تشكوو تشي بي أونو**».

رد عليها أبي بالإغبو وهو ينحني قليلًا: «**دا-آلو** - شكرًا لك يا حضرة الممرضة».

الأم التي رأيناها في عنبر اثنين وثلاثين كانت خاوية العينين، تسكن جسدًا ضامرًا مغلفًا ببلوزة سوداء ظلت ترتديها منذ يوم وفاة إيكينا. أصبحت واهنة وشاحبة جدًّا، حتى إنني كدت أبكي مصدومًا. تساءلتُ، عند رؤيتها، إن كان هذا المكان البشع يمصُّ اللحم من البشر ويُسطِّح المؤخرات الكبيرة. ارتعبت لرؤيتها بشعر أشعث قذر، وشفتين مقشرتين جافتين، وقد تغيرَت كثيرًا جدًّا. اتجه أبي إليها، بينما كانت نكيم تصرخ: «ماما، ماما».

«أداكو»، قالها وهو يضع ذراعيه حولها، لكن أمي لم تستدر نحوه. ظلت تحدق في السقف العاري، وفي مروحة السقف التي لا تتحرك في وسطه، وفي زوايا الجدران. وأثناء تحديقها همست بنبرة صامتة، وحذرة، وعالمة: «**أومو أوجيريديدي، أومو أوجيريديدي** - العناكب، العناكب».

«نوويم، أي عناكب، ألم تُزل كل العناكب؟». جال أبي ببصره إلى حواف السقف: «أين ترينها الآن؟».

تابعت همسها، ويداها متشابكتان على صدرها، كأنها لم تسمعه.

«لماذا تفعلين هذا بنا، أنا وأطفالك؟»، قالها أبي بينما تعالى نواح نكيم. رفعها أوبمبي، لكنها ظلت تتملص منه، راكلة إياه بشراسة في ركبتيه حتى أنزلها.

انحنى أبي ليجلس إلى جوار أمي على السرير، لكنها انسحبت بعيدًا، صارخة: «اتركني! ابتعد! اتركني وحدي!».

«أترككِ، هه؟»، سألها أبي وهو ينهض على قدميه. كان وجهه قد فقد كل لون، ونفرت العروق على جانب رأسه. «انظري إلى نفسك، انظري كيف تضمرين أمام عيون بقية أطفالك. آدا، ألا تعرفين أن لا شيء تراه العين يمكن أن يجعلها تبكي دمًا؟ ألا تعرفين أن الإنسان قادر على تجاوز كل فقد؟». أشار إليها بكف مفرودة أنزلها من رأسها إلى قدميها.

«اضمري، اضمري أكثر».

لاحظتُ عندها أن ديفيد يقف بجانبي، ويده على قميصي، وعندما نظرتُ إليه، رأيته على وشك البكاء، فشعرت

بحاجة مفاجئة إلى أن أمسك به لأوقف دموعه. سحبته إليَّ وأمسكت به. تشممتُ زيت الزيتون الذي دهنتُ به رأسه في الصباح، وتذكرت كيف كان إيكينا يحممني وأنا صغير، ويمسك بيدي في الطريق إلى مدرستنا الابتدائية. كنت طفلًا خجولًا، أخاف كثيرًا من المدرسين بسبب عِصيهم، ولا أرفع يدي عندما أشعر بأنني محصور لأقول: «بعد إذنك يا ما، أريد أن أذهب وأعمل **بوبو**». كنت أُفضل أن أصرخ بأعلى صوتي بلغة الإغبو حتى يستطيع بوجا، في صفه المعزول عن صفي بجدار خشبي، أن يسمعني: «أخي بوجا، **أتشورو مي إيون إنسي**». وكان بوجا يهرع خارجًا من صفه، ويأخذني إلى المرحاض، فينفجر زملاؤه وزملائي في نوبة من الضحك. كان ينتظرني حتى أنتهي، وينظفني، ثم يعيدني، فيطلب مني المُدرس في معظم الأحيان أن أفتح كفيَّ وأمدهما أمام الجميع ويضربني عليهما لأنني قطعت الحصة. حدث ذلك كثيرًا، وفي كل تلك الأوقات، لم يشكُ بوجا مرَّة واحدة.

***

لم يسمح لنا أبي، أنا وأوبمبي، بالعودة إلى المستشفى. كان أحيانًا يأخذ نكيم وديفيد معه لرؤية أمي بعد أن يزعجاه ولا يطيق الاحتمال. ظلت محتجزة بعيدًا لثلاثة أسابيع أخرى. تلك الأيام كانت باردة وغير طبيعية، وحتى الريح التي تهب فيها كل ليلة بدت تدمدم مثل حيوان محتضر. في أواخر أكتوبر، بدا أن موسم «الهرمتان» - وهو الموسم الذي تهب فيه ريح ترابية جافة من الصحراء الكبرى في شمال نيجيريا في اتجاه الجنوب وتغطي معظم مناطق أفريقيا جنوب الصحراء - قد وصل بين ليلة وضحاها، مخلفًا ضبابًا كثيفًا وثقيلًا معلقًا في كتل من السحاب أشبه بمظلات فوق أكوري، مثل حضور طَيفي يستمر حتى في شروق الشمس. دخل أبي ساحة الدار بسيارته، وإلى جانبه أمي التي غابت لخمسة أسابيع، وقد تضاءل جسدها إلى النصف، ودكن لونها الفاتح كأنها تسمَّرت تحت الشمس لأيام لا تُحصى، وامتلأت يداها بندوب من الإبر الوريدية، وفي إحدى إبهاميها لاصق محشو بكثير من القطن. بدا واضحًا أنها لن تعود إلى سابق عهدها، وكان من الصعب استيعاب جسامة ما أصابها.

رعاها أبي كأنها بيضة طائر نادر، وكثيرًا ما طردنا - خصوصًا ديفيد - بعيدًا عنها وكأننا بعوض. وحدها نكيم سُمح لها أن تحوم حولها. كان أبي ينقل الرسائل منها إلينا، ويسارع بإدخالها إلى غرفتهما عندما يأتي الناس لزيارتنا؛ حيث أخفى حالتها عن الجميع باستثناء أصدقائه المقربين، وكذب على الجيران قائلًا إنها سافرت إلى قريتنا بالقرب من أوموواهيا للبقاء مع أسرتها حتى تستعيد قواها بعدما فقدت طفليها. وحذرنا بأكثر الكلمات صرامة، ويداه تشدان شحمتي أذنيه، ألا نذكر مرض أمي لأي إنسان. قال: «حتى البعوضة التي تطن بجانب أذنك لا يجب أن تسمع شيئًا عن ذلك». أصبح يدير البيت وحده، ويطهو كل الوجبات، ويُقدِّم إليها الطعام أولًا، ثم إلينا.

بعد نحو أسبوع من عودتها، التقطنا عبارات مما بدا أنه جدال قوي يدور همسًا خلف الأبواب المغلقة. كنت أنا وأوبمبي قد ذهبنا إلى السينما بالقرب من مكتب البريد في وقت سابق، وعند عودتنا وجدنا أبي يُخرج الكراتين التي خزَّن فيها إيكينا الكثير من كتبه ورسومه. كُدست معظم مقتنيات شقيقينا بالفعل في كومة متنامية في المكان الذي كنا نلعب فيه الكرة. عندما سأله أوبمبي لماذا يريد حرقها، قال إن أمي أصرت على إحراق أشيائهما. لم ترغب في أن تنتقل اللعنة التي أصابتهما - لعنة أبولو - إلينا من خلال الاتصال بممتلكاتهما. لم يستدر لينظر إلينا وهو يشرح لنا، وعندما انتهى، هز رأسه وعاد إلى البيت ليأخذ المزيد من الأشياء حتى أُفرغت الغرفة. كانت طاولة الدرس الخاصة بإيكينا قد دُفعت إلى الحائط القرمزي المغطى برسوم بالقلم الرصاص ولوحات بالألوان المائية، ووُضع فوقها كرسيه المائل. خرج أبي حاملًا آخر حقائب بوجا، وأفرغ محتوياتها داخل الكومة. كان داخلها غيتار إيكينا القديم، الذي أهداه إليه في صِغره مُوسيقيٌّ من أتباع «الرستا» يُسلِّي الناس في الشوارع، وهو رجل ذو ضفائر طويلة تصل إلى صدره، وكثيرًا ما يغني أغاني «لاكي ديود» و«بوب مارلي»، جاذبًا جمهورًا كبيرًا من الصبية والبالغين من جيراننا. كان غالبًا يغني تحت شجرة جوز الهند أمام بوابة بيتنا، وكان إيكينا - على الرغم من تحذيرات والدينا - يرقص للترفيه عن الجمهور، فأُطلق عليه اسم «صبي الرستا»، وهي الكُنية التي طردها أبي بقوة كرباج «العطيَّة» الحارق.

راقبنا أبي وهو يرش الكيروسين على الكومة من صفيحة حمراء، وبعد نظرات قليلة إلى أمي، أشعل عود الثقاب. اشتعلت الكومة، وتفجرت دفقة من الدخان في الهواء. وبينما راحت النيران تلتهم أغراض إيكينا وبوجا والأشياء التي لمساها بأيديهما وهما على وجه الأرض، راح الإحساس بنهايتهما يخِز جسدي في كل موضع. أتذكر على نحو واضح كيف ظل القفطان، وهو أحد أردية بوجا المفضلة، يصارع النيران. انبسط أولًا من حالته المضغوطة عندما أمسكت به النار وكأنه شيء حي يقاتل من أجل البقاء، ثم بدأ يميل إلى الخلف ببطء، ذاويًا، وهو يتحلل إلى رماد أسود. سمعت نشيج أمي، فاستدرت. رأيتها وقد خرجَت من الغرفة وجلست على الأرض على بُعد بضعة أمتار من الكومة، ونكيم مقرفصة إلى جوارها. وقف أبي طويلًا بجانب الكومة، وفي يده صفيحة الكيروسين الفارغة، ويمسح بالأخرى عينيه المعمصتين ووجهه المتسخ. وقفت أنا وأوبمبي إلى جواره، وعندما لاحظ أمي، ترك الصفيحة تسقط ومضى إليها.

قال: «نوويم. قلت لكِ إن الأحزان ستمر. إيه. لا نستطيع أن نواصل الحزن إلى الأبد. قلت لكِ إننا لا نستطيع إعادة الزمن إلى الوراء. لا نستطيع أن نأتي بما مضى ونضعه أمامنا. يكفي هذا يا أداكو، أرجوكِ. أنا هنا الآن، وسوف نجتاز تلك المحنة معًا».

بدأ سرب من الطيور، يُرى بالكاد في الظلام الذي يقترب، يدور حول عمود الدخان المتصاعد إلى السماء، والسماء من حولنا أصبحت بلون النيران الساطعة، والأشجار التي تحولت إلى مجرد صورة ظليَّة ظهرت مثل شهود خارقين على عملية الحرق، فيما كان رماد محفظة إيكينا، وحقائب بوجا، وملابسهما، وأحذيتهما، وغيتار إيكينا المعطوب، ومفكرتي «M.K.O» الخاصتين بهما، وصورهما، وكراريسهما التي رُسمت فيها اسكيتشات لـ«يويودون»، وشراغف، ونهر «أومي-ألا»، وملابس الصيد الخاصة بهما، وإحدى الصفائح التي كنا نأمل أن نخزن فيها السمك لكننا لم نستخدمها قَطُّ، وبندقيتهما اللعبة، ومنبههما، وكتب رسومهما، وصناديق الثقاب الخاصة بهما، وسراويلهما الداخلية، وقمصانهما، وبناطيلهما... كل الأشياء التي امتلكاها أو لمستها أيديهما ذات يوم، تتصاعد في سحابة من الدخان، وتختفي في السماء.

12

الكلب قصاص الأثر

أوبمبي كان كلبًا قصاصًا للأثر.

هذا النوع الذي يكتشف الأشياء ويعرفها، وبعد أن يكتشفها يفحصها. رأسه مليءٌ بالأفكار دائمًا، وعندما يحين الأوان، يُطلقها مثل كائنات مجنَّحة، قادرة على الطيران.

كان أوبمبي أول من اكتشف أن ثمة مسدسًا محشوًّا خلف رف خزانة غرفة الجلوس بعد أسبوعين من انتقالنا إلى بيتنا في أكوري. وجد المسدس عندما كان يطارد ذبابة في الغرفة. راحت الذبابة تطن فوق رأسه، ثم تفادت ضربتين محمومتين بالكتاب المدرسي «الجبر البسيط» وجههما إليها بسرعة لكي يقتلها. قفزت الذبابة إلى أعلى بعد أن أخطأتها الضربة الأخيرة، وانسابت إلى رف الخزانة حيث أجهزة التلفزيون والفيديو والراديو. عندما طارد الذبابة إلى هناك، أطلق صرخة، وترك الكتاب يسقط من يده. كنا قد انتقلنا إلى البيت لتوِّنا ولم ينظر أحد خلف الرف ليرى ماسورة المسدس بارزة قليلًا من تحته. أخذ أبي المسدس إلى قسم الشرطة، مرعوبًا، شأننا جميعًا، شاكرًا كونه لم يقع في يد أحد الصغيرين، ديفيد أو نكيم.

كان أوبمبي يمتلك عيني كلب قصاص للأثر، عينين تلاحظان الأشياء الصغيرة، والتفاصيل التافهة التي يغفل عنها الآخرون. وقد صرتُ أعتقد أنه كان يستشعر وجود بوجا في البئر قبل أن تعثر عليه السيدة أغباتي هناك بوقت طويل. ففي صبيحة عثورها على بوجا، اكتشف أوبمبي أن المياه المأخوذة من البئر لزجة، ولها رائحة كريهة. كان قد جلبها ليستحم، فلاحظ بقعة على سطح الماء في الدلو. ناداني لأرى، وعندما اغترفتُ الماء في يدي، بصقتُ ورميته بعيدًا. لاحظت الرائحة أنا أيضًا، رائحة عفن، أو شيء ميت، لكنني لم أستطع أن أحدد ما هو.

كان هو من فك غموض مصير جثة بوجا، إذ لم نحضر دفنه. لم تكن هناك ملصقات، أو زيارات، أو إشارة واحدة على جنازته. تساءلت وسألت أخي أين ستقام، لكنه لم يعرف، ولم يُرد أن يسأل والدينا، اللذين كانا بمثابة البُطينين في قلب بيتنا. لم يرغب في لفت الانتباه في ذلك الوقت أو دفع الأمور أكثر، ولولاه لما عرفتُ قَطُّ مصير جسد بوجا بعد موته. في السبت الأول من نوفمبر، بعد أسبوع من عودة أمي من مستشفى الأمراض النفسية، عثر على شيء لم ألاحظه من قبل، مع أنه ظل على الرف الأعلى في غرفة الجلوس طوال الوقت، خلف صورة مؤطرة لوالدينا يوم زفافهما عام 1977. أراني أوبمبي مرطبانًا شفافًا صغيرًا موضوعًا على ذلك الرف، وبداخله كيس نايلون يحتوي على شيء بلون الرماد، يشبه الطَّفل الرملي الذي يُنبش من تحت جذوع الخشب الميتة ثم يُجفف في الشمس حتى يصبح حبات رقيقة بحجم الملح. لاحظت، وأنا أمد يدي إليه، ملصقًا مكتوبًا عليه: **بوجا أغوو** (1982 - 1996).

عندما واجهنا أبي بعدها ببضعة أيام، وقال أوبمبي إنه يعرف أن المادة الغريبة هي رماد بوجا في المرطبان، تلعثم أبي، ثم استسلم. كشف لنا أن رجال العشيرة والأقارب حذروه هو وأمي وشددوا عليهما ألا يُدفن بوجا. كان ذلك يعني تدنيسًا لـ«آني» ربة الأرض؛ حيث لا يجب أن يُطمر شخص ارتكب جريمة قتل النفس أو قتل الأخ داخل الأرض. ومع أن المسيحية جاءت وكنست أرض الإغبو، فقد استطاع بعض الفتات والذرات من الديانة التقليدية الأفريقية أن يغافل المكنسة. كانت قصص تأتي من قريتنا من حين إلى آخر، ومن رجال العشيرة في الشتات، عن نوازل غامضة، وميتات، بسبب عقوبات من أرباب العشيرة. هكذا، قرر أبي، الذي لم يكن يُصدِّق أن ربَّة ما سوف تعاقبه، ولم يكن يعتقد بوجود تلك البدعة «التي تنتمي إلى عقول جاهلة»، ألا يدفنه، فقط لأجل خاطر أمي، ولأنه قد حصل بالفعل على نصيبه من المآسي. لم ينطقا بكلمة لي أو لأخي، ولم نعرف بالأمر، حتى اكتشفه أوبمبي، الكلب قصاص الأثر.

***

امتلك أوبمبي عقل كلب قصاص للأثر: عقلًا لا يهدأ، مشغولًا دائمًا بالبحث عن المعرفة. كان شخصًا يطرح الأسئلة، محققًا، يقرأ كثيرًا ليغذي عقله. وكان المصباح، الأداة التي يستعين بها ليقرأ، رفيقه الأعظم. قبل أن يموت شقيقاي، كنا نمتلك ثلاثة مصابيح كيروسين في البيت، وثمة فتيل تحركه عجلة صغيرة مغموس في صهاريج وقودها الصغيرة ليمتص الكيروسين. ولأن الكهرباء كانت كثيرة الانقطاع في أكوري في تلك الأيام، فقد اعتمد أوبمبي عند القراءة على ضوء واحد من المصابيح الثلاثة كل ليلة. بدأ يقرأ بعد موت شقيقيَّ كأن حياته تعتمد على ذلك. ومثل حيوان يلتهم ما يجده أمامه، عشبًا كان أو لحمًا، صار يخزن المعلومات التي يكدسها من تلك الكتب في عقله، وبعد معالجتها وتشذيبها وصولًا إلى جوهرها، يمررها إليَّ في شكل قصص يحكيها لي كل يوم قبل أن ننام.

حكى لي قبل أن يموت شقيقانا قصة أميرة سارت وراء «جنتلمان» كامل الأوصاف وبالغ الوسامة، إلى أعماق غابة، عازمةً على الزواج منه، لتكتشف أن الرجل لم يكن إلا جمجمة استعارت اللحم وأعضاء الجسد من آخرين. تلك القصة، شأنها شأن كل القصص الجيدة، زرعَت في روحي بذرة لم تغادرني قَطُّ. حكى لي أوبمبي في الأيام التي أصبح فيها إيكينا أصَلة، عن «أوديسيوس»، ملك «إيثاكا»، من النسخة المبسطة من أوديسة هوميروس، فخطَّ في عقلي إلى الأبد صور بِحار «بوسيدون» والأرباب الخالدة. كان غالبًا ما يحكي لي القصص في الليل، في الظلمة شبه الكاملة للغرفة، وكنت أغوص تدريجيًّا في العالم الذي تخلقه كلماته.

بعد ليلتين من عودة أمي من المستشفى، كنا جالسَين على السرير في غرفتنا، مستندَين بظهرينا إلى الحائط، مستسلمَين للنعاس، وفجأة قال أخي: «بِنْ، أعرف لماذا مات شقيقانا». طرقع بإصبعيه، ونهض على قدميه وهو يقبض على رأسه. «اسمع، لقد.. لقد فهمت الآن».

جلس ثانية، وشرع يحكي لي قصة طويلة قرأها ذات يوم في كتاب لا يتذكَّر اسمه، ولكنه متأكد أن كاتبه شخص من الإغبو. أنصتُّ بينما يتعالى صوت أخي فوق خشخشة مروحة السقف. عندما انتهى، غرق في الصمت، وحاولت أنا معالجة قصة الرجل القوي، «أوكونكوو»، الذي وصلت به الحال إلى الانتحار نتيجة لألاعيب الرجل الأبيض.

قال: «هل ترى يا بِنْ؟ لقد هُزم أهالي «أوموفيا» لأنهم لم يتوحدوا».

قلت: «صحيح».

«الرجال البيض كانوا عدوًّا مشتركًا تسهل هزيمته، لو توحدت القبيلة في محاربته. هل تعرف لماذا مات شقيقانا؟».

هززت رأسي.

«للسبب نفسه.. لحدوث شقاق بينهما».

غمغمت: «نعم».

«لكن، هل تعرف لماذا حدث الشقاق بين إيكي وبوجا؟». رجَّح أنني لا أمتلك إجابة، فلم ينتظر طويلًا، وتابع: «نبوءة أبولو، لقد ماتا بسبب نبوءة أبولو».

وضع أصابعه على ظهر يده اليسرى وراح يحك شاردًا، من دون أن يرى الخطوط البيضاء التي شكَّلها على جلده الجاف. جلسنا في صمت لبرهة بعدها، وعقلي ينجرف إلى الوراء كأنني أتزلج على جرف حاد منحدر.

«أبولو قتل شقيقينا. إنه عدونا».

كان صوته متهدجًا، وخرجت كلماته مثل همسة من بطن كهف. ومع أنني أعرف أن إيكينا تحوَّل بفعل لعنة أبولو، لكني ما فكرت في أنه مسؤول بشكل مباشر على النحو الذي صاغه أخي الآن. لم أفكر قَطُّ أن المجنون يمكن أن يُلام بشكل مباشر، حتى وإن رأيت إشارات على كونه هو الذي زرع الخوف داخل أخي. وعندما قالها أوبمبي الآن، خطر لي أن ذلك صحيح. وبينما أفكر في الأمر، رفع أوبمبي ساقيه إلى صدره ولف ذراعيه حولهما، ساحبًا ملاءة السرير حتى انكشف جزء من الفراش، ثم استدار إليَّ وضغط بيده على السرير حتى غاصت في اللوح الزنبركي، وضرب قبضته في الهواء قائلًا: «سوف أقتل أبولو».

شهقت قائلًا: «ولماذا تفعل ذلك؟».

ترك عينيه، اللتين تراكم الدمع فيهما سريعًا، تبحران على وجهي قليلًا، ثم قال: «سأفعل ذلك لأجلهما، لأنه قتل شقيقيَّ. سأفعل ذلك لأجلهما».

تابعته واجمًا وهو يذهب ويوصد الباب أولًا، ثم يتجه إلى النافذة. أدخل يده في جيب بنطاله القصير، ثم برقَت ومضتان من محاولتين لإشعال عود ثقاب. في المرة الثالثة، تعالت نقرة واشتعلت شعلة صغيرة ثم اختفت. صُدمت عندما رأيت صورته الظليَّة تضع سيجارة في فمه، وانبعث الدخان إلى أعلى ثم إلى الليل المظلم. كدت أقفز من الفراش. لم أعرف، ولم أتخيل، ولم أدرِ كيف أو ماذا حدث. ارتجفت قائلًا: «سيجارة...».

«نعم، اخرس، لا شأن لك بذلك».

في ومضة واحدة، تحولت صورته الظليَّة إلى قوة احتشدت فوق رأسي على الفراش، والدخان يتصاعد من سيجارته ويتعالى باطِّراد فوق رأسه.

قال، وعيناه مليئتان بظلام حالك: «إن أخبرتهما، فستزيد ألمي».

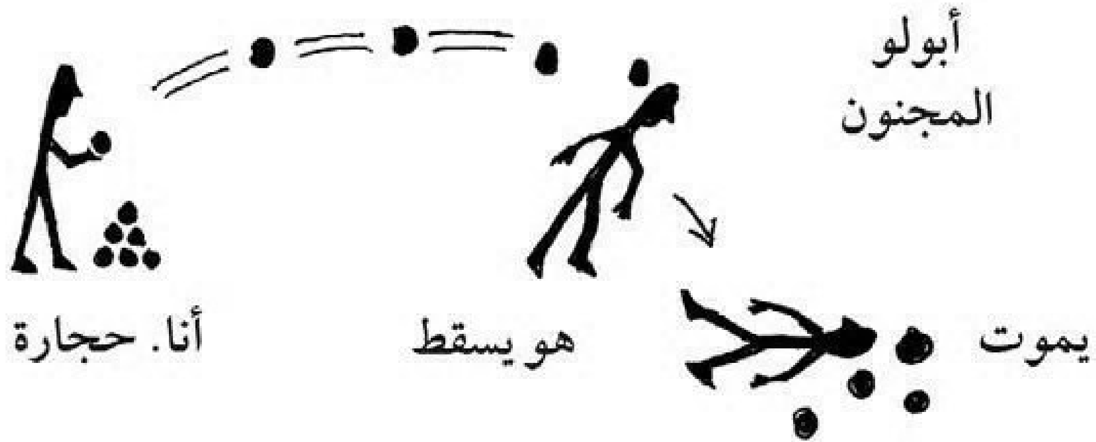
نفخ الدخان إلى خارج النافذة، ورحت أنظر في رعب إلى منظر أخي، الذي لا يكبرني إلا بعامين، وهو يدخن وينشج مثل طفل.

***

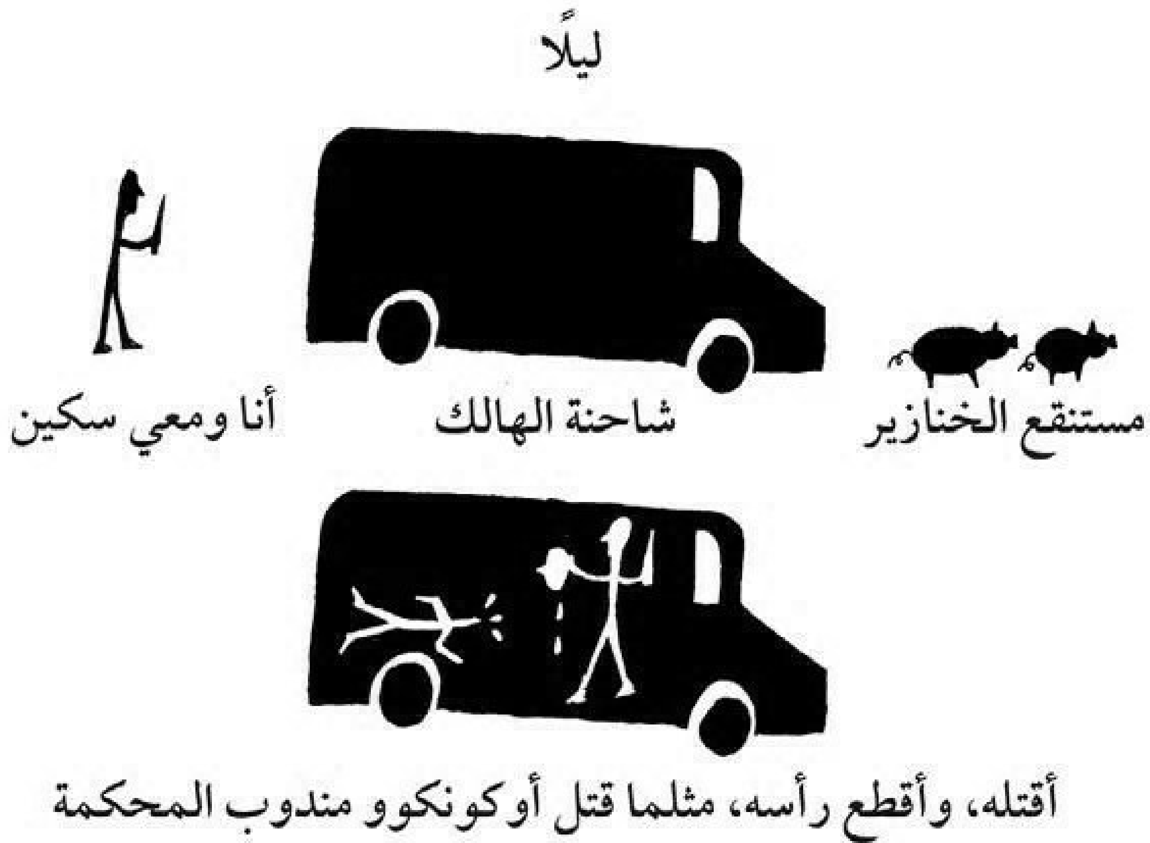
الأشياء التي كان أخي يقرأها شكَّلته؛ أصبحت مثل رؤى في عقله، وصار يؤمن بها. وقد عرفت الآن أن ما يؤمن به الشخص غالبًا ما يصبح مستقرًّا، وعندما يستقرُّ يمكن أن يصبح حصينًا يستعصي على الهدم. كانت تلك حال أخي، فبعد أن كشف لي عن خطته، انفصل عني وراح يطوِّر أفكاره كل يوم، وهو يدخن في الليل. صار يقرأ أكثر، أحيانًا فوق شجرة اليوسفي في الباحة. ورفض عجزي عن أن أكون شجاعًا لأجل شقيقيَّ، ولامني لأنني لم أكن مستعدًّا للتعلم من رواية «الأشياء تتداعى»[7]، ومحاربة العدو المشترك: أبولو المجنون.

ومع أن أبي حاول إعادتنا إلى الأيام التي سبقت مغادرته أكوري - أيام حياتنا البيضاء الناصعة — لكن أخي لم يتأثر بذلك. لم تؤثر فيه الأفلام الجديدة التي جلبها أبي إلى البيت - أفلام جديدة لـ«تشاك نوريس»، وفيلم جديد لـ«جيمس بوند»، اسمه «عالم الماء»، وفيلم من بطولة ممثلين نيجيريين، «الحياة في نير العبودية».

ولأنه قرأ في مكان ما أن الشخص إذا رسم مخططًا لمشكلة ما، وتصوَّر بنيتها بالكامل، يستطيع أن يحل تلك المشكلة، فقد راح يقضي معظم النهار وهو يرسم تصورات لخططه من أجل الانتقام لشقيقينا، يظهر فيها رجال أشبه بأعواد الثقاب، بينما أجلس أنا وأقرأ. تعثرتُ فيها ذات يوم، بعد أسبوع من المشاحنة التي دارت بيننا، وارتعبتُ. في الصورة الأولى، المرسومة بقلم مشحوذ السن، يرشق أوبمبي أبولو بالحجارة، فيسقط ويموت:



وفي أخرى، متصوَّرة في المنطقة أمام الجرف، حيث تقبع شاحنة أبولو، يلوح أوبمبي بسكين، وقد رسم ساقيه مثل عودي كبريت في حالة حركة وأنا وراءه. كانت هناك أشجار بعيدة، وخنازير سيئة المزاج على مقربة. ثم في الشاحنة، عبر لقطة كاشفة عما يحدث، يقطع الرسم العصوي الذي يُمثِّل أوبمبي رأسَ أبولو - **مثلما قتل أوكونكو مندوب المحكمة** (في رواية «الأشياء تتداعى»).



أرعبتني الرسوم. أمسكتُ بالورقة وفحصتها ويداي ترتعشان، حين عاد من المرحاض وقد غاب لنحو عشر دقائق.

صرخ غاضبًا: «لماذا تنظر فيها؟». دفعني فسقطتُ على السرير والورقة لا تزال في يدي.

ثارت ثائرته: «أعطني هذه».

رميتُ الورقة ناحيته، فالتقطها من فوق الأرض.

هدر قائلًا: «إياك أن تلمس أي شيء على هذه الطاولة ثانيةً. هل تسمعني يا أبله؟».

رقدت على السرير، حاميًا وجهي بيديَّ خوفًا من أن يضربني، لكنه اكتفى بوضع الأوراق في خزانته وغطاها بملابسه، ثم مضى إلى النافذة ووقف هناك. في الخارج، في البيت المجاور المختبئ وراء سور عالٍ، كانت أصوات الأطفال وهم يلعبون تصل إلى آذاننا. كنا نعرف معظم الأطفال، ومن بينهم إغبافي، أحد الصبية الذين كانوا يصطادون معنا عند النهر. كان صوته يعلو فوق أصواتهم بين حين وآخر: «نعم، نعم، أعطني الكرة، سدد! سدد!! سدد!!! آه، ماذا فعلت؟»، ثم تتعالى ضحكات وأصوات الأطفال وهم يركضون ويلهثون. اعتدلتُ جالسًا في الفراش.

«أوبي»، ناديت على أخي بهدوء قدر المستطاع.

لم يرد، كان يدندن لحنًا.

«أوبي»، ناديته ثانية، بصوت يقترب من الصراخ، ثم سألته: «لكن، لماذا يجب عليك أن تقتل المجنون؟».

قال وقد استجمع هدوءه إلى حد أثار أعصابي: «الأمر بسيط يا بِنْ. سوف أقتله لأنه قتل شقيقيَّ، إنه لا يستحق الحياة».

في أول مرَّة قالها، بعد أن حكى لي قصة «الأشياء تتداعى»، ظننتُ أنه كسير القلب وحسب، وأنه قال ذلك من باب الغضب؛ لكن الآن، حين رأيت كيف قالها بعزم خطير، وبعد أن رأيت هذه الرسوم، بدأت أخشى كونه يعني ما يقول.

«لماذا؟ لماذا تريد.. تريد أن تقتل شخصًا؟».

قال، وهو يهوِّن من الذعر الذي تسرب إلى كلماتي وجعلني أصرخ بكلمة «تقتل» بدلًا من أن أقولها وحسب: «هل ترى؟ أنت حتى لا تعرف لماذا، لأنك نسيت شقيقَيك بهذه السرعة».

اعترضت قائلًا: «لم أنسهما».

«نسيتهما. لو لم تفعل لما جلست هنا تتفرج على أبولو وهو يواصل حياته بعد أن قتل شقيقَيك».

«لكن، هل يجب أن نقتل هذا الرجل الشيطان؟ أليست هناك طريقة أخرى يا أوبي؟».

«لا»، قالها وهو يهز رأسه. «اسمع يا بِنْ، إذا كان الخوف قد سيطر علينا، ومنعنا من التدخل بينهما عندما كانا يتقاتلان حتى قتل كلٌّ منهما الآخر، فعلينا ألا نخاف من الانتقام لهما الآن. يجب أن نقتل أبولو وإلا فلن ننعم بالسلام؛ أنا لن أنعم بالسلام؛ أبي وأمي لن ينعما بالسلام. لقد جُنت أمي بسبب هذا المجنون. لقد أصابنا بجرح لن يبرأ أبدًا. إذا لم نقتل هذا المجنون، لن يعود شيء كما كان أبدًا».

جلست في مكاني، متجمدًا تحت قوة كلماته، عاجزًا عن قول أي شيء. كنت أرى كيف تشكَّلت بداخله خطة منيعة. وليلة بعد ليلة، كان يجلس على حافة الشباك ويدخن، عاريًا حتى وسطه في معظم الأحيان - لأنه لم يكن يريد لملابسه أن تتشبع برائحة السجائر. كان يدخن ويسعل ويبصق، يصفع نفسه كثيرًا ليسحق البعوض. وعندما كانت نكيم تحبو إلى بابنا وتبدأ في الطرق عليه، مبربرة أن العشاء جاهز، كان يفتح لها الباب، وفور أن يومض الضوء، يغلق الباب فيعود الظلام.

عندما مرت الأسابيع، وظل عاجزًا عن إقناعي بالانضمام إليه في مهمته، ابتعد عني، وعزم على تنفيذها بمفرده.

***

مع اقتراب منتصف نوفمبر، في الوقت الذي حوَّل فيه نسيم رياح «الهرماتان» الجاف جلود الناس إلى اللون الأبيض الشاحب، خرجت أسرتنا مثل فأر - العلامة الأولى على الحياة من تحت أنقاض عالم احترق. فتح أبي مكتبة لبيع الكتب،

بالمدخرات التي يمتلكها، وبدعم كريم من أصدقائه - خصوصًا السيد بايو في كندا، الذي أعلن أنه سيزور نيجيريا لرؤيتنا، وهي الزيارة التي كنا ننتظرها بفارغ الصبر - استأجر دكانًا من غرفة واحدة على بُعد نحو كيلومترين من القصر الملكي في أكوري. وقام نجار محلي بصناعة لافتة خشبية كبيرة حُفرت عليها كلمتا «مكتبة إيكيبوجا» باللون الأحمر على خلفيتها البيضاء، وثُبتت اللافتة بالمسامير على العتبة العلوية للمكتبة. اصطحبنا أبي لنراها يوم افتتاحها. رتَّب معظم الكتب على الرفوف الخشبية - كلها تفوح برائحة طلاء الخشب. قال لنا إنه جاء بأربعة آلاف كتاب كبداية، وإن الأمر سيستغرق أيامًا حتى ينظمها على الرفوف. رأينا أكياسًا وكراتين من الكتب مكدسة في غرفة غير مضاءة قال إنه سيستخدمها كمخزن. مرق جرذ خارج باب المخزن لحظة فتحه، وضحكت أمي ضحكة طويلة مبحوحة - أول ضحكة لها منذ وفاة شقيقينا.

«أول زبائنه»، قالتها، بينما يطارد أبي الجرذ الذي كان أسرع منه بعشر مرات، حتى خرج من الباب، ونحن نضحك. حكى لنا أبي بعد ذلك، وهو يشهق لالتقاط أنفاسه، عن القضية الغريبة لأحد زملائه في يولا، الذي غزت الجرذان بيته. تحمَّل الرجل حضور الجحافل طويلًا جدًّا، مكتفيًا باستخدام مصائد الفئران لأنه لم يكن يريدها أن تموت في مكان لا يستطيع تحديده بسهولة، فتبدأ في التحلل قبل اكتشاف جثثها. وكان كل إجراء آخر قد ثبت عقمه في الماضي. لكن عندما ظهر اثنان من الجرذان في ضوء النهار الساطع في حضور اثنين من أصدقائه، شعر بالحرج، وقرر أن ينتهي من ذلك البلاء. نقل أفراد أسرته إلى أحد الفنادق مدة أسبوع، ثم رش كل زاوية وشق في البيت بسموم الفئران. وعند عودتهم وجدوا في كل زاوية من البيت جرذًا ميتًا، حتى داخل الأحذية.

كان مكتب أبي وكرسيه قائمين في وسط المكتبة، في مواجهة الباب، وثمة مزهرية وتمثال زجاجي لأطلس فوق المكتب، وكاد ديفيد يُسقط التمثال لولا أن أبي أنقذه في آخر لحظة. عندما خطا خارج الدكان، رأينا جلبة على الجانب الآخر من الطريق. كان رجلان يتعاركان، وقد تجمع حشدٌ حولهما. تجاهلهما أبي وأشار إلى لافتة كبيرة على جانب الطريق مكتوب عليها «مكتبة إيكيبوجا». كان ديفيد وحده في حاجة إلى شرح أن الاسم مُركب من اسمي شقيقَينا. اصطحبنا أبي بالسيارة من هناك إلى سوبر ماركت «تيسكو» الكبير لشراء الكعك. ثم أخذ المسار الذي يمر بآخر حيِّنا ونحن في طريق عودتنا، عبر الطريق الصغير الذي نستطيع منه رؤية دغل الإيسان الممتد مخفيًا وراءه نهر «أومي-ألا». مررنا على الطريق بمجموعة من الراقصين يعزفون موسيقى من شاحنة محملة بأجهزة كاسيت. رأينا الشارع وقد مُلئ بمظلات خشبية وقماشية، ونساء تحتها يبعن سلعًا تافهة، وأخريات رتَّبن دَرَنات اليام وكوَّمنها على أكياس من الليف، وأرزًا في طسوت، وسلالًا مسطحة، والكثير من السلع الأخرى على جانب الطريق. كانت الدراجات البخارية المحملة بالركاب تندفع بين السيارات على نحو خطير - وستكون مسألة وقت فحسب قبل أن تنسحق بعض الرؤوس على الطريق. كما كان تمثال «صامويل أوكواراجي»، لاعب كرة القدم النيجيري الراحل الذي لقي حتفه في الملعب سنة 1989، يحوِّم فوق البنايات من حيث ينتصب داخل الاستاد، وقد علقت على قدمه كرة ساكنة بينما إصبعه في إشارة سرمدية في اتجاه زميل لعبٍ غير مرئي، وكانت جدائل شعره ممتلئة بالتراب، وخيوط معدنية تحررت من التمثال عالقة على نحو مربك بمؤخرته. وعلى الجانب الآخر من الطريق، أمام الاستاد، كان الناس محتشدين تحت قماش مشمع، يرتدون ملابس تقليدية، ويجلسون على كراسٍ بلاستيكية، وأمامهم بضع طاولات مليئة بالنبيذ ومشروبات أخرى. وثمة رجلان، منحنيان على آلاتهما، يضربان لحنًا على «طبول متكلمة» على هيئة الساعة الرملية، بينما رجل يرتدي «**الأغبادا**» وبنطالًا طويلًا من القماش نفسه، يرقص على نحو أكروباتي، فيصطفق رداؤه الفضفاض.

وصلنا إلى المنعطف، حيث يقود طريق إلى اليسار مباشرة إلى بيتنا، وعنده رأينا أبولو. كانت أول مرَّة نراه فيها منذ وفاة شقيقَينا، فقد اختفى كأنما لم يوجد قَطُّ، ولم يدخل بيتنا ويُشعل نارًا صغيرة ثم يتبخر. لم يرِد اسمه على لسان والدينا بعد أن عادت أمي، باستثناء خبر سمعَته يقول إنه رحل، متجردًا من أي عبء عالق في عنقه، على الطريقة التي طالما سمح بها أهل أكوري.

كان أبولو يقف على جانب الطريق ينظر إلى البعيد عندما رأى سيارتنا تتعرج ببطء في اتجاهه بسبب المطبات الصناعية. اندفع إلى الأمام في اتجاه السيارة، وهو يلوح ويبتسم. كان هناك فراغ في صف أسنانه العلوي، حيث يبدو أن واحدة من أسنانه العلوية سقطت. وأسفل ذراعه المرفوعة ثمة ندبة حديثة طويلة، لا تزال حمراء ودامية. كان مُقمطًا بربًّا من نسيج تتناثر عليه الزهور. رأيته يعبر حتى الرصيف، متبخترًا ومحركًا يديه كأنه يتحدث إلى رفيق. وعندما اقتربنا منه، لنسمح لشاحنة «بيدفورد» محملة بمواد البناء أن تسبقنا على الطريق الضيق، توقف، وبدأ يفحص شيئًا ما على الأرض باهتمام شديد. استمر أبي في القيادة كأنه لم يره، لكن أمي أخرجت هسيسًا مطولًا وتمتمت هامسة: «رجل شرير»، وهي تطرقع بإصبعيها فوق رأسها. ثم تابعت بالإنجليزية وكأن المجنون يستطيع سماعها: «سوف تموت ميتة بشعة. هذا مؤكد. **كا إيمي سيا**».

تهادت شاحنة تجر سيارة خربة بجلبة على الطريق، وهي تطلق نفيرها على نحو عصبي. في المرآة الجانبية حيث ثبتُّ عينيَّ حتى لا يغيب أبولو عن نظري، كان المجنون يتراجع مثل طائرة نفاثة. بعد أن اختفى عن الأنظار، ظللت أحدق في المرآة، في الكتابة: «تحذير: الأجسام الظاهرة في المرآة أقرب مما تبدو عليه». فكرت عندها كيف أن أبولو كان قريبًا من سيارتنا، وتخيلتُ أنه لمسها. أطلق هذا سلسلة متدفقة من الأفكار في عقلي. أولًا، فكرت في ردة فعل أمي على منظر المجنون، وإمكانية موته، وخلصتُ إلى أن ذلك غير ممكن، وتساءلتُ: مَن ذا الذي يستطيع قتله؟ مَن يستطيع الاقتراب منه وغرس سكين في بطنه؟ ألن يتنبأ المجنون بالأمر ويبادر هو إلى قتل ذلك الشخص؟ ألم يكن بمقدور معظم أهالي البلدة قتل ذلك الرجل لو استطاعوا؟ ألم يختاروا بدلًا من ذلك أن يدوروا حول أنفسهم ويركضوا سادرين في دوائر نابضة؟ ألم يتحولوا دائمًا إلى أعمدة من الملح عند بوابة الحساب كأن أبولو محصَّن ضد الأذى؟

رماني أوبمبي بنظرة متسائلة عندما تفجَّر غضب أمي، والآن عندما أدرت وجهي عن المرآة، حاصرتني عيناه في شِباك السؤال: «أتَرى ما أقوله لك؟»، وجعلني ذلك أرى تجليًا. لقد رأيتُ فجأة أن أبولو هو مهندس أحزاننا بالفعل. وحين كنا نعبر من أمام «أرجنتينا»، الشاحنة المتهالكة المملوكة لجيراننا، وعادمها يضخ سحابات من الدخان الأسود، خطر لي أن أبولو هو من أصابنا بالجرح. ومع أنني لم أدعم فكرة أخي عن معاقبة المجنون، فإن رؤية أبولو في ذلك اليوم غيَّرتني. لقد تأثرتُ، بدوري، بردة فعل أمي، باللعنة التي صبَّتها، بالدموع التي بدأت تنساب على خديها عند رؤيته. شعرتُ بتنميل يتموج في جسدي عندما قالت نكيم، في صوتها الغنائي الطفولي: «بابا، ماما تبكي».

قال أبي، وهو ينظر في المرآة الأمامية: «نعم، أعرف. قولي لها أن تكف عن البكاء».

وعندما كررت نكيم: «ماما، بابا يقول لي أن أقول لكِ أن تكفي عن البكاء»، انفجر قلبي مثل سدٍّ، واندفع منه فيض الإساءات التي أوقعها هذا الرجل بنا:

1- هو الذي حرمنا من شقيقيَّ.

2- هو الذي دس السم الزُّعاف في دماء أُخوَّتنا الساخنة.

3- هو الذي حرم أبي من وظيفته.

4- هو الذي جعلني أنا وأوبمبي نفقد فصلًا دراسيًّا.

5- هو الذي يقود أمي إلى الجنون.

6- هو الذي تسبَّب في إحراق كل أغراض شقيقيَّ.

7- هو الذي تسبَّب في إحراق جسد بوجا مثل القمامة.

8- هو الذي تسبَّب في دفن إيكينا تحت التراب.

9- هو الذي تسبَّب في انتفاخ بوجا مثل بالون.

10- هو الذي جعل اسم بوجا ينتشر في البلدة بوصفه «مفقودًا».

كانت قائمة الشرور بلا نهاية. توقفتُ عن العد، لكنها ظلت تتدفق بلا توقف مثل صنبور تُرك مفتوحًا. جزعتُ عند

التفكير في أنه على الرغم من كل ما فعله بنا، ومن كل ما أثقل به أسرتنا، ومن العذاب الذي أوقعه على أمي، ومن الطريقة التي حطمنا بها، فإن هذا المجنون لا يبدو أن لديه أدنى فكرة عمَّا تسبب فيه. لقد استمرت حياته ببساطة، سالمة، لم يمسسها أذى.

11- دمَّر خريطة أحلام أبي.

12- استولد العناكب التي غزت بيتنا.

13- كان هو، لا بوجا، الذي غرس السكين في بطن إيكينا.

عندما أطفأ أبي المحرك، كان الغول الذي خلقه ذلك الاكتشاف الجديد في داخلي قد نهض على قدميه، ونفض عنه طبقات التراب وهو يُبعث مخلوقًا. كان الحكم قد كُتب الآن على جبهته: أبولو عدونا.

عندما عدنا إلى غرفتنا، أخبرت أوبمبي، بينما كان يلبس سرواله القصير ليستر عريه، أنني أنا الآخر أريد أن أقتل أبولو. تجمَّد في مكانه، وحدق فيَّ، ثم تقدَّم في اتجاهي وطوقني بذراعيه.

في تلك الليلة، في الظلام، حكى لي قصة، وهو شيء لم يفعله منذ زمن طويل.

«الأشياء تتداعى» (Things Fall Apart): رواية للكاتب النيجيري تشينوا أتشيبي. (المترجم).

13
العَلَقة

الكراهية عَلَقة.

هذا الشيء الذي يلتصق بجلد الشخص، ثم يتغذى عليه ويستنزف الطاقة من روحه. إنها تُغيِّر الشخص، ولا تتركه حتى تمتص آخر قطرة من السَّكينة بداخله. تتشبث بجلد المرء، كما تفعل العَلَقة، منغرسة أعمق فأعمق في الطبقة الخارجية للجلد، حتى يتطلب نزع هذا الكائن الطفيلي عن الجلد تمزيق ذلك الجزء من اللحم، ويتحول قتله إلى نوع من جَلد الذات. كان الناس في سالف العهد يستخدمون النار، قضيبًا ساخنًا، وعندما يحرقون العَلَقة، يتركون الجلد موسومًا. تلك، أيضًا، هي حالة كراهية أخي لأبولو؛ غُرست بعمق في جسده. منذ الليلة التي انضممتُ فيها إليه، صرنا نوصد باب غرفتنا طوال الوقت تقريبًا، ونجتمع يوميًّا للتخطيط لمهمتنا، حين يخرج والدانا إلى عملهما: أمي إلى متجرها، وأبي إلى مكتبته.

قال أخي ذات صباح: «أولًا، علينا أن نهزمه هنا في غرفتنا». رفع أوراقه التي رسم عليها خططه، حيث يقاتل رجالٌ يشبهون أعواد الثقاب ويقتلون المجنون. «أن نهزمه في عقولنا، ثم على الورق قبل أن نستطيع هزيمته كلحم ودم. ألم تسمع القس كولينز وهو يقول، مرَّة بعد مرَّة، إن ما يحدث في الجسد يكون قد حدث بالفعل في الروح؟». لم يكن سؤالًا ينتظر إجابة، وهكذا تابع قوله: «إذن، قبل أن نغادر هذه الغرفة باحثين عن أبولو، علينا أن نقتله هنا أولًا».

في البداية، فكرنا في الرسوم الخمسة التي تعرض لحظة تدمير أبولو، في إمكانية تحقيقها: أشار إلى الرسم الأول باسم «خطة داود وجالوت»؛ يَرجم هو أبولو بالحجارة فيموت أبولو.

شككتُ في إمكانية نجاح هذه الخطة. حاججتُ بأننا لسنا خدمًا للرب مثلما كان داود، ولا مقدَّرًا لنا أن نكون ملوكًا مثل داود، وقد لا نستطيع إصابة جبهته. كانت لحظة من النهار احتجبت فيها الشمس بالكامل عندما قلت ذلك، وكان أوبمبي قد أدار مروحة السقف. من مكان ما في الجوار، سمعتُ رجلًا يبيع صنادل مطاطية، وهو ينادي على بضاعته: «المطاط، المطاط... هييييبي!». جلس أخي في كرسيه، ويده على ذقنه، مفكرًا فيما قلته.

في النهاية، قال: «اسمع، أنا أفهم مخاوفك. ربما تكون محقًّا، لكنني فكرت كثيرًا في أننا نستطيع قتله عن طريق الرجم، لكن كيف نرجمه؟ وأين؟ وفي أي وقت من اليوم نستطيع أن نفعلها من دون أن يمسكوا بنا متلبسين؟ هذه هي المشكلات الحقيقية في تلك الفكرة، وليس أن نكون ملوكًا مثل داود».

أومأت برأسي موافقًا.

«إذا رجمناه في مكان يرانا فيه الناس، لا نستطيع أن نتوقع ما سيحدث، وماذا لو لم نحسن التصويب وأصبنا شخصًا آخر؟».

قلت وأنا أومئ برأسي: «معك حق».

بعدها وضع الرسم الذي يطعن فيه أبولو حتى الموت بسكين، تمامًا كما قُتل إيكينا. وكان قد سمَّاه «خطة أوكونكوو»، تيمنًا بقصة «الأشياء تتداعى». وأفزعني الرسم.

سألته: «ماذا لو قاوم أو قتلك أولًا؟ إنه شرير جدًّا، أنت تعرف».

هذا الاحتمال أزعجه، فتناول قلم رصاص وشطب على الرسم.

وهكذا، تطرقنا إلى رسم بعد آخر. نُخرج الفكرة، ثم نناقشها بحماسة، وبعد أن نكتشف تعذُّرها، نشطب عليها. وبعد أن مزقنا كل الرسوم، نسجنا مجموعة من الأحداث المتخيَّلة، معظمها كنا نتراجع عنه ونستبعده قبل أن يتشكَّل بالكامل. في أحدها، نطارد أبولو في الطريق في ليلة عاصفة، فيسقط أمام سيارة مسرعة، فتصرعه على الأرض وتنثر

محتويات رأسه على الطريق المطلي بالقار. كنت أنا من نسج هذا الحدث الخيالي، وقد ارتسمت في مخيلتي صورة جسد الرجل المنسحق على الإسفلت، كما في حوادث الطرق المتعددة التي سبق لي رؤيتها - وتروح ضحيتها الماعز والكلاب والأرانب. جلس أخي لبرهة وعيناه مغلقتان وعقله يتدبر الأمر. وكان بائع الصنادل المطاطية قد عاد، مناديًا بصوت أعلى وأعلى: «مطاط، مطاط، هيييييي! صنادل مطاااااااط، معيييييي». اقترب صوت البائع من دارنا، وراح يعلو أكثر فأكثر حتى إنني لم أنتبه أن أخي بدأ في الحديث. سمعته يقول: «... فكرة جيدة، لكنك تعرف هؤلاء الحمقى الجهلة، الناس **الجبناء** الذين لا يعرفون ما فعله المجنون بنا وبأسرتنا، سوف يحاولون إيقافنا».

ثانيةً، وكالعادة، وافقت على رأيه، فمزق الخطة ورمى نثارها بغضب على الأرض.

كانت عَلَقة إصرار أخي على الانتقام لشقيقَينا مغروسة بعمق، حتى لم يعد إهلاكها ممكنًا، ولا حتى بالنار. على مدى الأيام التالية، وفور مغادرة والدينا البيت، كنا ننطلق بحثًا عن المجنون، فنخرج في الصباحات المتأخرة، بين العاشرة صباحًا والثانية بعد الظهر. ومع أن الفصل الدراسي الجديد كان قد بدأ، إلا أننا لم ننتظم في الدراسة. كان أبي قد كتب إلى ناظرة المدرسة لتسمح لنا بإجازة فصلًا دراسيًّا حتى نتعافى، لأننا لم نكن مهيئين لاستكمال الدراسة بعد، إذ كان موت شقيقَينا لا يزال حديثًا في عقلينا. لذا، تجنبًا لمقابلة زملاء الدراسة أو الصبية الذين نعرفهم في الشوارع والحي، سرنا في مسالك خفية. على مدى الأيام التالية في الأسبوع الأول من ديسمبر، رحنا نمشط الحي بحثًا عن أي أثر للمجنون، لكننا لم نعثر له على أثر. لم يكن في شاحنته، ولا في الشوارع، ولا قرب النهر. وما كان باستطاعتنا سؤال أحد عنه، فالناس في الحي يعرفون الكثير عنا، وكثيرًا ما يرسمون على وجوههم سيماء التعاطف عندما يقابلوننا، كأننا نحمل على جبهتينا وصمة مأساة موت شقيقَينا.

هذه الإخفاقات لم تردع أخي، ولا حتى ما سمعناه عن المجنون في ذلك الأسبوع، تلك الحادثة التي قتلت كل شجاعة استجمعتُها عندما تعهدتُ بالانضمام إلى أخي في مسعاه. ظل المجنون مراوغًا لأيام كثيرة، ولم نره مرَّة في الحي. سألنا الناس الذين شعرنا أنهم لا يعرفوننا إن كانوا قد رأوه، حتى وصلنا إلى الطرف الشمالي لحيِّنا، بالقرب من محطة البنزين الكبيرة ذات المجمع العملاق، التي وُضع أمامها بالون ضخم على هيئة بشرية بزي متنافر ينحني باستمرار، ويميل إلى الجانبين، ويلوح بيديه مع اندفاع الرياح بداخله. هناك وجدنا نونسو، زميل إيكينا القديم في الفصل. كان جالسًا على مقعد خشبي على جانب الطريق الرئيسي، والصحف والمجلات مفرودة أمامه فوق أجولة مصنوعة من ليف النخيل. قال لنا بعد أن صافحنا وهو يضرب كفَّينا إنه أصبح البائع الرئيسي في حيِّنا.

سألنا، بصوت متحشرج كما لو كان مسطولًا بمخدر ما، وعيناه تروحان وتجيئان بين وجهينا: «ألم تسمعا عني؟».

تلألأت حلقة أذنه في الشمس، وكانت قزعته - غُرَّة من الشعر المستوي وسط رأسه - داكنة ومزيَّتة. سمع بموت إيكينا، وكيف أن «الولد الصغير» طعنه في بطنه. كنا نعرف أنه لا يحب بوجا، ولكنه قال: «رحمهما الله، على كل حال».

نهض رجلٌ على قدميه، وكان يقرأ نسخة من «الجارديان» فتركها على الطاولة، وأعطى نونسو بعض العملات. ألقيت نظرة على الصحيفة، فرأيت في الصفحة الأولى صورة القتيلة «قديرة أبيولا»، زوجة الفائز بانتخابات الرئاسة سنة 1993. أشار لنا لنجلس مكان الرجل على المقعد تحت مظلة قماشية. فكرتُ في اليوم الذي قابلنا فيه «M.K.O»؛ يومها وقفَت إلى جوارنا، وحكَّت رأسي بأصابعها المحاطة بالخواتم. تذكرتُ كيف كان صوتها يتسم بالسلطوية والتواضع في آنٍ واحد، وهي تطلب من الحشد أن يتراجع إلى الخلف. في صورة الصحيفة، كانت عيناها مغلقتين، ووجهها خاليًا من الحياة، شاحبًا لا لون فيه.

قال أوبمبي، وهو يأخذ مني الصحيفة: «إنها زوجة «M.K.O»، ألا تعرفها؟».

أومأت برأسي. تذكرتُ كيف اشتقتُ لرؤية هذه المرأة ثانيةً، بعد وقت طويل من لقائنا بـ«M.K.O». في ذلك الوقت، ظننت أنني أحبها. كانت أول امرأة أفكر فيها كزوجة. كل امرأة أخرى كانت إما امرأة أو أُمًّا لشخص ما أو فتاة، لكن هذه كانت **زوجة**.

سأل أخي نونسو إن كان قد رأى أبولو مؤخرًا.

قال نونسو: «المجنون؟ رأيته قبل يومين، هنا بالضبط، في هذا الشارع الرئيسي بجوار محطة البنزين، إلى جانب الجثة».

أشار إلى المسار الترابي إلى جوار الشارع الرئيسي الطويل الذي يقود إلى الطريق السريع الموصل إلى بينين.

سأله أخي: «أي جثة؟».

هز نونسو رأسه، وتناول فوطة صغيرة يعلقها دائمًا على كتفه، ومسح مُويجات من العرق جعلت عنقه يتلألأ في الشمس: «ماذا؟ ألم تسمع؟».

قال إن أبولو اكتشف جثة امرأة شابة قُتلت في وقت سابق في ذلك الصباح - فجرًا على الأرجح. وبسبب الاستجابة البطيئة المعتادة لشرطة المرور في ذلك الجزء من نيجيريا، تُركت الجثة في الموضع طويلًا، حتى منتصف النهار، وأصبحت محط أنظار الناس المارين من ذلك الطريق. بعد الظهيرة، بدأت الجثة تجتذب انتباهًا أكثر، حيث تجمَّع حشد آخر حولها. ألقى نونسو نظرة من بعيد، لكن الحشد حجب عنه رؤية ما يدور في المنتصف.

ثار فضوله إلى أقصى حد، فعبر الطريق إلى المتجمِّعين، تاركًا صحفه. وعندما وصل إلى الحشد وزاحم لكي يستطيع الرؤية، رأى جثة امرأة، رأسها يرقد على بركة شكَّلتها البقعة المسودَّة لدمها، ويداها مطروحتان إلى الجانبين كما سبق أن رآها، وخاتم يلتمع على إحدى أصابعها، وشعرها المشرَّب بالدم لزج ومشعث. لكن في تلك المرَّة، كانت عارية، نُزع الثوب عن ثدييها، وأبولو فوقها، فيما الحشد يتفرج مرتعبًا. كان بعضهم يتناقش حول ما إذا كان من الصواب تركه يدنس المرأة الميتة، بينما قال آخرون بأن المرأة قد ماتت بالفعل ولا ضير من ذلك، وزعم غيرهم أنه يجب أن يتوقف، لكنهم كانوا قلة. عندما فرَّج عن نفسه، راح في النوم، متشبثًا بالمرأة الميتة كأنها زوجته، حتى وصلت الشرطة وأخذتها منه.

صدمتنا تلك القصة أنا وأخي، حتى إننا لم نخرج لأي مهمة استطلاعية أخرى في ذلك اليوم. سقط وشاحٌ من الفزع والخوف من المجنون فوق رأسي، ولاحظتُ أن أوبمبي كان خائفًا هو الآخر. جلس في غرفة الجلوس طويلًا، صامتًا، حتى راح في النوم ورأسه مستند على الكرسي. ارتعت من المجنون، وتمنيت أن يتخلى أخي عن الأمر، لكنني لم أستطع مواجهته بذلك؛ خفت أن يغضب أو يكرهني، لكن مع نهاية ذلك الأسبوع، تدخلت العناية الإلهية - هكذا فهمتُ الآن، بعد أن صار الماضي أكثر وضوحًا - لتنقذنا مما سوف يأتي. أعلن أبي أن صديقه السيد بايو، الذي انتقل إلى كندا وأنا في الثالثة من عمري، قد وصل إلى لاغوس. حدث ذلك على الإفطار، ونزل الخبر مثل صاعقة. تابع أبي قائلًا إن السيد بايو وعد بأن يأخذني أنا وأوبمبي معه إلى كندا. انفجر الخبر فوق الطاولة مثل قنبلة يدوية، ناثرًا شظايا الفرحة في كل أرجاء الغرفة. صاحت أمي «هللويا!»، ثم انطلقت في الغناء وهي تنهض عن كرسيها.

كنت جذلًا، وأصبح جسدي فجأة مشحونًا بفرحة متهتكة. لكن عندما نظرتُ إلى أخي، رأيت أن تعبير وجهه لم يتغيَّر؛ كانت هناك ظُلمة على وجهه وهو يأكل. ألم يسمع؟ لم يبدُ أنه سمع، حيث كان منحنيًا على الطاولة، يأكل وكأنه لم يسمع.

سأل ديفيد، باكيًا: «وماذا عني؟».

«أنت؟»، سأله أبي ضاحكًا. «أنت أيضًا سوف تذهب. كيف لزعيم مثلك أن يبقى هنا؟ سوف تذهب، الحقيقة أنك ستكون أول من يصعد إلى الطائرة».

كنت لا أزال أتساءل عما يفكر فيه أخي عندما قال: «وماذا عن مدرستنا؟».

أجابه أبي: «سوف تدخل مدرسة أفضل في كندا».

أومأ أخي برأسه وأكمل طعامه. اندهشتُ لأني رأيته غير متحمس لما بدا أنه أفضل خبر في حياتنا. تابعنا أكلنا فيما راح أبي يحكي كيف تطورت كندا على مدى فترة قصيرة لتبزَّ بلادًا أخرى، من بينها بريطانيا، التي استقلت عنها. ثم نقل

الحديث إلى نيجيريا، حيث الفساد الذي نخر في أحشاء البلاد، وأخيرًا كالعادة، ألقى باللائمة على «جون»[8]، الرجل الذي صرنا نكرهه، الرجل الذي طالما اتهمه بتفجير قريتنا، الرجل الذي قتل نساءً كثيرات أثناء الحرب الأهلية النيجيرية. قال منفعلًا، وتفاحة آدم تعلو وتهبط في حنجرته، وأوتار رقبته تنفر: «هذا الأبله هو العدو الأكبر لنيجيريا».

بعد أن ذهب أبي إلى المكتبة، وخرجت أمي مع ديفيد ونكيم، ذهبتُ إلى أخي، وكان يجلب ماءً من البئر ليملأ البرميل في الحمَّام، وهو واجب كان من الأعمال الحصرية الخاصة بإيكينا وبوجا، حيث كان يُنظر إليَّ وإليه باعتبارنا أصغر من أن يُسمح لنا باستخدام البئر. كانت أول مرَّة نستعملها منذ أغسطس.

قال: «إذا كان صحيحًا أننا سنذهب إلى كندا قريبًا، سيكون علينا أن نقتل المجنون بأسرع ما يمكن. علينا أن نعثر عليه بسرعة».

قبل الآن، كان ذلك سيثيرني، لكن في ذلك الوقت، أردت أن أطلب منه أن ينسى المجنون، ونذهب لبدء حياة جديدة في كندا، لكنني لم أستطع. بدلًا من ذلك وجدتني أقول: «نعم، نعم يا أوبي. علينا أن نفعل ذلك».

«علينا أن نقتله بسرعة».

كان أخي قلقًا جدًّا من ذلك الخبر الذي يُفترض أنه جيد، حتى إنه لم يأكل في تلك الليلة. جلس يرسم ويمسح ويمزق، وأعصابه تحترق، حتى تضاءل قلمه الرصاص إلى حجم إصبعه، وامتلأت الطاولة بورق ممزق. أخبرني عند البئر، بعد مغادرة والدينا إلى عملهما، أن علينا أن نتصرف بسرعة. قالها بحدة، وهو يشير إلى البئر: «بوجا، أخونا تحلَّل مثل.. مثل سحلية تافهة، في هذا المكان، بسبب المجنون. علينا أن ننتقم وإلا فلن أذهب إلى أي كندا قبل أن أفعل ذلك».

عقد العزم، ولعق إصبعه ليشدد على عهده، ويجعلني أرى أنه وعدٌ. رفع دلاء الماء التي ملأها وعاد إلى البيت، وتركني واقفًا هناك أتساءل - كما كان يتركني دائمًا - إن كنت أشتاق إلى شقيقيَّ، إيكينا وبوجا، بقدر ما يشتاق هو إليهما. ثم أرحت نفسي بقناعة أنني أشتاق إليهما، لكنني فقط خائف من المجنون، وليس باستطاعتي أن أقتل؛ إنه شر، وكيف لي، وأنا مجرد طفل، أن أفعلها؟ لكن أخي قال إنه سينفذ الخطة بكل ما لديه من قدرة على الإقناع، مؤكدًا أنه سينجح، حيث أصبحت رغبته عَلَقة حصينة لا يمكن تدميرها.

«جون» (Gowon): يعقوب جون، الرئيس الثالث لنيجيريا بين عامي 1966 و1975. (المترجم).

14

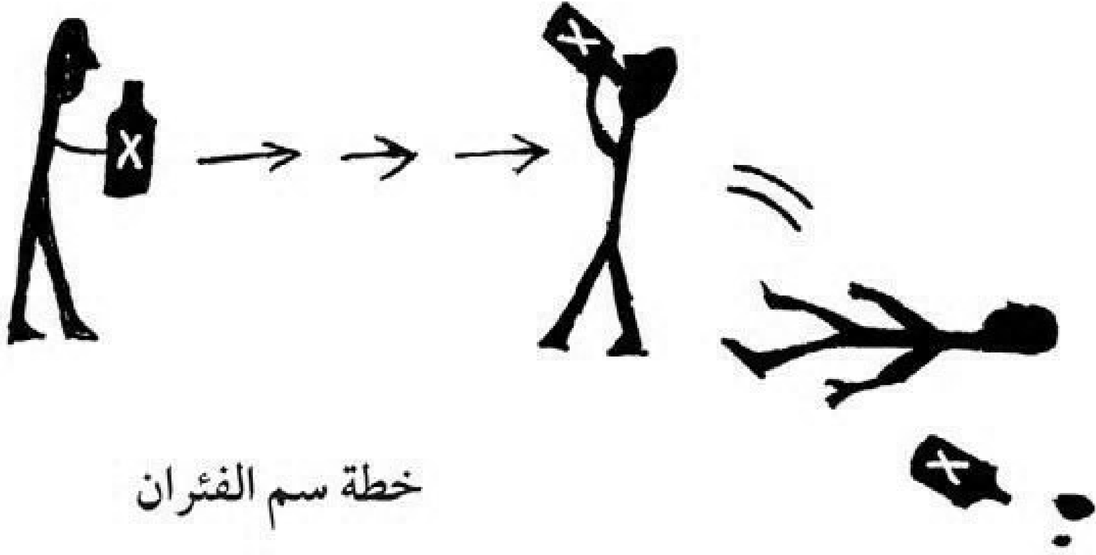
اللوياثان

أبولو كان لوياثان.

إنه حوتٌ خالدٌ يصعب قتله على يد زمرة من البحارة البواسل. لم يكن ليموت بسهولة مثل الرجال المخلوقين من لحم ودم. ومع أنه لم يختلف عن بقية أشباهه - المتشرد المجنون الذي يتمرغ، بسبب حالته العقلية، في حضيض البؤس والحرمان، لذا يتعرض إلى مخاطر بالغة - فقد سبق له أن اقترب من الموت أكثر منهم. عُرف عنه أنه يأكل القاذورات من مكب النفايات؛ فهو بلا بيت، يأكل كلما وجد فرصة، طعامه بقايا وجبات متناثرة في أرجاء المسالخ المفتوحة، وفتات طعام من مقالب القمامة، وفاكهة سقطت من الأشجار. ولأنه يأكل هناك منذ زمن طويل، فهذا يجعل المرء يتوقع أنه لا بد أصابه داء ما منذ فترة طويلة، لكنه مع ذلك يعيش، سليمًا معافى، وكرشه منفوخ. عندما مشى على الزجاج المتناثر وظل يدمى، ظن الناس أن تلك هي النهاية، لكنه ظهر ثانية بعد أيام. مع ذلك، لم تكن تلك سوى بعض من القصص التي تتحدث عن الأخطار التي يمكنها أن تقتل المجنون؛ فهناك الكثير من القصص الأخرى.

سبق أن أخبرنا سولومون، عندما اجتمعنا عند «أومي-ألا» في اليوم التالي للقائنا بأبولو، أن السبب الذي جعله يحذِّرنا بجدية من الإصغاء إلى نبوءة أبولو، هو اعتقاده بأن أبولو روح شريرة متجلية في هيئة جسدية. وليدعم رأيه ذاك، حكى لنا عما شهده قبل شهور عدة. لقد رأى أبولو يسير إلى جوار الرصيف وتوقف فجأة، بينما السماء تمطر رذاذًا، والمطر يبلله. واجه المجنون الطريق، وشرع ينادي أمه التي ظنَّها واقفة في وسط الطريق، وأخذ يتوسل إليها أن تسامحه على كل ما فعله بها. وفيما هو يتوسل إليها، ويتحدث معها، رأى سيارة مسرعة على الجانب الآخر من الطريق. ارتعب، ونادى صارخًا على أمه لكي تترك الطريق، لكن الطيف، الذي اقتنع المجنون بأنه حقيقي، ظل واقفًا بثبات في قلب الطريق. اندفع أبولو إلى الطريق لحظة وصول السيارة إلى حيث ظن أن أمه واقفة، لينقذها. دفعته السيارة بسرعتها إلى جانب الطريق المعشوشب، ثم انحرفت قليلًا عن الطريق إلى داخل الدغل القريب قبل أن تتوقف. قيل إن أبولو، الذي ظن الناس أنه لقي مصرعه على الفور، ظل برهة حيث تركته السيارة، ثم نهض على قدميه متعثرًا، داميًا من كل موضع، وثمة شجٌّ في جبهته. عندما نهض، نفض ملابسه المبتلة بالمياه، وكأن السيارة بالكاد أثارت عليه سحابة من التراب، ومضى بعيدًا وهو يعرج، مستديرًا من حين إلى آخر إلى الطريق الذي مضت فيه السيارة، قائلًا: «هل تريد أن تقتل شخصًا ما؟ إيه؟ ألا يمكن أن تقف عندما ترى امرأة في الطريق؟ هل تريد أن تقتل إنسانًا؟». ظل يعرج بعيدًا، وهو يسأل أسئلة لا حصر لها، ومضى في طريقه، متوقفًا أحيانًا ليلتفت خلفه ويده على شحمة أذنه، منذرًا السائق أن يقود ببطء في المرَّة المقبلة: «هل تسمع؟ هل تسمع؟».

في اليوم التالي لإعلان أبي عن هجرتنا المحتملة إلى كندا، دسَّ أخي رسمًا في يدي، فجلست أحدق فيه بينما كان يتكلم.



«نستطيع أن نقتله بالـ«**أوتا-بيا-بيا**». نستطيع أن نشتري واحدة ونضعها في الخبز أو أي شيء، ونعطيه للمجنون، فهو يأكل من أي مكان وأي شيء تقريبًا».

وافقته: «نعم، إنه يأكل حتى من المجارير».

قال، وهو يومئ برأسه: «نعم. لكن، هل فكرت لماذا لم يقتله الأكل من هذه الأشياء طيلة تلك السنوات؟ ألا يأكل من المكبات وأكوام القمامة؟ لماذا لم يمت؟».

كان ينتظر مني إجابة، لكنني لزمت الصمت.

«هل تتذكر القصة التي حكاها لنا سولومون عن السبب الذي جعله مرعوبًا منه، وراغبًا في تفادي أي صلة به؟».

أومأت برأسي.

«أنت تعرف إذن؟ اسمع، بالتأكيد لا يجب أن نستسلم، لكن علينا أن نعرف أن ذلك الرجل غريب. هؤلاء الأغبياء...» - هكذا أصبح يشير إلى أهل أكوري لأنهم سمحوا للمجنون أن يظل على قيد الحياة - «يؤمنون بأنه شيء خارق للطبيعة لا يموت، لأنهم كما تعرف، يظنون ببلاهتهم أن السنوات التي قضاها خارج نطاق العقل قد غيَّرت طبيعته البشرية، ومن ثَمَّ لم يعد رجلًا فانيًا».

سألته: «هل هذا صحيح؟».

«إذا أطعمناه خبزًا مسمومًا، سيظن الناس أنه مات لأنه أكل شيئًا بنفسه من مكب قمامة ما». لم أسأله كيف اكتشف ذلك لأنه يمثل مستودع المعرفة السرية الذي أؤمن به من دون مساءلة. وهكذا، بعدها بقليل، خرجنا وقد انتفخت جيوب شورت أخي بكسرات خبز منقوعة في سم القوارض، ومُغلَّفة في أكياس صغيرة. جلبنا الخبز باقتطاع قطعة من إفطاره في اليوم السابق. أخرج أخي الكسرات اليابسة ومزجها بالمزيد من الخليط المسمم، مالئًا الغرفة بالرائحة الحادة. قال إنه يريدنا أن نخرج في «تلك المهمة» مرَّة واحدة، وهكذا ستكون مرَّة واحدة. أخذنا تلك الكسرات، وذهبنا إلى الشاحنة التي يعيش فيها أبولو، لكننا لم نجده هناك. ومع أننا سمعنا أن بابها لا يزال يُفتح ويُغلق، فإنها كانت تُترك مفتوحة طوال الوقت تقريبًا. بدت المقاعد متقلقلة، وقد تقلَّصت إلى هيكل عظمي من الخشب، أما لحمها - الجلد الذي يغطيها - فقد تمزق أو بلي. سقفها الصدئ به ثقوب يدخل منها المطر، والمقاعد مملوءة بمختلف النفايات: ستارة زرقاء مستعملة تصل من المقعد إلى أرض الشاحنة، وهيكل مصباح كيروسين قديم بلا غطاء زجاجي، وعصا، وأوراق، وحذاء بالٍ، وعلب صفيح، والكثير من الأشياء الملتقطة من القمامة.

قال أخي: «ربما لم يحن الوقت بعد. دعنا نرجع إلى البيت ونعود بعد الظهر، ربما نجده وقتها».

رجعنا إلى البيت وعدنا لاحقًا بعد الظهر، بعد أن عادت أمي لوقت قصير إلى البيت لتغلي اليام للغداء قبل أن ترجع إلى متجرها. عندما عدنا، وجدنا المجنون هناك بالفعل، لكننا لم نكن مستعدين لما سوف نراه. رأيناه منحنيًا على مقلاة موضوعة على حجرين كبيرين، يُفرغ سائلًا من زجاجة مياه، بينما قطع من الخشب - يبدو أنه قصَد أن تكون حطبًا - متكومة بين الحجرين، لكنها لم تكن قد اشتعلت بعد. أفرغ المجنون محتويات الزجاجة في آنية الفخار، ثم تناول إحدى علب المشروبات التي لم نستطع فك شفرة محتوياتها بسهولة، وقلبها في المقلاة، وراح يجدُّ في إفراغ ما فيها، ويهز العلبة، ثم ينظر بداخلها مغمضًا إحدى عينيه، ويحكُّ محتواها ليفرغه في المقلاة، وبعد أن اقتنع بإفراغه لها، وضع العلبة برقَّة على مقعد صغير صُفَّت عليه كومة من الأشياء المصنَّفة، ثم اندفع إلى شاحنته، وعاد بما بدا أنه حزمة من الأوراق، وبعض العظام، وشيء كروي، ومسحوق أبيض لا بد أنه ملح أو سكر. صب هذه الأشياء في المقلاة، ورجع إلى الخلف مأخوذًا، وكأنما ليتفادى الأثر الاشتعالي الناجم عن غمر الأشياء في زيت يغلي. أصبح من الواضح، على نحو مسلٍّ جدًّا، أن المجنون يطهو - أو ظن أنه يطهو - يخنة من القاذورات والنفايات. للحظة، تخلَّينا عن مسعانا، ووقفنا نشاهد السيناريو غير مصدقين، حتى توقف رجلان لينضما إلينا كمتفرجين على أبولو في مطبخه.

كان الرجلان يرتديان قميصين رخيصين بأكمام طويلة، محشورين في بنطاليهما المفصَّلين من قماش ناعم - أحدهما يرتدي بنطالًا أسود والآخر أخضر. كانا يمسكان كتبًا بأغلفة مقوَّاة، عرفنا على الفور أنها أناجيل، وقد خرجا لتوِّهما من كنيسة ما.

«ربما، نستطيع أن نصلي لأجله»، هكذا قال أحد الرجلين، وهو داكن البشرة، وله صلعة توقفت في منتصف رأسه.

وقال الآخر: «نحن نصوم ونصلي منذ ثلاثة أسابيع، سائلين الرب أن يمنحنا القوة. أليس هذا هو الوقت المناسب لاستخدامها؟».

أومأ الرجل الأول برأسه على نحو خانع، وقبل أن يتمكَّن من الرد، قال شخص ثالث: «بالتأكيد ليس الوقت المناسب».

كان ذلك أخي، واستدار إليه الرجلان.

تابع أخي وقد بدا الخوف على قسماته: «هذا الرجل كذاب. هذا كله ادعاء. إنه عاقل. إنه نصاب معروف. يتظاهر بذلك لكي يتسول الصدقات. يرقص على الأرصفة، وأمام المحلات، وفي الأسواق، لكنه عاقل، ولديه أطفال». نظر أخي إليَّ، مع أنه كان يتحدث إلى الرجلين: «إنه أبونا».

صاح الأصلع مندهشًا: «ماذا؟».

تابع أخي لدهشتي الشديدة: «نعم. أمي أرسلتني أنا وبول» - قالها وهو يشير إليَّ - «لكي نعيده إلى البيت، هذا يكفي اليوم، لكنه رفض العودة معنا».

أومأ بإشارة توسل إلى المجنون الذي كان ينظر حول الكرسي والأرض كأنه يبحث عن غرض مفقود، ولم يبدُ أنه لاحظ أخي.

قال صاحب البشرة الداكنة: «غير معقول! كم في الدنيا من عجائب كثيرة! رجل يتظاهر بالجنون ليكسب عيشه؟ غير معقول!».

مضى الرجلان في طريقهما، وهما يهزان رأسيهما مرارًا، وقد أمرانا بالصلاة إلى الرب لكي يلطف به، ويجازيه على طمعه. قال صاحب البشرة الداكنة: «الرب قادر على كل شيء. أخلصا له في الدعاء».

أومأ أخي وشكر الرجلين. عندما ابتعدا عنَّا، سألته لماذا فعل ذلك.

قال وهو يبتسم: «ششش. اسمع، لقد خفت أن تكون عند هذين الرجلين قوة ما. لا يمكن أن تعرف: لقد صاما لثلاثة أسابيع؟ أف! ماذا لو كانا يملكان قوة مثل «رينهارد بونكي»، أو «كومويي»، أو «بيني هِن»، ويستطيعان أن يُصليا فينعما عليه بالشفاء؟ لا أريد أن يحدث ذلك. إذا صار بخير، لن يتسكع في الطرقات بعد ذلك، وربما يترك البلدة، مَن

يعرف؟ وأنت تعرف ماذا يعني هذا، أليس كذلك؟ سوف يهرب، سوف يفلت من العقاب بعد ما فعله. لا، لا، لن أسمح لذلك أن يحدث، على جثت...». أُجبر أخي على بتر كلمته حين رأينا ذلك المشهد: رجل وزوجته، وابنه في مثل عمري تقريبًا، وقد توقفوا للفرجة على المجنون، الذي أخذ يقهقه. وقد أحزن ذلك المنظر أوبمبي، إذ سوف يؤخرنا هؤلاء الناس ثانيةً فيترك المجنون مكانه. وعندما شعر بالإحباط، قرر أن المكان مكشوف جدًّا، ولا يصلح لاستخدام السم، فعدنا إلى البيت.

***

لم نجد أبولو في شاحنته عندما ذهبنا لنبحث عنه في اليوم التالي، لكننا وجدناه بالقرب من المدرسة الابتدائية الصغيرة ذات السور العالي. من داخل المدرسة، كان بوسعنا سماع الأصوات الموحدة للأطفال وهم يقرؤون الشعر، ولمدرسهم وهو يتدخل، ويطلب منهم من حين إلى آخر أن يصفقوا لأنفسهم. وسرعان ما نهض المجنون، وبدأ يسير بعظمة وجلال، ويداه مطويتان خلف ظهره مثل رئيس تنفيذي لشركة نفط. وعلى مسافة قريبة منه، كانت هناك مظلة مفتوحة وضلوعها الهيكلية مخلوعة عن قماشها المشمع الممزق. راح يدق بقدميه، وينشد سلسلة من الكلمات: «زوجة. عريس. حب. زواج. خاتم جميل. عريس. أنت. أبي. زواج».

قال لي أوبمبي - بعد أن اختفى المجنون برطانته عن الأنظار - إنه يقلد زفة عرس مسيحية. تبعناه عن بُعد، ببطء. مررنا من أمام الموضع، حيث كان إيكينا قد سحب رجلًا ميتًا من سيارة سنة 1993. وأثناء سيرنا، فكرت في فاعلية سم الفئران الذي نحمله، واشتد خوفي، وبدأت ثانيةً أشعر بالشفقة على المجنون، الذي بدا أنه يعيش تمامًا مثل كلب شارد يأكل من أي مكان. كان يتوقف كثيرًا، ويستدير، ويتجمد في وضعية استعراضية مثل عارضة أزياء على المسرح، فاردًا اليد التي تحمل خاتمًا. لم نأتِ إلى هذا الشارع من قبل. تقدم أبولو في اتجاه ثلاث نساء في شرفة، أمام بيت من طراز البنغالو، يضفِّرن شعر امرأة جالسة على مقعد بلا ظهر. طاردته امرأتان منهن، وهما تلتقطان الحجارة وترميانها في اتجاهه ليخاف ويهرب.

بعد وقت طويل من تراجع المرأتين - تحركتا خطوتين فحسب واكتفتا بالصراخ عليه ونعته بالوسخ - كان المجنون لا يزال يجري، وهو ينظر إلى الوراء من حين إلى آخر، بينما لا تزال الابتسامة المتهتكة على وجهه. كان الطريق الترابي، كما سنكتشف بعدها بقليل، شحيح السيارات، لأنه ينتهي بجسر خشبي طوله نحو مائتي متر فوق جزء من «أومي-ألا». وقد سهَّل هذا على بعض أطفال الشارع تحويل الدرب، الذي لا يزيد طوله على بضعة أمتار، إلى ملعب. صفَّ الأطفال أربعة أحجار كبيرة على طرفي الطريق، بينها مسافات؛ وكانت الحجارة تمثل علامات لقوائم المرمى. كانوا يلعبون كرة القدم، ويصيحون ويثيرون الغبار بأرجلهم. راح أبولو يراقبهم، ووجهه ممتلئ بالابتسامات، ثم راح يميل بجسده بهذه الطريقة وتلك، وفي يده كرة غير مرئية، ويركل بقوة في الهواء، حتى كاد أن يقع في الأثناء. صاح، وهو يضرب الهواء بيديه في إيماءة انتصار: «غوووووول! هذا غولللللل!».

عندما لحقنا به، رأينا إغبافي وأخاه بين الأولاد. ولحظة أن وضعنا أقدامنا على الجسر، تذكرت حلم جسر المشاة الذي سبق لي رؤيته في الفترة التي مر فيها إيكينا بتحوُّله المسخي. رائحة النهر المألوفة، ومنظر السمك متعدد الألوان الذي يشبه ما كنا نصطاده، وهو يسبح على حواف المياه، وصوت نقيق الضفادع غير المرئية، وصرير الجداجد، ورائحة الأشياء الميتة في النهر، ذكرتني جميعها بأيام صيدنا. راقبت السمك عن قرب، لأنني لم أره وهو يسبح منذ وقت طويل. في الماضي، تمنيت لو كنت سمكة، وصار إخوتي سمكًا أيضًا، وتمنيت لو أن كل ما نفعله، طيلة اليوم، وكل يوم، هو أن نسبح ونسبح ونسبح، بلا نهاية.

كما هو متوقَّع، بدأ أبولو يسير في اتجاه الجسر، عيناه مثبتتان على الأفق، حتى وصل إلى مطلعه. عندما صعد عليه شعرنا أن وزنه يثقل على اللوح الخشبي من الطرف الآخر من الجسر حيث يقف.

قال أخي، بينما المجنون يدنو منا: «سوف نعدو، سريعًا، فور أن نطعمه الخبز. قد يسقط في الماء ويموت هناك، لن

يراه أحد وهو يموت».

ومع خوفي من تلك الخطة، اكتفيت بإيماءة موافقة. عندما اعتلى أبولو الجسر، اتجه على الفور إلى الدرابزين وتشبث به، ثم بدأ يتبول في النهر. راقبناه حتى انتهى، وانحسر قضيبه مثل شريط من المطاط يرتد إلى مركز وسطه، قاذفًا بضع قطرات أخيرة على جسر المشاة. نظر أخي حوله ليتأكد من أن أحدًا لا يراقب، وأخرج الخبز المسمم واتجه إلى المجنون وهو يمضي في طريقه.

عندها، وقد اقتربنا، وصرت متأكدًا أنه سرعان ما سيموت، تركت عينيَّ تفحصان المجنون. بدا مثل رجل قوي من رجال زمن مضى، حيث كان الرجال يكسرون كل شيء يمسكون به بأيديهم العارية. كان شعر لحيته غزيرًا، يمتد من جانب وجهه نزولًا إلى فكه. بدا شاربه قائمًا فوق فمه كأنه مرسوم بضربات فرشاة رقيقة بطلاء من الفحم. كان شعره قذرًا، وطويلًا، ومتشابكًا، وخصلات كثيفة مورقة من الشعر تغطي أيضًا جزءًا كبيرًا من صدره، ووجهه المتجعد الداكن، وتجويف الحوض، وتحيط بقضيبه. بدت أظافره طويلة وملتوية، وتحت كل ظفر تجمعت كتل من السناج والوسخ.

لاحظت أنه تفوح من جسده تشكيلة من الروائح، أكثرها وضوحًا رائحة برازيَّة هبت في اتجاهي مثل ذبابات طنانة عندما اقتربتُ منه. أيقنت أن رائحته ناجمة عن بقائه طويلًا من دون تنظيف شرجه بعد التبرز. كانت رائحة العرق المتراكم داخل الشعر الكثيف حول عانته وإبطيه عطنًا، منتنًا بسبب الطعام العفن، والجراح التي لم تبرأ، والصديد، وسوائل الجسد وفضلاته. كما تفوح منه رائحة المعادن الصدئة، والمواد العفنة، والملابس القديمة، والثياب الداخلية، التي يرتديها أحيانًا، والمشبعة بمياه المجارير. انبعثت منه أيضًا رائحة أوراق الشجر، والحشرات الزاحفة، وثمار المانجو المتحللة بجوار «أومي-ألا»، ورمال ضفة النهر، وحتى المياه نفسها، فضلًا عن رائحة أشجار الموز، وأشجار الجوافة، ورائحة غبار «الهارمتان»، وقصاصات القماش في الصفيحة الكبيرة خلف متجر الخيَّاط، وبقايا اللحم في المسلخ المفتوح في البلدة، والمخلفات التي تلتهمها النسور، والواقيات الذكرية المستعملة من فندق «لا روم»، ومياه البلاعات والقاذورات، والحيوانات المنوية من تكرار القذف الذي يسكبه على نفسه في كل مرَّة يستمني فيها، والسوائل المهبلية، والمخاط الجاف. لكن ذلك لم يكن كل شيء؛ فقد كان يفوح برائحة أشياء غير مادية، فتنبعث منه رائحة حيوات الآخرين المحطمة، وروائح عناصر غريبة، وروائح أشياء مخيفة ومنسية. كانت تفوح منه رائحة الموت.

مد أوبمبي بعضًا من الخبز للمجنون، فتناوله عندما وصل إلينا. بدا أنه لم يتعرف علينا مطلقًا، وكأننا لم نكن الأشخاص أنفسهم الذين تنبأ بشأنهم.

«أكْل!»، قالها، وهو يخرج لسانه. ثم انفجر في حديث رتيب من الكلمات: «كُل، أرز، فاصوليا، كُل، خبز، كُل، هذا، ذرة، إيبا، يام، بيض، كُل». راح يضرب عقد أصابعه بكف يده الأخرى، ويواصل إنشاده الإيقاعي، الذي أشعلت فتيله كلمة «أكْل».

«أكْل، أكْل، **أجانكرو با**، أك-ك-ك-ك-ل! كُل هذا». باعد بين كفيه، مقلدًا شكل قدر. «كُل، أكْل، كُل، كُل...».

تلعثم أوبمبي قائلًا: «هذا أكل طيب. خبز، كُل، كُل يا أبولو».

قلب أبولو عينيه، ببراعة يخجل أمامها أمهر مديري العيون. أخذ قطعة من الخبز من أوبمبي، وقهقه وتثاءب وكأن تلك علامات ترقيم من نوع ما، ومن ثَمَّ بربر ببعض الكلمات التي تفوه بها لتوِّه. وفور أن تناول المجنون الخبز، حدق أوبمبي فيَّ، وتراجع إلى الخلف حتى وصل إلى مسافة آمنة، فسارعنا الخطى. ولسوف نجري في شارع آخر قبل أن نفكر في التوقف. على مبعدة، كان طريق سريع وحشي يتموج فوق رقعة من الطريق الترابي.

قال أخي، وهو يلهث، ويمسك كتفي ليسندني: «دعنا لا نبتعد عنه كثيرًا».

«نعم»، تمتمتُ وأنا أحاول التقاط أنفاسي.

«سوف يسقط قريبًا»، خرخر أخي، وعيناه تبدوان كأفق يؤوي نجمًا مشعًّا واحدًا من الفرحة، لكن عينيَّ أنا كانتا مليئتين بأنهار متدفقة من الشفقة التي تمزق نياط القلب. عادت رواية أمي حول أبولو، وكيف رضع من حلمات بقرة،

إلى عقلي لحظتها، وكذا الإحساس أن الفاقة والحرمان هما اللذان دفعاه إلى تلك الحالة اليائسة. في ثلاجتنا علب حليب، «كاوبيل»، «بيك»، تحمل صورًا لأبقار. فكرت أنه ربما لا يستطيع شراء أي منها. فهو لا يمتلك نقودًا، ولا ملابس، ولا أبوين، ولا بيتًا. كان مثل الحمامات في أغنية مدرسة الأحد التي كنا نغنيها: «انظر إلى الحمامات، ليس لديها ملابس، ليس لديها حدائق، مع ذلك فالله يرعاها». وفكرت أن أبولو مثل الحمامات، ولهذا أشفقت على المجنون، كما كنت أفعل أحيانًا.

قال أخي، قاطعًا عليَّ أفكاري: «سيموت بعد قليل».

توقفنا أمام مظلة تبيع امرأة تحتها سلعًا بسيطة. المظلة تغطي شبكة فوق ما يُشبه صندوق الحساب للتعامل مع الزبائن، وقد عُلقت من التعريشة أكياس مشروبات ومأكولات مختلفة: حليب مجفف، بسكويت، حلوى، وغير ذلك. وبينما ننتظر هناك، تخيلتُ أبولو يسقط ويحتضر فوق الجسر. لقد رأيناه يضع الخبز المسمم في فمه، وفمه المشورَب يهتز وهو يمضغ. ونراه الآن، لا يزال يمسك بالكيس النايلون، ويحدق في النهر. مر به بضعة رجال، ثم استدار أحدهم لينظر إليه، فقفز قلبي.

همس أخي: «إنه يحتضر. انظر. الأرجح أنه يرتعش الآن، وهذا ما جعل الرجال ينظرون إليه. يقولون عندما يبدأ التأثير، يبدأ الجسد أولًا في الارتعاش».

وكأنما ليؤكد شكوكنا، انحنى أبولو إلى الأمام على الجسر، وبدا أنه يبصق شيئًا. وفكرتُ أن أخي محق. لقد رأينا الكثير من الأفلام التي يسعل فيها الناس وتخرج الرغوة من أفواههم بعد تناول السم، ثم يسقطون ويموتون.

صاح قائلًا: «لقد نجحنا. لقد نجحنا. لقد انتقمنا لإيكي وبوجا. قلت لك إننا سنفعل. قلت لك».

بدأ أخي يتكلم منتشيًا عن السكينة التي سننعم بها الآن، وعن المجنون الذي لن يزعج الناس بعد ذلك، لكنه توقف عن الكلام عندما رأى أبولو يشرع في السير في اتجاهنا، راقصًا ومصفقًا. اتجهَت إلينا هذه المعجزة راقصة، ومغنية أناشيد مخلِّص دُقت في كفيه مسامير طولها تسع بوصات، لكنه سيُبعث يومًا ليعود إلى الأرض. هدرت مزاميره في المساء الذي ينزل عليه الظلام، وحوَّلته إلى عالم باطني، بينما رحنا نتابع المشهد، مصدومين كونه لا يزال على قيد الحياة. مشينا متثاقلين على الطريق الطويل، مرورًا بالدكاكين التي تغلق أبوابها، حتى توقف أوبمبي، وقد عجز عن الكلام، واستدار عائدًا إلى البيت. كنت أعرف أنه، مثلي، قد أدرك الفرق بين إصبع سليمة صحيحة مغطاة بالدم جراء انغماسها في بركة من الدم، وبين إصبع مكسوة بالدم جراء جرح. لقد أدرك أن السم لن يقتل أبولو.

***

بينما حفظت العَلَقة التي ابتُلينا بها أنا وأخي أحزاننا، وأبقت على جراحنا طازجة، شُفي والدانا. طرحت أمي ثياب الحداد مع قرب نهاية ديسمبر، وعادت إلى حياتها العادية. لم تعد تنفجر في نوبات غضب مفاجئة، أو تغوص في منحدرات مفاجئة من الحزن، وبدا أن العناكب قد انقرضت. وبسبب شفائها، أقيم قداس تأبيني لإيكينا وبوجا، بعد أن تأجَّل لأسابيع بسبب مرض أمي، في السبت التالي - بعد خمسة أيام من محاولتنا الأولى الفاشلة لإنهاء حياة أبولو. في ذلك الصباح، ارتدينا جميعًا ثيابًا سوداء، حتى ديفيد ونكيم، وتكدسنا في سيارة أبي التي أصلحها السيد بودي في اليوم السابق. لقد قربه دوره في تلك المأساة من أسرتنا، وزارنا مرَّات عدة، منها مرَّة مع خطيبته، وهي فتاة تمنعها أسنانها الناشزة من إغلاق فمها بإحكام. وصار أبي يناديه: «أخي».

يتكون القداس من أغنيات وداع، واستعراض مختصر لتاريخ «الولدين» قدَّمه أبي، وعظة قصيرة ألقاها القس كولينز الذي وضع شاشًا على رأسه في ذلك اليوم. لقد أصيب في حادث قبل بضعة أيام وهو يستقل دراجة بخارية بالأجرة. امتلأت القاعة بوجوه مألوفة من الجيران، معظمهم أبناء كنائس أخرى. في كلمته، قال أبي إن إيكينا كان رجلًا عظيمًا، وقد رماني أوبمبي بنظرة متلكئة عندما قال ذلك، كان سيقود الرجال لو ظل على قيد الحياة.

قال: «لن أقول الكثير عنه، لكن إيكينا كان طفلًا نقيًّا، طفلًا عرف الكثير من الصعوبات. أقصد، لقد حاول الشيطان

أن يسرقه، مرَّات عديدة، لكن الرب حفظه. لقد لدغته عقرب وهو في السادسة...». ترددت شهقة رعب مكتومة من الحضور لدى سماع ذلك.

أكمل: «نعم، في يولا. وبعد بضع سنين فقط، تعرض لركلة دفعت إحدى خصيتيه إلى داخل جسده. سوف أعفيكم من بقية التفاصيل عن تلك الحادثة، لكن أريدكم أن تعرفوا أن الرب كان معه. أما أخوه بوجا...». ثم نزل على الحشد ذلك النوع من الصمت الذي لم أشهد قَطُّ في حياتي مثله، فبينما كان لا يزال على المنصة، أمام الكنيسة، راح أبي - أبونا، الرجل الذي يعرف كل شيء، الرجل الشجاع، الرجل القوي، الجنرال، قائد قوات التأديب الجسدي، المثقف، العُقاب - ينشج. اعتراني شعور بالخجل لمنظر أبي وهو يبكي على الملأ. نكستُ رأسي، وثبتُّ عينيَّ على حذائي، بينما راح أبي يكمل، وإن راحت كلمته في تلك المرَّة - مثل شاحنة أخشاب مكدسة بحمولة زائدة وسط زحام مروري في لاغوس - ترتج على الطريق الترابي المجدور المكوِّن لخطابه المؤثر، فتنتفض وتتعثر.

«كان سيصبح عظيمًا أيضًا. كان.. كان طفلًا موهوبًا. كان، إن كنتم قد عرفتموه، كان.. طفلًا طيبًا. أشكركم جميعًا على الحضور».

بعد تصفيق طويل عند انتهاء كلمة أبي المتعجلة، بدأت التراتيل. بكت أمي بهدوء في الأثناء، وأخذت تجفف عينيها بمنديل، بينما انغرس سكين صغير من الحزن ببطء داخل قلبي وأنا أبكي على شقيقيَّ.

بينما الجمع يغني: «لعله خيرٌ لروحي»، لاحظتُ حركات غير طبيعية. في لحظة، بدأت الرؤوس تستدير، والعيون تتحول في اتجاه المؤخرة. لم أرغب في الاستدارة لأن أبي كان يجلس إلى جوارنا، بجانب أوبمبي، وفيما كنت أتساءل، أمال أوبمبي رأسه تجاهي، وهمس: «أبولو هنا».

استدرتُ على الفور ورأيت أبولو، في قميص بُني موحل، عليه دائرة كبيرة من العرق والأوساخ، واقفًا وسط الجمع. ألقى أبي نظرة عليَّ، وعيناه تأمرانني بالتركيز. لقد حضر أبولو إلى الكنيسة من قبل أكثر من مرَّة. في المرَّة الأولى، جاء في منتصف عظة، وتجاوز الأدلَّاء على الباب، وجلس على مقعد في الصف المخصص للنساء. ومع أن الجمع أدرك على الفور أن شيئًا غير معتاد يحدث، فقد واصل القس عظته، بينما ظل الأدلَّاء، وهم شباب يحرسون الباب، يراقبونه بأنظارهم، لكنه ظل محافظًا على رباطة جأش غير عادية طوال العظة، وعندما حان وقت الصلاة الختامية والترنيم، انخرط فيهما كأنه ليس الشخص الذي يعرفه الجميع. وعندما صُرف الجمع، خرج بهدوء مخلفًا قلقلة في أعقابه. ثم حضر بضع مرَّات أخرى بعدها، وكان يجلس غالبًا في صف النساء، مثيرًا جدلًا حاميًا بين أولئك الذين يشعرون بأن عُريه غير مُرحب به بسبب وجود النساء والأطفال، وأولئك الذين يشعرون بأن بيت الرب يرحب بكل من يرغبون في دخوله، عُراة أو مكسوين، فقراء أو أغنياء، عقلاء أو مجانين، ولا تهمه هوياتهم. وفي النهاية، قررت الكنيسة أن تمنعه من حضور القداديس، وأصبح الأدلَّاء يطاردونه بالعصي كلما اقترب من الكنيسة.

لكنه فاجأ الجميع في ذلك اليوم المخصص لقداس تأبين شقيقيَّ. تسلل ودخل، بينما الجميع مشغولون عن المراقبة، وعندما لاحظوه كان قد دخل بالفعل. ولحساسية القداس، تركه المسؤولون. لاحقًا، بعد أن أغلقت الكنيسة أبوابها، وبعد أن غادرها، ذكرَت المرأة التي جلس بجانبها كيف راح يبكي أثناء القداس. قالت إنه سألها إن كانت تعرف الصبي، وقال إنه يعرفه. وقالت المرأة، بهزة من رأسها بطريقة من رأى شبحًا في ضوء النهار الساطع، إن أبولو كرر اسم إيكينا مرارًا.

لم أعرف ما الذي استنتجه والداي من حضور أبولو لقداس وداع ابنيهما، اللذين تسبَّب هو في موتهما، لكنني استطعت أن أخمن، من الصمت الرهيب الذي لفنا جميعًا طوال الطريق إلى البيت، أن الأمر مثَّل صدمة لهما. لم ينطق أحد كلمة، باستثناء ديفيد الذي فُتن بإحدى الأغنيات التي سمعها في القداس، فراح يهمهم بها أو يحاول أن يغنيها. كنا في منتصف اليوم تقريبًا، ومعظم الكنائس في هذه البلدة ذات الأغلبية المسيحية قد أغلقت أبوابها، وصارت السيارات تملأ الطرق. وبينما نشق طريقنا وسط المرور المسدود، راحت أغنية ديفيد المفعمة بالمشاعر - هذا الإبداع الخارق

المُصاغ في بربرات حلقية، وأخطاء لفظية، وكلمات مشققة، ومضامين مقلوبة، ومعانٍ مخنوقة - تملأ السيارة بجوٍّ من الراحة والسكينة، حتى أصبح الصمت ملموسًا، وكأن شخصين إضافيين، لا يمكن رؤيتهما بالعين المجردة، يجلسان معنا، وينعمان بالراحة والسكينة، شأننا جميعًا.

لما سلام تفك متل النهر
لما حسن ترب متل البحر
كان كدري، تعلمت أكول
لالو خيرن، لالو خيرن روحي
لالو خيرن، لالو خيرن روحي
لالو خيرن، لالو خيرن روحيبي (9)

بُعيد عودتنا إلى المنزل، خرج أبي ولم يرجع حتى آخر اليوم. وحين تجاوز الوقت منتصف الليل، ازداد خوف أمي وتعاظم. اندفعت مثل قطة مهتاجة في أرجاء البيت، ثم إلى الجيران، قائلة إنها لا تعرف مكان زوجها. بدا قلقها شديدًا، حتى إن عددًا كبيرًا من جيراننا تجمعوا في بيتنا، يواسونها ويحثونها على الصبر، والانتظار قليلًا - حتى اليوم التالي على الأقل - قبل الذهاب إلى الشرطة. ومع أن أمي أخذت بالنصيحة، فقد غمرتها حالة محمومة من القلق عندما عاد أبي. استسلم الأطفال، حتى أوبمبي، للنوم في ذلك الوقت، وبقيت أنا. لم يستجب أبي لتوسلات أمي ويخبرها أين كان، ولماذا عاد بضمادة على إحدى عينيه. اكتفى بأن سحب قدميه إلى غرفته. وعندما سأله أوبمبي في الليلة التالية، اكتفى بالقول: «أُجريت لي عملية مياه بيضاء، ولا أريد المزيد من الأسئلة».

ابتلعتُ اللعاب الذي تكوَّن في حلقي وأنا أحاول أن أمنع نفسي من إلقاء مزيد من الأسئلة.

بعد برهة، سألتُه: «ألم تكن ترى؟».

صاح: «قلت لا.. أريد.. المزيد.. من.. الأسئلة».

مع ذلك، فقد أدركتُ، عندما لم يذهب إلى عمله، ومثله أمي، أن شيئًا سيِّئًا بحق وقع له. ولم يعد أبي، الذي تغيَّر كثيرًا بفعل المآسي، وبسبب وظيفته، إلى سابق عهده بعد ذلك. حتى بعد أن أزيلت الضمادة، ظل جفن تلك العين عاجزًا عن الانغلاق بالكامل مثل العين الأخرى.

لم أذهب أنا وأوبمبي لاصطياد أبولو طيلة ذلك الأسبوع، لأن أبي ظل في البيت طوال الوقت، يستمع إلى الراديو، أو يشاهد التلفزيون، أو يقرأ، بينما أمي لا تني تلعن المرض، «المياه البيضاء» التي جعلت أبي يبقى في المنزل. ذات مرَّة، عندما كان أبي يشاهد التلفزيون، وعيناه مثبتتان على أخبار ساعة الذروة التي يقرأها «سيريل ستوبر»، سأله أوبمبي متى سنذهب إلى كندا. «أوائل العام المقبل»، قالها أبي برباطة جأش.

على الشاشة أمامه ظهر مشهد حريق، وجلبة مسعورة، ثم أجساد مسودَّة في مراحل مختلفة من الاحتراق، تتناثر في حقل محترق ينبعث منه دخان أسود. همَّ أوبمبي بقول شيء آخر، لكن أبي رفع كفه وقد فلطح أصابعه الخمس لكي يوقفه فيما كان التلفزيون يقول: «وبسبب عمليات التخريب المؤسفة تلك، فإن إنتاج البلاد اليومي قد تقلص الآن إلى خمسة عشر ألف برميل يوميًّا. وهكذا، فإن حكومة الجنرال ساني أباتشا تحض المواطنين على توخي الحرص حتى مع عودة الطوابير أمام محطات البنزين، وليعلموا أن ذلك سيكون أمرًا مؤقتًا. مع ذلك، فالحكومة ستضرب أي فاجر لئيم بيد من حديد».

انتظرنا بصبر، كي لا نشتته، حتى ظهر على الشاشة رجل ينظف أسنانه من أعلى إلى أسفل.

قال أخي بسرعة فور ظهور الرجل على الشاشة: «في يناير؟».

«قلت أوائل العام المقبل»، دمدم أبي، وهو يخفض عينيه، والعين المصابة نصف مغمضة. تساءلتُ: تُرى ما الذي

أصاب عين أبي حقًّا؟ لقد سمعته يتجادل مع أمي بعد أن اتهمَته بالكذب، وأنه لم يُصب بـ«المياه البيضاء». فكرتُ، ربما دخلَت حشرة في عينه، وآلمني أنني لم أصل إلى شيء، وخامرني شعور أن إيكينا وبوجا لو كانا على قيد الحياة لأمكنهما - لما يتمتعان به من حكمة أكبر - أن يقدما إليَّ إجابة.

«أوائل العام المقبل»، دمدم أوبمبي عندما عدنا إلى غرفتنا. ثم، وصوته ينخفض مثل جمل ينيخ: «أوائل.. العام.. المقبل».

قلت، وأنا مسرور من داخلي: «مؤكد أن ذلك في يناير؟».

«نعم، يناير، لكن هذا يعني أنه ليس لدينا وقت طويل. الحقيقة، ليس لدينا وقت على الإطلاق. ليس لدينا وقت طويل». هز رأسه. «لن أكون سعيدًا في كندا أو في أي مكان، إذا ظل هذا المجنون يعيش بحرية».

ومع أنني منتبه جدًّا لئلا أثير سخط أخي، لم أستطع أن أمنع نفسي من القول: «لكننا حاولنا، وهو لا يموت فحسب. لقد قلتها أنت: إنه مثل الحوت...».

«كذب!»، صاح بها، ودمعتان وحيدتان تتدحرجان من عينيه المحمرتين. «إنه إنسان، هو أيضًا يمكن أن يموت. لقد قمنا بمحاولة واحدة، محاولة واحدة فقط لأجل إيكي وبوجا، لكنني أقسم أنني سأنتقم لشقيقيَّ».

نادى أبي في تلك اللحظة، وأمرنا أن نذهب لتنظيف سيارته.

همس أخي ثانية: «أنا سأفعلها».

مسح عينيه بقماشة حتى جفَّتا. لاحقًا، بعد أن نظف السيارة بفوطة غمرها في دلو ماء، أخبرني أننا يجب أن نحاول مع «خطة السكين». هكذا يجب أن تتم: علينا أن نتسلل خارج الغرفة في ظلام الليل، ونعثر على المجنون في شاحنته، ثم نطعنه حتى الموت ونلوذ بالفرار. ما وصفه أفزعني، لكن أخي، رجل الأحزان الصغير هذا، وقد أوصد الباب، أشعل سيجارة للمرَّة الأولى منذ وقت طويل. ومع أن الكهرباء موجودة، فقد أطفأ النور حتى يظن والدانا أننا نائمان. ومع أن الليلة باردة قليلًا، فقد ترك النافذة مفتوحة وهو ينفث الدخان إلى الخارج. ثم عندما انتهى، عاد إليَّ، وهمس: «سنفعلها الليلة».

قفز قلبي. سمعت ترتيلة عيد الميلاد تصدح من مكان ما بالجوار، وانتبهتُ، فجأة، إلى أن تلك الليلة هي ليلة الثالث والعشرين من ديسمبر، وأن اليوم التالي سيكون عشية عيد الميلاد. وقد أذهلني حجم الاختلاف الذي أصاب موسم عيد الميلاد: كيف صار موحشًا وخاليًا من الأحداث مقارنة بالمواسم السابقة. جاء كالمعتاد بصباحات مغلَّفة بالضباب الذي حين ينقشع، يترك سحبًا من الغبار عالقة في الهواء. كان الناس يملؤون بيوتهم بالزينة، وتظل محطات الراديو والتلفزيون تذيع تراتيل بعد تراتيل. وأحيانًا، يتلألأ تمثال العذراء عند بوابة الكاتدرائية الكبيرة، التمثال الجديد الذي نُصب بعد أن دنس أبولو التمثال القديم، يتلألأ بزينة مبهرجة الألوان، جاذبًا الكثيرين بوصفه البقعة الأشد إشراقًا لاحتفالات عيد الميلاد المجيد في حيِّنا. تشرق وجوه الناس بالابتسام حتى مع ارتفاع أسعار البضائع - خصوصًا الديكة الحية، والديكة الرومية، والأرز، وكل وصفات عيد الميلاد الفاخرة - إلى درجة تفوق قدرة الشخص العادي. لا شيء من هذا حدث ذلك العام، على الأقل في بيتنا. لا زينة، ولا استعدادات. وقد بدا أن أرضَات الحزن الوحشية التي هاجمتنا قد نهشت كل المظاهر العادية في حياتنا، ومن ثَمَّ، أصبحت أسرتنا ظلًّا لما كنا عليه ذات يوم.

«الليلة»، قال أخي بعد برهة، وقد ركز عينيه على عينيَّ، بينما بقي وجهه صورة ظليَّة. «معي السكين بالفعل. فور أن نتأكد أن بابا وماما نائمان، سنخرج من النافذة».

ثم قال، وهو يطرح كلماته على الجسم الدخاني غير المميز: «هل سأذهب وحدي؟».

تلعثمت قائلًا: «لا، سآتي معك».

قال: «جيد».

على الرغم من أنني أتوق إلى حب أخي، ولا أرغب في إحباطه ثانيةً، فإني لم أستطع أن أجبر نفسي على اصطياد

المجنون في منتصف الليل. كانت أكوري مكانًا خطيرًا في الليل؛ وحتى البالغون كانوا يحاذرون عند الخروج بعد حلول الظلام. ذات مرَّة، قرب نهاية الفصل الدراسي، وقبل موت إيكينا وبوجا، أُعلن في طابور الصباح أن إريبامي أوجو، أحد زملائي في الفصل الذي يعيش في شارعنا، قد فقد والده في حادث سطو مُسلَّح.

تساءلتُ: لماذا لا يبدو أخي، وهو طفل ليس أكثر، خائفًا من الليل؟ ألم يكن يعرف؟ ألم يسمع بتلك الأمور؟ والمجنون، العفريت، ربما يعرف أننا سنذهب فيرقد في انتظارنا. تصورت أبولو وهو ينزع السكين ويطعننا بها، وملأني ذلك بالرعب.

نهضت من السرير، وقلت إنني أريد أن أخرج لأشرب. ذهبت إلى غرفة الجلوس حيث لا يزال أبي جالسًا، ويداه مطويتان على صدره، يشاهد التلفزيون. جلبت ماءً في كأس من البرميل في المطبخ وشربت، ثم جلست على الأريكة بالقرب من أبي الذي اكتفى بملاحظة حضوري بإيماءة من رأسه، وسألته إن كانت عينه بخير. «نعم»، قالها واستدار إلى التلفزيون. كان رجلان يرتديان بدلتين ويتجادلان، وفي الخلفية كان هناك ملصق مكتوب عليه «شؤون اقتصادية». لقد فكرت في طريقة للتهرب من الذهاب مع أخي. هكذا، تناولت إحدى الصحف الموضوعة بجوار أبي وبدأت أقرأ. كان أبي يحب هذا، ويستمتع بكل جهد يُبذل من أجل اكتساب المعرفة. وبينما أمر بعينيَّ على الصحيفة، سألت أبي بضعة أسئلة رد عليها باقتضاب. لكنني أردته أن يتكلم طويلًا، فسألته عن يوم قال إن عمه ذهب للمشاركة في الحرب. أومأ أبي برأسه، وبدأ يتكلم، لكنه بدا نعسان، يتثاءب مرَّة بعد مرَّة، فأوجز.

مع ذلك تطابقت قصته تمامًا مع ما سرده من قبل: عمه يختبئ بين الأشجار إلى جانب الطريق السريع لكي ينصب كمينًا لرتل من الجنود النيجيريين. عمه والرجال يفتحون وابلًا من النيران على الجنود الذين عجزوا عن معرفة الاتجاه الذي تأتي منه الطلقات، فراحوا ينطلقون على نحو محموم في الغابة الخاوية حتى قُتلوا جميعًا. وسيعلن أبي: «جميعهم. لم ينجُ واحد منهم».

عدت لتثبيت عينيَّ على الصحيفة، وبدأت أقرأ وأدعو ألا ينهض أبي قريبًا. ظللنا نتكلم لنحو ساعة، واقتربت الساعة من العاشرة. تساءلت عما كان يفعله أخي، إن كان سيأتي إليَّ. ثم بدأ أبي ينام. أطفأتُ النور وانثنيت على نفسي فوق الأريكة.

لا بد أن أقل من ساعة قد مرت قبل أن أسمع الباب يفتح واستشعرت حركة في غرفة الجلوس. انتقلت الحركة إلى ما وراء الأريكة، ثم شعرت بيده تهزني، بطيئًا في البداية، ثم بقوة، لكنني لم أتململ حتى. حاولت أن أصدر أصواتًا خافتة بحلقي، وعندما شرعت في ذلك، تحرك أبي، ولاحظتُ حركة حادة خلف الأريكة - ربما أخي وهو ينحني مختبئًا. ثم شعرت به ينسلُّ بطيئًا عائدًا إلى غرفتنا. انتظرت برهة، ثم فتحت عينيَّ. أدهشني الوضع الذي اتخذه أبي. كان نائمًا، رأسه مائل إلى الجنب مستندًا على الأريكة، وذراعاه متدليتان على جانبيه. كان الضوء المنبعث من المصباح الأصفر الساطع دائمًا من بيت جيراننا، على بيتنا من فوق السور، يضيء جزءًا من وجهه من بين شقوق الستارة، مانحًا إياه مظهر رجل يضع قناعًا مزدوجًا - نصفه أسود، ونصفه أبيض. راقبت وجه أبي لبرهة، وقد اقتنعت أن أخي مضى، ثم ذهبت في النوم.

عندما استيقظت في الصباح التالي، قلت لأخي إنني ذهبت لأشرب فبدأ أبي يتكلم معي، ولم أعرف متى غلبني النوم. لم يرد أخي عليَّ بكلمة، وظل جالسًا في مكانه، ينظر إلى غلاف كتاب مرسوم عليه سفينة في البحر وجبال، ورأسه مستند على يده.

سألتُه بعد أن طال الصمت: «هل قتلته؟».

دُهشت عندما قال: «الأبله لم يكن هناك». لم أتوقع ذلك، لكن بدا أن أخي صدَّقني، وأن حيلتي نجحت. لم أظن يومًا قَطُّ أني قادر على الاحتيال عليه. لكنه أخبرني الآن، كيف أنه خرج وحده مسلحًا بالسكين بعد أن نمت ولم ألحق به. لقد سار ببطء - لم يكن هناك أحد، لا أحد على الإطلاق في الشوارع في ذلك الوقت من الليل - في اتجاه شاحنة المجنون، لكن المجنون لم يكن هناك! بدا أخي ساخطًا.

رقدت في الفراش، وعقلي يهيم في أراضي الماضي الشاسعة. تذكرت يوم اصطدنا عددًا كبيرًا من الأسماك، كبيرًا حتى إن إيكينا شكا أن ظهره آلمه. يومها جلسنا عند النهر، وأخذنا نغني أغنية الصيادين وكأنها أغنية من أغاني الحرية، رحنا نغنيها بصوت عالٍ حتى بُحت أصواتنا. لم نفعل شيئًا بقية المساء إلا الغناء، والشمس المحتضرة مهملة في زاوية من السماء، ذاوية كحَلمة على صدر فتاة مراهقة تمضي بعيدًا.

***

ظل أخي مسربلًا داخل جِلده لأيام عديدة بعدها، وقد حطمته إخفاقاتنا المتوالية. في يوم عيد الميلاد، أخذ يحدق خارج النافذة أثناء الغداء، بينما أبي يتكلم عن النقود التي أرسلها لصديقه من أجل رحلتنا. كانت كلمة «تورنتو» تتراقص حول المائدة مثل جنيَّة، تملأ أمي بفرحة عميقة. بدا أن أبي - وإحدى عينيه نصف مغلقة - يكررها كثيرًا من أجل خاطرها. وفي عشية رأس السنة، بينما تلعلع فرقعات الألعاب النارية في أرجاء البلدة على الرغم من الحظر المفروض عليها من قِبل الحاكم العسكري، الكابتن «أنتوني أونياروغبولم»، ظللنا أنا وأخي في غرفتنا، صامتين ومتأملين. في الماضي، كنا نُطلق الألعاب النارية مع شقيقَينا الكبيرين في أرجاء الشارع، وأحيانًا ننضم إلى أطفال الشارع مقلدين معركة حربية باستخدام المفرقعات، لكن ليس في رأس السنة تلك.

كان تقليدًا أن نقضي رأس السنة في القداس، وهكذا انحشرنا جميعًا في سيارة أبي وذهبنا إلى الكنيسة التي امتلأت بالناس في تلك الليلة، لدرجة أن الناس وقفوا على العتبات؛ الجميع يذهبون إلى الكنيسة في عشية رأس السنة، حتى الملحدون. تلك الليلة تحفل دائمًا بالخرافة، بالمخاوف من الروح الشريرة والخبيثة للأشهر «البِريَّة» التي تحارب بضراوة لكي تمنع الناس من المرور إلى العام الجديد. ثمة اعتقاد سائد أن الميتات التي تسجَّل في تلك الأشهر - سبتم**بر**، أكتو**بر**، نوفم**بر**، ديسم**بر** - تزيد على مثيلاتها طوال شهور السنة مجتمعة، وخوفًا من الروح حاصدة الحيوات التي تنتشر في طول الأرض وعرضها من أجل حصاد الدقيقة الأخيرة، غرقت الكنيسة في نشاز خانق. في منتصف الليل عندما أعلن القس أننا أصبحنا رسميًّا في عام 1997، شقت الهواء صيحات «عام جديد سعيد، هللويا! عام جديد سعيد، هللويا!»، فيما راح الناس يتقافزون ويرمون أنفسهم في أحضان بعضهم البعض، أناس لا يعرفون بعضهم، يتصافحون، ويصفرون، ويقرقرون، ويغنون، ويصرخون. خارج الكنيسة، راحت الألعاب النارية - صواريخ مسالمة من أنوار وامضة وبروق من صنع الإنسان - تشق عنان السماء من قصر عاهل مملكة أكوري، «الأوبا». طالما كانت الحال هكذا، حال العالم التي استمرت على الرغم من كل الخطوب.

في روح عيد الميلاد المجيد، لم يكن مسموحًا للأحزان أن تبقى في عقول الناس، لكنها ستظل هناك، مثل ستارة شُدَّت إلى الزاوية في النهار ليدخل الضوء وينير الغرفة، منتظرة أن يهبط الليل، وتُشد إلى موضعها ثانيةً. هكذا كانت الحال دومًا، سنرجع من الكنيسة إلى البيت، نتناول شوربة الفلفل والكعك الإسفنجي والمرطبات، وكالعام الماضي تمامًا، سيشغِّل أبي فيديو لـ«راس كيمونو» لنرقص على موسيقاه رقصة العام الجديد.

وسننزل الحلبة أنا وديفيد ونكيم مع أخي، الذي، وقد نسي إخفاقاتنا، بل ومهمتنا ذاتها، راح يضرب بقدميه على الإيقاع الرتيب لأغنية «الريغي» التي يصدح بها «راس كيمونو». هتفت أمي وصاحت: «**أوني نو تشي، أوني نو تشي**»، بينما يرقص أوبمبي، أخي الحقيقي، في النور. مثل معظم الناس، في ذلك اليوم، اشتاق أخي كثيرًا إلى راحة مؤقتة، ولربما جعل ذلك أحزانه تغوص إلى الأعماق، وسمح له بدخول ساحة الهناء. وفجرًا، بعد أن استكانت البلدة للنوم، وعادت الطمأنينة إلى الشوارع، وسكنت السماء، وصارت الكنيسة فارغة ومهجورة، ونام السمك في النهر، وراحت الريح تهمهم وهي تمسِّد الليل المخملي، ونام أبي في الأريكة الكبيرة وأمي في غرفتها مع الطفلين، عاد أخي ليخرج من البوابة، وعادت الستارة إلى موضعها، مُنغلقةً وراءه. ثم جاء الفجر، مثل مِكنسة جهنمية، ليكنس فتات المهرجان - السكينة التي صحبته، والراحة، وحتى المحبة الصادقة - مثل نثار مبعثَر على الأرض بعد انتهاء حفلة.

تقول الترنيمة: لما السلام يتدفق مثل النهر/ لما الحزن يضطرب مثل البحر/ أيًّا كان قدري، تعلمت أن أقول/ لعله خير (لعله خير) لروحي. (المترجم).

15
الشرغف

الأمل كان شرغفًا.

ذلك الشيء الذي تصطاده، وترجع به إلى البيت في علبة من الصفيح، لكنه على الرغم من حفظه في مائه الأصلي، سرعان ما يموت. الأمل الذي راود والدي أن نشبَّ ونصير عظماء، ومثَّل خريطة أحلامه، سرعان ما مات على الرغم مما أغدقه عليه من رعاية. وأملي أن يظل إخوتي بجانبي دومًا، وأن ننجب جميعًا أطفالًا، وتصبح لدينا قبيلة كاملة، مع أني كنت أحفظه في مائه الأصلي، مات هو الآخر. وكذا الأمل بأن نهاجر إلى كندا، هذا الذي أوشك على التحقق.

جاء ذلك الأمل مع العام الجديد، جالبًا روحًا جديدة، وسكينة دحضت حزن العام السابق. بدا أن الحزن لن يرجع إلى بيتنا. أعاد أبي طلاء سيارته بلون كُحلي لامع، وصار يتكلم كثيرًا، وبإصرار، عن مجيء السيد بايو وهجرتنا المحتملة إلى كندا. بدأ ينادينا بأسماء التدليل ثانيةً: أمي، **أوماليتشا**، الجميلة. ديفيد، **أوني-إيزي**، الملك. نكيم، **ننيم**، أمه. وكان يسبق اسمي أنا وأوبمبي بكلمة «الصياد». أمي أيضًا استعادت وزنها. على أن هذا التغير لم يؤثر في أخي، صار لا يعجبه شيء، ولا يسرُّه خبر، مهما كان كبيرًا. لم يتأثر بفكرة السفر في طائرة، أو الحياة في مدينة نستطيع أن نركب الدراجات وألواح التزلج في شوارعها مثل أبناء السيد بايو. عندما أعلن أبي للمرَّة الأولى إمكانية سفرنا، كان الخبر بالنسبة لي عظيمًا، مثل النظير الحيواني كبقرة أو فيل، لكن بالنسبة إلى أخي، كان مجرد نملة. وعندما دخلنا أنا وهو إلى غرفتنا لاحقًا، سحق ذلك الوعد بمستقبل أفضل، الذي بحجم النملة، بين إصبعيه، وألقى به من النافذة، وقال: «يجب أن أنتقم لشقيقيَّ».

لكن أبي عقد العزم، فأيقظنا في صباح الخامس من يناير - تمامًا كما فعل قبل عام بالضبط، حين دخل غرفتنا ليخبرنا أنه سينتقل إلى يولا - ليعلن أنه سيسافر إلى لاغوس، وهو ما ملأني بالوهم. لقد سمعت شخصًا يقول إن نهايات الأشياء كثيرًا ما تتشابه - ولو بصورة خافتة - مع بداياتها، وكان ذلك صحيحًا بالنسبة إلينا.

أعلن قائلًا: «سأسافر إلى لاغوس الآن». ارتدى نظارته المعتادة، وعيناه مختبئتان وراءها، كما ارتدى قميصًا قديمًا بكُمين قصيرين على جيبه الأمامي شارة البنك المركزي النيجيري.

«سآخذ صوركما معي لأقدِّم طلب جوازي سفر لكما. وعند عودتي سيكون بايو قد وصل إلى نيجيريا، وسنذهب جميعًا إلى لاغوس لنحصل على تأشيرتي كندا لكما».

حلقنا أنا وأوبمبي رأسينا قبلها بيومين، ثم سرنا وراء أبي إلى «مصوِّرنا»، السيد «ليتل»، كما كنا نسميه، صاحب استوديو Little by Little للتصوير. وقد جعلنا السيد «ليتل» نجلس في مقاعد بوسائد ناعمة أسفل مظلة قماشية كبيرة عُلِّق فوقها مصباح فلورسنت متألق. وخلف المقاعد ثمة قماشة بيضاء تغطي ثُلث الحائط. سلط علينا ضوءًا قويًّا يكاد يعمي الأبصار، ودقَّ بإصبعه، وطلب من أخي أن يجلس في المقعد.

أخرج أبي ورقتين فئة خمسين نايره، ووضعهما على الطاولة، ثم دمدم قائلًا: «خذا حذركما»، ثم استدار، تمامًا كما فعل صبيحة يوم انتقاله إلى يولا، ومضى.

بعد إفطار من رقائق الذرة والبطاطا المحمرة، وبينما كنا نجلب الماء من البئر لملء البراميل، أعلن أخي أن الوقت قد حان «للمحاولات الأخيرة».

قال: «سنذهب للبحث عنه فور خروج ماما والصغيرين».

سألته: «أين؟».

قال من دون أن يستدير لينظر إليَّ: «عند النهر. لكي نقتله مثل سمكة، بصنانير الصيد المزودة بالخطاطيف».

أومأت برأسي.

«لقد تعقبته مرتين إلى النهر. يبدو أنه يذهب إلى هناك كل مساء».

سألتُ: «حقًّا؟».

قال: «نعم»، وأومأ برأسه.

على مدى الأيام القليلة الأولى من العام الجديد لم يتكلم عن المهمة، لكنه كان يمعن التفكير ويظل متكتمًا، وكثيرًا ما يتسلل خارج المنزل، خصوصًا في المساءات. كان يرجع ويُسجِّل أشياء في كراس، ثم يرسم رسومًا لأشياء تشبه عيدان الثقاب. لم أسأله مرَّة واحدة إلى أين يذهب، وهو أيضًا لم يخبرني.

قال أخي: «لقد ظللت أراقبه لبعض الوقت. إنه يذهب إلى هناك كل مساء. يذهب إلى هناك كل يوم تقريبًا، ويستحم هناك، ثم يجلس تحت شجرة المانجو حيث سبق أن رأيناه. إذا قتلناه هناك...»، توقف وكأن فكرة معاكسة قد ومضت في عقله فجأة، «لن يعرف أحد».

همهمتُ، وأنا أومئ برأسي: «متى نذهب؟».

«إنه يذهب إلى هناك عند الغروب».

لاحقًا، بعد أن خرجت أمي مع الصغيرين وتركتنا وحدنا، أشار أخي في اتجاه فراشنا، وقال: «لدينا صنانير الصيد هنا».

شدَّ العصي الطويلة من تحت السرير. كانت عصيًّا طويلة شائكة، رُبطت إلى أطرافها خطاطيف تشبه المناجل. قُصِّرت الخيوط كثيرًا حتى أصبحت الخطاطيف كأنها مثبَّتة مباشرة في العصي القصيرة، وأصبح يصعب ملاحظتها. أدركتُ أن أخي هو مَن حوَّل معدات الصيد هذه إلى أسلحة، وجمَّدني هذا من الخوف.

قال: «أحضرتهما إلى هنا بعد أن تبعته إلى النهر بالأمس. أنا مستعد الآن».

لا بد أنه أعد الأسلحة في الوقت الذي اختفى فيه عن الأنظار ولم يخبرني إلى أين ذهب. وقد ملأني اختفاؤه بالخوف فجأة، وسبحتُ في بحيرة من الخيالات السوداء. بحثتُ عنه بشكل محموم في كل أرجاء البيت متسائلًا أين يكون، حتى قبضَت عليَّ فكرة عنيدة ولم تعد تتركني. وتجاوبًا، هرعتُ إلى البئر، وأنا أتنفس بثقل حتى رفعتُ غطاءها، لكنه سقط من يدي وارتطم مُغلَقًا بعنف كأنه يحتج. أزعج الصوت طائرًا فوق شجرة اليوسفي فقفز إلى أعلى بصيحة عالية. انتظرت انقشاع التراب الذي ارتفع من الإسمنت المتشقق بفعل قوة الانغلاق، ثم فتحتُ البئر ثانية ونظرت فيها، غير أنني لم أرَ إلا الشمس تتلألأ من خلفي على سطح الماء، كاشفة عن رمال ناعمة في قاعها، ودلو بلاستيكي صغير نصف مغمور في القاع بالأسفل. نظرتُ بإمعان، وأنا أظلل عينيَّ، حتى اقتنعتُ أنه ليس هناك، ثم أغلقت البئر، لاهثًا، محبطًا من خيالي القاتم.

منظر الأسلحة جعل المهمة حقيقية وملموسة بالنسبة إليَّ، وكأنني أسمع عنها للمرَّة الأولى. وفيما كان أخي يعيدها إلى مكانها تحت السرير، تذكرتُ كل ما قاله أبي في ذلك الصباح. تذكرتُ المدرسة التي سوف نذهب إليها، مع البِيض، لكي نحصل على أفضل تعليم غربي، كثيرًا ما تكلم عنه أبي كأنه قطعة من الجنة أفلتت من بين يديه هو نفسه، بطريقة ما. فهذا التعليم شيء وفير في كندا مثل أوراق الشجر في غابة. سيطرت عليَّ الرغبة في الذهاب إلى هناك، وفي أن يأتي أخي معي. كان ما يزال يتكلم عن النهر، وكيف علينا أن نقف في مكان غير منظور على الضفة وننتظر المجنون، عندما انفجرتُ بصيحة: «لا يا أوبي!».

أجفل وبهت.

تابعتُ، مستغلًّا مزية صمته، متذوقًا عصارة شجاعتي: «لا يا أوبي، دعنا لا نفعل ذلك. اسمع، سوف نذهب إلى كندا، سوف نعيش هناك. دعنا لا نفعل ذلك. دعنا نذهب. يمكننا أن نكبر وأن نصبح مثل «تشاك نوريس» أو «كوماندو»، ثم نرجع إلى هنا ونطلق عليه النار، وحتى...».

توقفتُ فجأة لأنه كان قد بدأ يهز رأسه، ثم رأيت الغضب في عينيه الدامعتين.

تلعثمتُ: «ماذا؟ ما الأمر؟».
صرخ: «أنت أحمق! أنت لا تعرف ماذا تقول. تريدنا أن نهرب؟ أن نهرب إلى كندا؟ أين إيكينا؟ أسألك، أين بوجا؟».
بدأت صور شوارع كندا الجميلة تتشوش في عقلي وهو يتكلم.
قال: «أنت لا تعرف، لكنني أعرف. وأعرف أيضًا أين هما الآن. يمكنك أن ترحل، لا أحتاج إلى مساعدتك. سأفعل كل شيء بنفسي».
على الفور، راحت صور الأطفال وهم يستقلون الدراجات تخبو من عقلي، وتملكتني فجأة لهفة لإرضائه. قلت: «لا، لا يا أوبي. سأذهب معك».
«لن تذهب!»، صاح، ثم اندفع إلى الخارج.
جلست ساكنًا لبرهة، وقد تملكني خوف شديد من البقاء في الغرفة، وخوف من أن يكون شقيقاي الميتان قد سمعا أنني لا أريد الانتقام لهما، وقد قال أخي إنهما قادران على ذلك، ثم ذهبت إلى الشرفة وجلست هناك.
ظل أخي في الخارج لفترة طويلة، ذهب إلى مكان لن أعرفه أبدًا. بعد أن ظللت في الشرفة لبرهة، ذهبت إلى الساحة الخلفية، حيث عُلِّقت إحدى قطع الربَّا متعددة الألوان على الحبال التي نجفف عليها غسيلنا. باستخدام فرع متدلٍّ، تسلقتُ شجرة اليوسفي وجلست هناك أفكر في كل شيء.
عندما عاد أوبمبي لاحقًا، اتجه مباشرة إلى غرفتنا. نزلت من فوق الشجرة وتبعته إلى الداخل، ثم نزلت على ركبتيَّ وبدأت أتوسل إليه قائلًا إنني أريد مشاركته.
سألني: «ألم تعد تريد الذهاب إلى كندا؟».
أجبته: «ليس من دونك».
للحظة وقف ساكنًا، ثم اتجه إلى الجانب الآخر من الغرفة وهو يقول: «انهض».
نهضت.
«اسمع، أنا أيضًا أريد الذهاب إلى كندا. ولهذا السبب تحديدًا علينا أن نفعل هذا بسرعة ونحزم أغراضنا. ألا تعرف أن أبي ذهب لإحضار الجوازات؟».
أومأت برأسي.
قال وهو يقترب مني: «اسمع، لن نكون سعداء إذا غادرنا نيجيريا من دون أن نفعلها. اسمع، دعني أخبرك. أنا أكبر منك وأعرف أكثر منك بكثير».
وافقت بإيماءة من رأسي.
«لذا، أقول لك، إذا ذهبنا إلى كندا من دون أن نفعل ذلك، سوف نكره الحياة هناك. لن نكون سعداء. هل تريد أن تكون تعيسًا؟».
«لا».
قال: «ولا أنا».
قلت، وقد اقتنعت بما فيه الكفاية: «لنذهب. أريد أن أفعلها».
لكنه تردد: «هل هذه هي الحقيقة؟».
«الحقيقة».
تفحَّص وجهي بعينيه: «الحقيقة؟».
«نعم، الحقيقة»، قلتها وأنا أومئ برأسي مرَّة بعد مرَّة.
«حسنًا، لنفعلها إذن».
كنا في أواخر الأصيل، وقد بدت الظلال مثل لوحات جصِّية داكنة في كل مكان. لقد وضع أخي السلاحين في الخارج

خلف الستائر الخشبية، وغطاهما بربًا قديمة. بتلك الطريقة، لن تراهما أمي. انتظرتُه حتى يذهب إلى وراء نافذتنا ويأتي بالصنارتين. ناولني مصباحًا يدويًا كان قد أحضره أيضًا.

دمدم وهو يعطيني إياه: «في حالة اضطررنا للانتظار حتى حلول الظلام. نحن في أفضل توقيت الآن، بالتأكيد سنجده هناك».

***

خرجنا في المساء مثل الصيادين، كما كنا ذات يوم، حاملين صنارتي صيد، مزودتين بالخطاطيف، مخبأتين داخل قطعتي ربًا قديمتين. أثار منظر الأفق شعورًا قويًا في داخلي بأنني سبق أن رأيت ذلك المنظر من قبل. بدا الأفق محمرًّا، وظهرت الشمس مثل كرة حمراء مُعلَّقة. ونحن نمضي في اتجاه شاحنة أبولو، لاحظت أن عمود الإنارة الخشبي في الشارع قد أسقط، وتحطم مصباحه المُعلَّق إلى شظايا، والكابلات التي تثبت المصابيح داخل رأس اللمبة قد انبسطت حتى قلبه الفلوريسنتي، وأصبح الآن متهدلًا إلى أسفل. تجنبنا الأماكن التي قد يرانا فيها سكان شارعنا، الذين يعرفون قصتنا، والذين سيحدقون فينا متعاطفين أو حتى متشككين ونحن نمر بهم. لقد خططنا لأن نكمن للمجنون في الممر بين أدغال الإيسان التي تقود إلى النهر.

ونحن ننتظر، أخبرني أخي كيف سبق له أن رأى بعض الرجال في «أومي-ألا» في وضع غريب، وكأنهم يتعبدون لمعبود ما، وتمنى ألا نجدهم هناك تلك المرَّة. قطع حديثه عندما سمع صوت أبولو يقترب من النهر، مغنيًا بسعادة. توقف المجنون أمام بيت البنغالو، حيث يجلس رجلان عاريان حتى الوسط متواجهين على مقعد خشبي، يلعبان «اللودو»، على لوحة مربعة تحمل صورة «موديل» بيضاء، وعليهما أن يرميا الزهر على اللوحة، ومن ثَمَّ يتحركان وفق المسار المحدد، وصولًا إلى الخط النهائي. ركع أبولو بجانبهما، وهو يثرثر بحماس ويهز رأسه. دخلنا في وقت الغسق، ذلك الوقت من اليوم الذي يشهد عادةً تحوله إلى أبولو الخارق، وتصبح عيناه عيني روح لا عيني إنسان. بدت صلواته عميقة، أشبه بالتأوهات، لكن الرجلين واصلا اللعب كأنهما غافلان عن صلاته، وكأن أحدهما لم يكن السيد كينغسلي، والآخر رجلًا من اليوروبا ينتهي اسمه بـ«كي». التقطتُ نهاية النبوءة: «... عندما قال طفلك، يا سيد كينغسلي، إنه جاهز للتضحية بابنته من أجل المال. سوف يتلقى رصاصة تقتله أثناء عملية سطو مسلح، ويتناثر دمه من نافذة سيارته. «رب الجنود»، «زارع الخضرة»، يقول إنه سوف...».

كان ما يزال يتحدث عندما قفز الرجل الذي ناداه أبولو بـ«السيد كينغسلي»، واقفًا على قدميه، واندفع إلى داخل البنغالو ثائرًا، وخرج ملوحًا بمنجل، مطلقًا لعنات قاتلة وهو يطارد أبولو إلى درب ينحني على نفسه خارجًا بين دغل الإيسان، ثم توقف. عاد الرجل إلى بيته، مهددًا أنه سيقتل أبولو إن اقترب من بيته ثانيةً.

تسللنا مبتعدين، ومضينا في طريقنا إلى النهر، وراء أبولو. سرت وراء أخي مثل طفل يُجرجَر إلى منصة للجَلد، مرتعبًا من السوط، لكنه عاجز عن الهرب. في البداية سرنا ببطء، أوبمبي يحمل الصنارتين الملفوفتين، وأنا أحمل المصباح اليدوي، حتى لا نثير شكوك الناس، لكن فور دخولنا إلى المنطقة حيث الكنيسة السماوية تحجب الشارع عن الأنظار، تسارعت خطانا. رأينا عنزة صغيرة راقدة على بطنها أمام باب الكنيسة، وإلى جوارها خيط من البول الأصفر. وكانت صفحات من صحيفة قديمة، يبدو أن الريح حملتها إلى هناك، قد التصقت بالباب وهي في منتصف رحلتها، بينما ظلت بقية الصحيفة مفتوحة على الأرض.

قال أخي، وهو يحاول التقاط أنفاسه: «لننتظر هنا».

وصلنا تقريبًا عند نهاية الممر الذي يؤدي إلى الضفة، ورأيت أنه خائف هو الآخر، وأن ضرع الشجاعة الذي رضعنا منه حتى الشبع قد استُنزف، وانكمش حتى صار أشبه بصدر عجوز شمطاء. بصق ومسح بصقته في التراب بحذائه القماشي. رأيت أننا كنا قريبين بما يكفي، إذ كنا نسمع أبولو يغني ويصفق من ناحية النهر.

قلت، وخفقان قلبي يتسارع مجددًا: «إنه هناك، هيا نهاجمه الآن».

همس وهو يهز رأسه: «لا. علينا أن ننتظر قليلًا لنتأكد أن لا أحد قادم، ثم نذهب ونقتله».

«لكن الظلام يشتد».

قال: «لا تقلق». نظر حوله، مشرئبًا برأسه إلى بعيد. «فقط لنتأكد أن الرجلين ليسا هنا ونحن نفعلها».

لاحظت أن صوته متهدج، مثل شخص يبكي. تخيلتُنا نتحول إلى هذين الرجلين الساخطين المرسومين على هيئة أعواد ثقاب كما رسمنا، هذين الرجلين اللذين لا يعرفان الخوف، القادرين على قتل المجنون. لكنني شعرت أنني لست مستعدًّا لأن أكون جسورًا مثل الولدين الخياليين اللذين أهلكا المجنون بالحجارة، والسكاكين، والصنانير المزودة بالخطاطيف. غرقت في تلك الأفكار عندما فك أخي غطاء السلاحين وأعطاني أحدهما. كانت العصوان طويلتين للغاية، وعندما أمسكنا بهما مثل رماح محاربي العصور القديمة، بدتا أطول من قامتينا. انتظرنا، سامعين طرطشة مياه وغناء وتصفيقًا تلقائيًّا، ونظر أخي إليَّ فسمعتُ الكلمة التي لم ينطق بها: «**مستعد؟**»، وفي كل مرَّة أسمعها، كان قلبي يتوقف، ثم يتسارع ثانيةً، وأنا أنتظر بقلق أن يصدر أخي أمره.

سألني، بعد أن ناولني صنارة الصيد ذات الخطاطيف ورمى الربَّا في الأحراش: «بِنْ، هل أنت خائف؟ أخبرني».

«نعم، خائف».

«لماذا تخاف؟ نحن على وشك الانتقام لشقيقَينا، إيكينا وبوجا». مسح جبهته، وترك صنارته تسقط على العشب، ووضع يده على كتفي.

اقترب مني، ثم رفع صنارته حتى سقطت عنها الربَّا، واحتضنني.

همس في أذني: «اسمع، لا تخف. إننا نفعل الصواب والرب يعلم. سوف نتحرر».

ولما كنت خائفًا جدًّا أن أخبره بما أردت قوله حقًّا - يجب أن نرجع إلى البيت، إنني خائف أن يصاب بأذى - أخفيت نواياي وراء التمتمة: «لنفعلها بسرعة».

نظر إليَّ، وأشرق وجهه ببطء مثل مصباح يتوهج. وأدركت، في تلك اللحظة المشهودة، أن الأيدي الرقيقة التي ترفع فتيل المصباح كانت أيدي شقيقيَّ الميتين.

«سوف نفعلها»، صاح أخي في الظلام.

«انتظر»، ثم اندفع إلى الأمام في اتجاه النهر، فتبعته.

لاحقًا، بعد أن وصلنا إلى الضفة، لم أعرف بالضبط لماذا صرخنا بهذا الصوت العالي ونحن نثب على أبولو. ربما لأن قلبي توقف عن الخفقان لحظة قفزتُ قائمًا على قدميَّ وأردت أن أرجَّه ليعود إلى الحياة، أو ربما لأن أخي بدأ ينشج ونحن نتقدَّم مثل جنديين من الزمن القديم، أو ربما لأن روحي تقلَّبت أمام عينيَّ مثل كرة على ملعب موحل. بدا أبولو راقدًا على ظهره، يواجه السماء، يغني بصوت عالٍ، عندما وصلنا إلى الشاطئ. كان النهر ممتدًّا إلى الخلف، ومياهه تتسربل بالظلام. بدت عينا المجنون مغمضتين، حتى إنه لم يلاحظنا فوقه، مع أننا وثبنا إلى الأمام بصرخة مهتاجة تنسكب من عمق روحينا. في تلك اللحظة، قفز الجني الذي تلبَّسنا فجأة إلى مقدمة عقلي، ومزَّق كل حواسي حتى صارت خِرقًا. رحنا نلطمه بخطاطيف صنارتينا، في صدره، وفي وجهه، وفي يده، وفي رأسه، وفي رقبته، وفي كل مكان، ونحن نصرخ ونبكي. كان المجنون مهتاجًا، غاضبًا، ذاهلًا. رفع ذراعيه إلى أعلى ليحمي نفسه، وراح يجري بظهره، وهو يزعق ويصرخ. أخذت الضربات تثقب لحمه، حافرة حفرًا دامية، وممزِّقة قطعًا من لحمه في كل مرَّة كنا نسحب فيها الخطاطيف. كانت عيناي مغمضتين، وكنت أفتحهما في ومضات، فأرى قطعًا من اللحم تنفكُّ عن جسده، والدم يتقاطر من كل مكان. هزَّت صرخاته العاجزة صميم كياني. لكننا، بكل إصرار، مثل طائرين حبيسين، رحنا نرفرف بأذرعنا المحمَّلة بغضبنا عليه بكل وحشية، قافزين من قضيب في القفص إلى آخر، ومن السقف إلى الأرض. بَعبَع المجنون، وصوته يصم الآذان، وجسده في ذُعر مبلبَل. ظللنا نضرب، ونشد، ونخبط، ونصرخ، ونصيح، وننشج، حتى سقط أبولو على ظهره في المياه بطشَّة عنيفة وهو ينتحب مثل طفل، وقد خارت قواه، وغطاه الدم. سمعت ذات مرَّة أن الرجل حين يرغب في شيء لا

يملكه، أيًّا كانت صعوبة هذا الشيء، فلا بد إذا لم تمنعه قدماه من مطاردته أن يناله في نهاية المطاف، وتلك كانت حالتنا.

حين كنا نراقب الجسد وهو يُحمل بعيدًا، وتنبجس منه الدماء في المياه الداكنة، مثل حوت «لوياثان» جريح، سمعنا أصواتًا من خلفنا، تتكلم عاليًا بلغة الهاوسا. استدرنا محمومين، فرأينا صورة ظليَّة لرجلين يركضان في اتجاهنا، ومصابيح يدوية تومض. قبل أن نتمكن من تحريك أقدامنا، كان واحد منهما فوقي، يمسك بنطالي من الخلف. كانت رائحة الكحول ثقيلة وطاغية من حوله. صارعني حتى أسقطني على الأرض، وهو يتكلم بلغة متعجلة متلعثمة لم أستطع فهمها. رأيت أخي يركض بحذاء الأشجار وهو ينادي باسمي بصوت عالٍ، فيما كان الرجل الآخر، السكران بدوره، يجري خلفه متعثرًا. أمسك الرجل بذراعي اليسرى بقبضة قوية، وبدا أنني إذا قاومت أكثر من ذلك ستتمزق ذراعي. وبينما كنت أصارع للتملص من بين يديه، جذبتُ الصنارة وضربت الرجل بالطرف المزود بالخطاطيف بكل ما استطعت استجماعه من شجاعة. صرخ، وراح يضرب الأرض بقدميه في ألم حارق، وسقط مصباحه فأرسل وميضًا خاطفًا على حذائه. عرفت على الفور أنه أحد الجنود الذين رأيناهم عند النهر في ذاك اليوم.

ابتلعتني زوبعة من الخوف. رحت أجري محمومًا بأقصى سرعة، بين البيوت، ودروب الأدغال، حتى وجدتني بالقرب من شاحنة أبولو المتهالكة. توقفتُ، وأسقطتُ يديَّ على ركبتيَّ، وشهقت لأجل الحياة، لأجل الهواء، لأجل السكينة - كل ذلك في آنٍ واحد. وبينما أقف هناك، رأيت الجندي، الذي كان يطارد أخي، يجري الآن عائدًا إلى النهر. جثوتُ رابضًا خلف شاحنة أبولو لأختبئ، ودقات قلبي تتسارع، خائفًا من أن يكون الرجل قد رآني عند مروره. انتظرت، من دون حراك، متخيلًا أن الرجل سيأتي ويجرجرني من خلف الشاحنة، لكن مع مرور الوقت، طمأنتني فكرة أنه لم يكن ليراني، إذ لم تكن هناك مصابيح في الشارع حول الشاحنة، وأقرب مصباح في البعيد كان مكسورًا، منحنيًا عن ثقَّالته، تتجمَّع الذبابات حوله مثل نسور تحتشد حول جيفة. ثم زحفتُ لمسافة عبر البقعة الصغيرة الخضراء بين الشاحنة والجرف خلف دارنا، وركضتُ إلى البيت.

ولأنني كنت أعرف أن أمي بلا شك قد أغلقت المتجر وعادت إلى البيت، سلكتُ طريق الباحة الخلفية، عبر مستنقع الخنازير. كان قمر بعيد يضيء الليل، فبدت الأشجار مخيفة، مثل وحوش ذات رؤوس داكنة، غير محددة الأشكال. مرق وطواط وأنا أقترب من سور دارنا، فتابعته بعينيَّ وهو ينساب في اتجاه بيت إغبافي. تذكرت جدَّه، الشخص الوحيد الذي ربما يكون قد رأى سقوط بوجا في البئر. كان قد تُوفِّي في المستشفى خارج المدينة في سبتمبر وهو في الرابعة والثمانين. كنت أتسلق السور عندما سمعت همسًا. هناك كان أوبمبي، يقف داخل الدار، بجانب البئر، في انتظاري.

همس بصوت عالٍ، وهو ينهض بسرعة من رقبة البئر: «بِنْ!».

ناديته وأنا أتسلق: «أوبي».

سألني، وهو يحاول جاهدًا أن يلتقط أنفاسه: «أين صنارتك؟».

تلعثمت: «أنا.. تركتها هناك».

«لماذا؟!».

«شبكَت في يد الرجل».

«حقًّا؟».

أومأت برأسي قائلًا: «كاد الجندي أن يمسك بي، فضربته بها».

لم يبدُ على أخي أنه فهم، وفيما كان يقودني خارج حديقة الطماطم في باحتنا الخلفية، حكيت له كيف حدث الأمر. بعدها خلعنا قميصينا الملوثين بالدماء، وألقينا بهما من فوق السور مثل طائرتين ورقيتين داخل الدغل وراء الدار. تناول أخي صنارته المزودة بالخطاطيف لكي يخفيها خلف الحديقة، لكن عندما أضاء المصباح اليدوي، رأيت ندفة من لحم أبولو الدامي مخوزقة في الخطاف. وعندما خبط الخطاف في الحائط ليزيلها، قرفصتُ إلى جوار الجدار، ورحت أتقيأ على

التراب.

قال، وسط نقيق جنادب الليل: «لا تقلق. لقد انتهى الأمر».

وتكرر الصوت في أذني: «لقد انتهى الأمر». أومأت برأسي، فتقدم أخي مني، وهو يترك الصنارة تسقط، واحتضنني.

16
الدِّيكة

أنا وأخي كنا ديكين.

تلك الكائنات التي تصيح لتوقظ الناس، معلنةً نهاية الليالي مثل منبهات طبيعية، لكنها، مقابل خدماتها، تُذبح لكي يلتهمها الإنسان. أصبحنا ديكين بعد أن قتلنا أبولو، لكن العملية التي حوَّلتنا إلى ديكين بدأت حقًّا بعد لحظات من مغادرتنا الحديقة ودخولنا إلى البيت لنجد القس كولينز راعي كنيستنا، الذي بدا أنه يظهر في كل مرَّة يقع فيها شيء ما، يختتم زيارة لبيتنا. إنه لا يزال يضع لاصقًا على جرح رأسه. كان جالسًا في أريكة غرفة الجلوس بجوار النافذة، ساقاه منفرجتان وقد اتسعتا لتجلس نكيم بينهما، وهي تلعب وتصخب. حيَّانا بصوته العميق الجهوري عندما رآنا ندخل. أما أمي، فأخذت تتساءل قلقة أين ذهبنا، وكادت تمطرنا بوابل من الأسئلة لولا وجود القس، واكتفت بنظرة متسائلة وهي تتنهد.

«الصيادون»، صاح الراعي كولينز عند رؤيتنا، وهو يرمي يديه في الهواء.

رددت أنا وأوبمبي في صوت واحد: «مرحبًا بك يا سيدي القس».

«**إيهين**، أطفالي. تقدما وسلما عليَّ».

نهض قليلًا ليصافحنا، إذ عادة ما يصافح كل من يقابله - حتى الأطفال الصغار - بتوقير وتواضع غير عاديين. ذات مرَّة قال إيكينا إن وداعته تلك لا تنم عن حماقة، بل عن تواضع، لأنه «وُلد من جديد». كان يكبر أبي ببضع سنوات، لكنه أقصر وجسده أكثر صلابة.

«متى أتيت يا سيدي القس؟»، قالها أوبمبي، وهو يرسم ابتسامة، واقفًا إلى جواره، ومع أننا كنا قد رمينا قميصينا في مكب النفايات وراء سور دارنا، فقد كانت تفوح منه رائحة عشب الإيسان، والعرق، وشيء آخر. وأشرق وجه القس لسماعه السؤال.

رد قائلًا: «أنا هنا منذ فترة». ضيَّق عينيه وهو ينظر في ساعة يده التي انزلقت من ذراعه إلى معصمه. «أظنني هنا منذ السادسة، لا، لنقل منذ السادسة إلا ربعًا».

سألت أمي متحيرة: «أين قميصاكما؟».

باغتنا سؤالها. لم نكن قد جهزنا إجابتنا، ولم نفكر حتى ماذا ستكون، فقد اكتفينا بإلقاء قميصينا لأن دم أبولو لوثهما، ودخلنا البيت بالشورت والحذاء القماشي.

قال أوبمبي بعد تردد: «الحر يا ماما. لقد نُقعنا في عرقنا».

تابعَت، وهي تنهض على قدميها، وعيناها تتفحصاننا بدقة: «وما هذا يا بنجامين؟ إن رأسك مغطى بالطين!».

استدارت إليَّ كل العيون.

«أخبراني، أين كنتما؟».

رد أوبمبي: «كنا نلعب الكرة في ملعب بالقرب من المدرسة الثانوية العامة».

صاح القس كولينز: «يا ربي! لعب الكرة في الشارع!».

بدأ ديفيد ينزع قميصه، فشتت انتباه أمي، التي سألته: «لماذا؟».

قال: «الحَر، الحَر يا ماما. أنا أيضًا أحس بسخونة».

«إيه، تحس بسخونة؟».

أومأ برأسه.

أصدرت أمي أوامرها، بينما كان القس يقهقه: «بِنْ، شغِّل المروحة. واذهبا على الفور إلى الحمَّام لكي تغتسلا».

صاح ديفيد: «لا، لا، دعيني أشغلها أنا»، ثم سارع بحمل مقعد صغير إلى صندوق التشغيل المثبت إلى الحائط، واعتلاه، وأدار المقبض في اتجاه عقارب الساعة. دبت الروح في المروحة، وأخذت تدور بصخب.

أنقذنا ديفيد، فأثناء انشغالهم بالأمر، انسللت أنا وأخي إلى غرفتنا وأوصدناها. ومع أننا ارتدينا الشورتين بالمقلوب لإخفاء بقع الدم، فقد خفت أن تكتشف أمي، التي دائمًا ما تكتشف ما نفعله، كل شيء إذا طالت وقفتنا هناك لحظة واحدة أخرى.

جعلني المصباح الكهربائي أضيِّق عينيَّ للحظة عندما شغله أخي عند دخولنا الغرفة.

قال، وعيناه تلتمعان من الفرحة ثانيةً: «بِنْ. لقد فعلناها. لقد انتقمنا لهما - إيكي وبوجا».

احتضنني بقوة في عناق دافئ ثانيةً، وعندما أرحت رأسي على كتفه، شعرت برغبة مُلحَّة في البكاء.

«هل تعرف معنى هذا؟»، هكذا قال وهو يبتعد عني، لكنه لا يزال يمسكني بيديه.

قال: «**إيسان** - الحساب. لقد قرأت كثيرًا، وأعرف أنه من دون ذلك، لما سامحنا شقيقانا أبدًا، ولما أصبحنا أحرارًا أبدًا».

أشاح بوجهه، وأخذ يحدق في الأرض. تابعت عينيه فرأيت بقعًا على مؤخرة ساقه اليسرى. أغمضت عينيَّ، وأومأت برأسي موافقًا.

مكثنا في الحمَّام بعد ذلك، واغتسل هو من دلو وضعه في ركن حوض الاستحمام، وراح يغترف الماء مرَّة بعد مرَّة بإناء كبير، ويصبه على جسده ليغسل رغوة الصابون. تُركت الصابونة في بُريكة من الماء، فتحللت إلى نصف حجمها الأصلي. وليستخدم الصابونة بتعقُّل، فركها أولًا في شعره لكي ترغي. ثم راح، وهو يصب الماء على رأسه، يفرك نفسه بيديه فيما المياه والرغوة يسيلان على جسده. لف نفسه بفوطة كبيرة نتشاركها، وهو لا يزال يبتسم. عندما أخذت مكاني في حوض الاغتسال، بدأت يداي ترتعشان. توافدت الحشرات المجنحة، من قَطع في الشبكة خلف خِصاص نافذة الحمَّام الصغيرة لتتجمع حول المصباح، وتزحف على جدران الحمَّام، بينما شكَّلت الحشرات التي طرحت أجنحتها مادة لزجة عليه. حاولت أن أركز على الحشرات لأهدئ عقلي، لكنني لم أستطع. اجتاحني شعور برعب عظيم، وبينما كنت أحاول صب الماء على جسدي، سقط الإناء البلاستيكي من يدي وانكسر جزء منه.

صاح أوبمبي وهو يندفع إليَّ: «آه يا بِنْ، بِنْ». ثبَّت كتفيَّ بيديه، وقال: «بِنْ، انظر في عينيَّ».

لم أستطع، فرفع رأسي بيديه، وحركه.

سألني: «هل أنت خائف؟».

أومأت برأسي.

«لماذا يا بِنْ؟ لماذا؟ **آتي غبا إيسان** - لقد حققنا الحساب. لماذا؟ لماذا أيها الصياد بِنْ؟ لماذا أنت خائف؟».

استجمعت قواي وقلت: «أنا خائف من الجنود».

«لماذا؟ ماذا سيفعلون؟».

«أنا خائف أن يأتي الجنود ويقتلونا جميعًا».

قال: «ششش، أخفض صوتك». لم أكن منتبهًا إلى أنني أتكلم بصوت عالٍ. «اسمع يا بِنْ. الجنود لن يأتوا. إنهم لا يعرفوننا، ولن يعرفونا. لا تفكر مجرد تفكير في ذلك. إنهم لا يعرفون أين نحن، ولا مَن نحن، ولم يروك وأنت تأتي إلى هنا. هل رأوك؟».

هززت رأسي.

«لماذا تخاف إذن؟ لا داعي للخوف. اسمع، الأيام تتحلل، مثل الطعام، مثل السمك، مثل الأجساد الميتة. هذه الليلة

سوف تتحلل هي الأخرى، وسوف تَنسى. اسمع، سوف نَنسى. لا شيء». هز رأسه بحماس: «لا شيء سيحدث لنا. لن يمسنا أحد بسوء. أبي سيعود غدًا ويأخذنا إلى السيد بايو وسوف نذهب إلى كندا».

هزني ليحصل على موافقة، وأيقنت في ذلك الوقت أنه يعرف بسهولة كيف يقنعني، وكيف ينجح في قلب إحدى قناعاتي أو معارفي التافهة كما يقلب الشخص فنجانًا. وكانت هناك أوقات أحتاج منه أن يفعل ذلك، حيث أحفر في عقلي كلماته الحكيمة، التي تحرك مشاعري.

سألني، وهو يهزني: «هل تفهم؟».

قلت: «أخبرني، ماذا عن بابا وماما؟ ألن يمسهم الجنود بسوء أيضًا؟».

قال، وهو يلكمني في كفي اليمنى بقبضته اليسرى: «لا، لن يمسهما أحد. سيكونان بخير، سعيدين، وسيأتيان كثيرًا إلى كندا لرؤيتنا».

أومأت برأسي، وظللت صامتًا لبرهة، قبل أن يثب سؤال آخر - مثل نمر - من قفص أفكاري. قلت هامسًا: «وماذا عن... ماذا عنك يا أوبي؟».

سألني: «أنا؟ أنا؟».

مسح وجهه بيده وهو يهز رأسه: «يا بِنْ، قلت لك، قلت لك: أنا.. سأكون.. بخير. وأنت.. ستكون.. بخير. وبابا.. سيكون بخير. وماما.. ستكون بخير. إيه، كلنا.. كل شيء».

أومأت برأسي، وأدركت أن أسئلتي أصابته بإحباط.

تناول إناءً أصغر من داخل برميل أسود كبير وبدأ يغسلني. ذكَّرني البرميل كيف استطاع بوجا إقناعنا - بعد أن نال الخلاص في أحد مؤتمرات «رينهارد بونكي» الإنجيلية - أن نُعمَّد وإلا سنذهب جميعًا إلى الجحيم، ثم احتال علينا واحدًا بعد الآخر لكي نعلن التوبة، وعمَّدنا في البرميل. كنت في السادسة من عمري في ذلك الوقت، وأومبي في الثامنة، ولأننا أصغر كثيرًا، فعلينا أن نقف على صناديق البيبسي لكي نستطيع أن نغطس في الماء. بعدها، أنزل رؤوسنا، واحدًا بعد الآخر، في الماء، حتى بدأنا نسعل. ثم رفع رؤوسنا، ووجهه متهلل، وعانقنا وأعلن أننا صرنا أحرارًا.

***

أثناء ارتداء ملابسنا نادتنا أمي لكي نسرع، لأن القس كولينز يريد أن يصلي لأجلنا قبل مغادرته. لاحقًا، عندما طلب منا القس، أنا وأخي، أن نركع، أصر ديفيد على الانضمام إلينا.

صاحت أمي: «لا! انهض!». لكن قسمات ديفيد التوت، استعدادًا للبكاء. «إذا بكيت، أو حاولت أن تبكي، سأجلدك».

قال القس وهو يضحك: «أوه، لا يا باولينا. لا تخف يا ديف، ستركع بعد أن أنتهي معهما».

وافق ديفيد، ووضع القس يديه على رأسينا، وبدأ يصلي، ولعابه يتناثر على رأسينا من حين إلى آخر. أحسست عبر فروة رأسي، وهو يصلي من أعمق أعماق روحه، أن الرب سوف ينجينا من الشرير. في منتصف صلواته، بدأ يتكلم عن وعد الرب المتعلق بـ«أطفاله»، وكأنه يلقي عظة. عندما انتهى، دعا باسم الرب أن تكون تلك الأشياء «من نصيبنا»، ثم توسل أن تحل رحمة الله على أسرتنا: «أسألك، يا أبانا الذي في السماء، أن تساعد هذين الطفلين على استكمال الطريق بعد أحداث العام المنصرم المأساوية. ساعدهما على النجاح في مسعاهما من أجل السفر خارج البلد، وباركهما. اجعل المسؤولين في السفارة الكندية يمنحونهما تأشيرات الدخول يا رب، فأنت القدير، وعلى كل شيء قدير». وكانت أمي تطلق «آمين» عالية بعد كل دعوة، يتبعها نكيم وديفيد، وأنا وأخي بصوت مخنوق. ثم انضمت إلى القس، الذي انطلق فجأة في الغناء، وهو يخلل الأغنية بالهسهسات والطقطقات:

هو القدير، كامل القدرة، على الهداية، والخلاص

هو القدير، كامل القدرة، على هداية مَن عليه يتوكلون

بعد الدورة الثالثة من اللحن نفسه، عاد القس إلى صلواته، ولكن في تلك المرَّة بحماسة أشد. غاص في قضية الأوراق اللازمة للتأشيرات، والمصروفات اللازمة، ثم صلى لأبي، وبعدها صلى لأمي: «أنت تعرف يا رب، كم عانت هذه المرأة، عانت كثيرًا، كثيرًا جدًّا، من أجل الأطفال. أنت تعرف كل شيء، يا رب».

رفع صوته عاليًا، بينما كان صوت نشيج أمي المخنوق يتخلل صلواته. «امسح دموعها يا رب»، ثم واصل بلغة الإغبو: «امسح دموعها يا يسوع. اشف عقلها شفاءً ما بعده سقم. لا تجعل شيئًا يُبكيها على أطفالها ثانيةً أبدًا». بعد الدعاء، شكر الرب، مرَّات كثيرة، لأنه استجاب لصلواته، ثم طلب منا أن نقول «آمين هادرة»، وأنهى صلاته.

شكرناه جميعًا، وصافحناه مرَّة أخرى، ومضت أمي معه ومع نكيم لكي توصله إلى البوابة.

***

شعرت بالانشراح بعد الصلوات، وارتفع العبء الذي عدت به إلى البيت قليلًا عن كاهلي. ربما ذلك من أثر تطمينات أوبمبي، أو الصلوات، لا أعرف. عرفت، مع ذلك، أن شيئًا قد رفع روحي من الهاوية. أخبرنا ديفيد أن «نصيبنا من الفاصوليا» في المطبخ. وهكذا، رحت أنا وأخي نأكل عندما عادت أمي بعد ذهاب القس، وهي تغني وترقص.

أخذت تنشد، وهي ترفع يديها: «لقد دحر الرب أعدائي أخيرًا. **تشنيكي نائيمي نما، إمي لا إيكي لي ديري جي...**».

«ماما، ماذا حدث؟ ما الأمر؟»، قالها أخي، لكنها تجاهلته وتابعت جولة أخرى من الإنشاد، بينما رحنا ننتظر بفارغ الصبر معرفة ما حدث. غنت أنشودة أخرى، وعيناها على السقف، قبل أن تستدير إلينا، بعينين مليئتين بالدموع، وتقول: «**أبولو أونيي أوجو آ وونغو** - أبولو الشرير مات».

سقطت ملعقتي على الأرض، وكأن شخصًا قد دفعها من يدي، ناثرة فاصوليا مهروسة في الأرجاء. لكن لم يبدُ على أمي أنها لاحظت. أخبرتنا بما سمعته: أن «بعض الصبية» قتلوا أبولو المجنون. لقد التقت بالجارة التي عثرت على جثة بوجا في البئر في طريق عودتها بعد أن أوصلت القس. بدت المرأة جذلة، وهي في طريقها إلى بيتنا لتكون أول من يعلن لها الخبر.

قالت أمي، وهي تُحكم الربَّا حول وسطها بعد أن انزلقت قليلًا عندما شدتها نكيم من ساقيها: «قالوا إنه قُتل بالقرب من «أومي-ألا». هل ترون؟ لقد كان ربي هو من حافظ عليكم عندما كنتم تذهبون كل مساء للصيد. ومع أنه تسبب لنا في مصيبة كبيرة، فعلى الأقل لم يُصب أيٌّ منكما هناك. ذلك النهر مكان للشر والرعب. تخيلا جسد هذا الرجل الشرير ممددًا هناك؟»، قالتها وهي تشير إلى الباب.

«هل ترى؟ «التشي» الخاصة بي حية، وثأرت لي أخيرًا. لقد جلَد أبولو أطفالي بلسانه، والآن سوف يتعفن لسانه في فمه».

واصلت أمي احتفالها، بينما حاولتُ أنا وأوبمبي أن نفهم ماذا جلبنا على أنفسنا. لكننا لم نستطع، إذ لو حاول أحد أن ينظر في المستقبل لن يرى شيئًا؛ فالأمر مثل التلصص من فتحة أذن. كان من الصعب عليَّ أن أصدق أن خبر فعلةٍ ارتُكبت في جنح الظلام قد انتشر على هذا النطاق؛ لم أتوقع أنا وأوبمبي أن يحدث ذلك. أردنا أن نقتل المجنون، وأن نتركه يحتضر على ضفة النهر بحيث لا تُكتشف جثته إلا بعد أن تبدأ في التحلل - تمامًا مثل بوجا.

عدنا أنا وأخي إلى غرفتنا بعد العشاء لننام في صمت، ورأسي مملوء بصور الدقيقة الأخيرة من حياة أبولو. أخذت أفكر في القوة الغريبة التي تملكتني في تلك اللحظة، إذ تحركَت يداي بدقة وقوة فغاصت كل ضربة بعمق في لحم أبولو. أفكر في جثته على النهر، في السمك الذي يتزاحم عليها، عندما وجدت أخي، الذي عجز عن النوم مثلي، وغفل عن كوني مستيقظًا أنا الآخر، ينهض فجأة من الفراش وينفجر في البكاء.

راح ينشج: «لم أعرف... لقد فعلتها لأجلكما، نحن، أنا وبِنْ، فعلناها لأجلكما أنتما الاثنين. أنا آسف على ذلك يا ماما

وبابا. أنا آسف، لقد فعلنا ذلك حتى نوقف معاناتكما، لكن...»، تلاشت الكلمة، غارقة في عاصفة من النشيج المرتعش.

راقبته سرًّا، وعقلي معذب بخوف من مستقبل ظننته أقرب مما تخيلنا - مستقبل في اليوم التالي. صليت عندها، بصمتٍ، هامسًا بخفوت قدر استطاعتي، ألا يطلع الصبح، وإلَّا تنكسر عظام ساقيه.

***

لم أعرف متى نمت، لكنني استيقظت على صوت بعيد يدعو للصلاة. بلغنا عُنق النهار، وقد تسربت أشعة شمس مبكرة إلى داخل الغرفة عبر النافذة التي تركها أخي مفتوحة. لم أعرف إن كان قد نام أم لا، وجدته جالسًا إلى طاولة الدرس الخاصة به، يقرأ كتابًا صفحاته مصفرَّة ومطوية الزوايا. عرفت أنه الكتاب الخاص بالرجل الألماني الذي سار على قدميه من سيبيريا إلى ألمانيا، لكنني لم أتذكر عنوانه. كان عاريًا حتى وسطه، عظام ترقوتيه بارزة. لقد فقد وزنًا ملحوظًا على مدى أسابيع التدارس والتخطيط لمهمتنا التي تحققت أخيرًا.

«أوبي»، ناديته، فجفل. نهض بسرعة على قدميه وجاء إلى سريري.

سألني: «هل أنت خائف؟».

«لا»، قلتها أولًا، ثم تابعت: «لكنني لا زلت أخاف أن يعثر علينا هؤلاء الجنود».

قال، وهو يهز رأسه: «لا، لا، لن يعثروا علينا. علينا أن نبقى في البيت حتى يأتي والدنا، ويأخذنا السيد بايو إلى كندا. لا تقلق، سوف نترك هذا البلد وكل شيء وراءنا».

«متى سيأتيان؟».

قال: «اليوم. أبي قادم اليوم، وربما نغادر إلى كندا الأسبوع المقبل. احتمال».

أومأت برأسي.

قال ثانيةً: «اسمع، لا أريدك أن تخاف».

حدق أخي ساهمًا، ضائعًا في أفكاره، ثم استجمع نفسه وقد ظن أن ذلك أقلقني، وقال: «هل أحكي لك قصة؟».

قلت: «نعم». شرد للحظة من جديد، وبدا أن شفتيه تتحركان لكنهما لم تنطقا كلمة. ومجددًا استجمع نفسه، وبدأ يحكي قصة «كليمنس فوريل» الذي هرب من سجن روسي في سيبيريا وقطع الطريق إلى ألمانيا. وبينما كان يحكي القصة بدأنا نسمع أصواتًا عالية في الجوار. عرفنا أنها آتية من حشد مجتمع في مكان ما. توقف أخي عن سرد القصة وركز عينيه عليَّ. خرجنا معًا إلى غرفة الجلوس، حيث تُغير أمي لنكيم ملابسها، وتستعد للذهاب إلى متجرها. لقد طلع الصبح منذ وقت طويل، وبلغنا التاسعة تقريبًا، والغرفة تعبق برائحة الطعام المقلي، وثمة بقايا بيض مقلي بين أسنان شوكة طعام، وقطعة من اليام المقلي على الطاولة بالقرب من الطبق.

جلسنا معها على الأرائك، وسألها أوبمبي عن الضجة بالخارج.

قالت، وهي تُغير حفَّاضة نكيم: «أبولو»، وتابعت بالإنجليزية: «إنهم ينقلون جثته في شاحنة، ويقولون إن الجنود يبحثون عن الأولاد الذين قتلوه. لا أفهم هؤلاء الناس حقًّا. لماذا لا يُسمح لأحد بأن يقتل هذا الشخص الذي لا ضرورة له؟ لماذا لا يُسمح للأولاد بقتله؟ ماذا لو زرع خوفًا رهيبًا داخل عقولهم بأن شيئًا شريرًا سوف يصيبهم؟ مَن يلومهم؟ على أية حال، قالوا إن الأولاد قاوموا الجنود أيضًا».

قلت: «هل يريد الجنود قتلهم؟».

رفعَت أمي رأسها إليَّ، فلَاح في عينيها أنها تفاجأت عند سماع سؤالي: «لا، لا أعرف إن كانوا سيقتلونهم». هزت كتفيها: «على أية حال، عليكما البقاء في البيت. لا خروج حتى يهدأ هذا الموضوع. تعرفان أن لكما صلة بهذا المجنون من ناحية ما، لذا لا أريدكما أن تشاهدا أيًّا من هذا. لن تتورطا مع هذا المخلوق مرَّة أخرى، أبدًا، لا في الحياة ولا في الممات».

قال أخي: «أمرك يا ماما»، وتبعتهُ بصوت متهدج. ثم أمرَت أمي، وديفيد يكرر كل كلمة من أوامرها، أن نأتي ونوصد

البوابة والباب الرئيسي بعد خروجها إلى العمل. نهضتُ لأوصد البوابة.

قالت: «عليك أن تفتح الباب لإيمي عندما يعود. سوف يأتي بعد الظهر».

أومأت برأسي، وهرعتُ لأوصد البوابة من خلفها، خائفًا أن يراني أحد في الخارج.

اندفع أخي إليَّ عندما عدت إلى البيت، ودفعني إلى باب العواصف، فأرسل قلبي خارج جسدي.

«لماذا قلت ذلك في حضور ماما؟ إيه؟ هل أنت غبي؟ هل تريدها أن تسقط مريضة ثانيةً؟ هل تريد أن تدمرنا من جديد؟».

صرخت مجيبًا على كل سؤال وأنا أهز رأسي: «لا!».

قال وهو يلهث: «اسمع. يجب ألا يعرفا. هل تسمع؟».

أومأت برأسي، وعيناي على الأرض تدمعان، ثم بدا لي أنه رق لحالي. هدأ ووضع يده على كتفي كما يفعل دائمًا، ثم قال: «اسمع يا بِنْ، لم أقصد أن أؤذيك. أنا آسف».

أومأت برأسي.

«لا تقلق، إذا جاؤوا إلى هنا لن نفتح لهم الباب. سيظنون أن البيت خالٍ ويذهبون. سنكون في أمان».

أسدل كل ستائر البيت، وأوصد الأبواب، ثم ذهب إلى غرفة إيكينا وبوجا التي صارت شاغرة. تبعته، وجلسنا على الفراش الجديد الذي اشتراه أبي، وهو الشيء الوحيد في الغرفة. ومع أن الغرفة خاوية، فقد وضحت آثار شقيقيَّ في كل مكان، مثل بقع لا تزول. أستطيع أن أرى الجزء الأكثر لمعانًا من الحائط، حيث انتُزعت روزنامة «M.K.O»، ورسوم الجرافيتي المتنوعة، والرجال الشبيهين بأعواد الثقاب. ثم حدقتُ في السقف المليء بشباك العنكبوت، التي تنبئ عن الوقت الذي مرَّ منذ وفاتهما.

رحت أراقب هيكل بُرص يتسلق الستارة الشفافة الرقيقة التي تسطع الشمس عليها، بينما أخي يجلس ساكنًا مثل الموتى، عندما سمعنا طرقًا عاليًا على بوابة بيتنا. جذبني أخي بشكل محموم معه تحت السرير، وتدحرجنا إلى داخل الجحر المظلم، بينما راحت الطرقات تتواصل، تصحبها صيحات: «افتحوا البوابة! هل هناك أحد في الداخل؟ افتحوا البوابة!». سحب أوبمبي ملاءة السرير حتى تهدلت إلى أسفل، فغطتنا. ارتطمت يدي بصفيحة مفتوحة خاوية قريبة مني، مليئة بغشاء مخاطي من شبكة عنكبوت يمكن من خلاله رؤية دواخل الصفيحة التي تبدو سوداء كالقار. لا بد أنها واحدة من الصفائح التي جمعناها لحفظ الأسماك والشراغف، أفلتت من عيني أبي عندما أخلى الغرفة.

توقف الطَّرق على الباب بُعيد نزولنا تحت السرير، لكننا ظللنا في أماكننا، في الظلام، كاتمين أنفاسنا، ورأسي ينبض بعنف.

قلت لأخي بعد برهة: «لقد رحلوا».

قال: «نعم. لكن يجب أن نبقى هنا حتى نتأكد أنهم لن يعودوا. ماذا إذا تسلقوا السور ودخلوا، أو إذا...». لم يكمل، وراح يحدق ساهمًا وكأنه يسمع شيئًا مريبًا، ثم قال: «لننتظر هنا».

بقينا هناك، وأنا أكبت رغبة مُلحة في التبول. تجنبت أن أعطيه أي سبب لكي يخاف أو يحزن.

***

جاء الطَّرق التالي على البوابة بعد نحو ساعة من الأول. بدا هادئًا، وتبعه صوت أبي المألوف وهو ينادي باسمينا، ويسأل إن كنا في البيت. خرجنا من تحت السرير، وبدأنا ننفض التراب عن ملابسنا وجسدينا.

قال أخي، وهو يركض في اتجاه الحمَّام ليغسل عينيه: «أسرع، أسرع، افتح له».

أشرق وجه أبي بالابتسام عندما فتحتُ البوابة، وهو يرتدي كابًا ونظارة.

سألني: «هل كنتما نائمَين؟».

قلت: «نعم يا بابا».

راح يثرثر أثناء دخوله: «يا ربي! الآن صار أبنائي رجالًا كسالى. حسنًا، كل هذا سيتغير».
ثم سأل: «لماذا توصدان الباب وأنتما في الداخل؟».
قلت: «كانت هناك عملية سطو اليوم».
«ماذا؟ في وضح النهار؟».
«نعم يا بابا».
دخل غرفة الجلوس، ووضع حقيبته على كرسي بجواره، وراح يتكلم مع أخي، الذي وقف وراء الكراسي، بينما أبي يخلع حذاءه. ثم سمعت شقيقي يقول: «كيف كانت رحلتك؟».
قال أبي، وهو يبتسم، كما لم أره منذ وقت طويل: «رائعة، عظيمة. قال بِنْ إن عملية سطو وقعت هنا اليوم!».
رماني أخي بنظرة قبل أن يومئ برأسه.
قال أبي: «واو. حسنًا، على أية حال، لديَّ أخبار جيدة لكما يا أولاد، لكن أولًا، هل لديكما فكرة إن كانت أمكما تركت طعامًا في البيت أم لا؟».
«لقد قَلَت يامًا في الصباح، أعتقد أن هناك بعضًا منه».
قال أخي، وهو يكمل ما بدأتُ قوله: «لقد تركَت بعضه لك في طبق الصيني الخاص بك».
كان صوتي يرتعش وأنا أتكلم؛ لأن صفارة إنذار تنوح في مكان ما في الشارع، غمرتني بخوف جديد من الجنود. لاحظ أبي، فنقَّل نظراته بين وجهينا باحثًا عما لا يعرفه. «هل أنتما بخير؟».
قال أخي: «تذكرنا إيكي وبوجا»، ثم انفجر في البكاء.
حدق أبي بنظرة خاوية في الحائط لبرهة، ثم رفع رأسه وهو يقول: «اسمعا، أريدكما أن تضعا كل ذلك وراءكما من الآن فصاعدًا. هذا هو ما يجعلني أفعل كل ذلك - أقترض، وأجري هنا وهناك، وأفعل كل شيء - لأضعكما في بيئة جديدة حيث لن تريا أي شيء يمكن أن يذكركما بهما. انظرا إلى أمكما، انظرا إلى ما حدث لها». أشار إلى الحائط المصمت كما لو أن أمي هناك. «تلك المرأة عانت كثيرًا. لماذا؟ بسبب الحب الذي تحبه لأطفالها. أقصد، حبها لكم، كلكم». هز أبي رأسه بسرعة.
«الآن، أقول لكما، من الآن فصاعدًا، قبل أن تفعلا أي شيء، أي شيء على الإطلاق، فكرا فيها، في ما قد يسببه ذلك لها. عندها، وعندها فقط، اتخذا قراركما. أنا لا أطلب منكما أن تفكرا فيَّ، فكرا فيها هي. هل تسمعاني؟».
أومأنا برأسينا.
«حسنًا، فليجلب لي أحدكما الطعام الآن، سآكله ولو باردًا».
ذهبتُ إلى المطبخ والكلمات التي قالها تطن في رأسي. حملتُ طبق الطعام - يام مقلي وبيض مقلي - إليه، مع شوكة. كانت الابتسامة الكبيرة قد عادت إلى وجهه، وفيما هو يأكل، راح يخبرنا كيف حصل لنا على جوازي سفر من مكتب الهجرة في لاغوس. لم يجُل بخاطره، ولو من بعيد، أن سفينته قد غرقت، وأن كل مدخرات عمره - خريطة أحلامه (إيكينا: طيار. بوجا: محامٍ. أوبمبي: طبيب. أنا: أستاذ جامعي) - قد ذهبت إلى غير رجعة.
أخرج كعكات ملفوفة في ورق لامع، وألقى اثنتين لكلٍّ منا.
قال، وهو لا يزال يفتش في حقيبته: «وتعرفان ماذا أيضًا؟ بايو في نيجيريا الآن. اتصلت بأتينوكي أمس، وتكلمت معه. سيكون هنا الأسبوع المقبل ليأخذكما إلى لاغوس من أجل التأشيرات».
الأسبوع المقبل.
هاتان الكلمتان أعادتا كندا - كإمكانية - لتصبح قريبة جدًّا مرَّة أخرى، لدرجة حطمتني. بدا الموعد الذي قاله أبي - «الأسبوع المقبل» - بعيدًا جدًّا. تمنيتُ لو نستطيع الوصول إليه. فكرت أننا نستطيع أن نجهز أغراضنا ونذهب إلى

إيبادان لنظل بعيدًا في بيت السيد بايو، وعندما تصبح التأشيرات جاهزة، نسافر من هناك. لن يطاردنا أحد إلى إيبادان. تلهفت أن أقترح هذا على أبي، لكنني خفت من ردة فعل أوبمبي. لكن لاحقًا، بعد أن فرغ أبي من طعامه وراح في النوم، طرحت الفكرة على أخي.

«هذا يعني أن نسلم أنفسنا»، هكذا رد من دون أن يرفع يده عن الكتاب الذي يقرأه.

جاهدت لأعثر على إجابة، لكنني لم أستطع.

هز رأسه. «اسمع يا بِنْ، لا تحاول ذلك، إياك! لا تقلق، عندي خطة».

عندما عادت أمي في ذلك المساء، وأخبرَت أبي عن عملية البحث، وعما سمعته في الشوارع من أن بعض الأولاد قتلوا المجنون بصنانير صيد، تساءل أبي لماذا لم نذكر له ذلك.

قلت: «ظننت أن السطو أكثر أهمية».

سألني، وعيناه صارمتان وراء نظارته: «ألم يأتوا إلى هنا؟».

أجاب أخي: «لا. لقد ظللت مستيقظًا معظم الوقت بينما كان بِنْ نائمًا، ولم أسمع أي شيء إلا عندما جئت أنت».

أومأ أبي برأسه.

قال: «ربما حاول أن يُلقي نبوءة على الأطفال فصارعوه، خوفًا من أن تتحقق. عارٌ أن تسكن روح كهذه ذلك الرجل».

واتفقَت معه أمي: «ربما كان الأمر كذلك».

قضى والدانا معظم الليلة يتحدثان عن كندا. حكى أبي لأمي عن مأموريته بنفس الدرجة من الفرحة، بينما بدأ رأسي يؤلمني بشدة، وعند ذهابي إلى الفراش، قبل الجميع، شعرت بتوعك شديد حتى إنني خفت أن أموت. أصبحت لهفتي على الرحيل إلى كندا، بمرور الوقت، قوية جدًّا، إلى حدٍّ أنني أردت بكل جوارحي أن أسافر، حتى لو من دون أوبمبي. واستمر ذلك الإحساس طوال الليل، بعد أن نعس أبي على الأريكة، وحلقه يطن بشخير عالٍ. ثم لاذت الهدأة والسكينة بالفرار، واكتسحني خوف قوي كأنه نزلة برد، اقشعر له بدني. خفت أن يحدث شيء، لا أستطيع رؤيته بعد، لكنني أشم رائحته، أعرف أنه مقبل، قبل **الأسبوع المقبل**. قفزت من فراشي، وربتُّ على أخي الذي غطى نفسه بربًّا، وعرفت أنه لم يكن نائمًا.

«أوبي، علينا أن نخبرهما بما فعلنا حتى يأخذنا أبي إلى إيبادان لمقابلة السيد بايو، وحتى نستطيع أن نسافر إلى كندا الأسبوع المقبل».

خرجت كلماتي مندفعة كأنني أحفظها عن ظهر قلب. خرج أخي من تحت الربًّا واعتدل في جلسته.

«الأسبوع المقبل»، تمتمت له بهاتين الكلمتين، بأنفاس متهدجة.

لكن أخي لم يرد. نظر إليَّ كأنه لا يراني، ثم عاد إلى أسفل الربًّا واختفى.

***

أيقنت أننا في جوف الليل، وكنت لاهثًا ومغطى بالعرق، ورأسي لا يزال يؤلمني، عندما بدأت أسمع: «استيقظ يا بِنْ، استيقظ يا بِنْ»، ويد تهزني.

قلت لاهثًا: «أوبي».

لم يكن مرئيًّا لأول وهلة بعد أن فتحت عينيَّ، ثم رأيته يرمي ملابس من خزانته ويجهز أشياء في حقيبة، وهو يندفع ذهابًا وإيابًا.

قال، وهو يلوح بيديه: «تعال، انهض، يجب أن نغادر الليلة».

«ماذا؟ نغادر البيت؟».

توقف عن تجهيز الحقيبة، وهمس لي: «نعم، الآن فورًا. اسمع، لقد أدركتُ الاحتمالات. يستطيع الجنود العثور علينا. عندما هربت من الجندي رأيت كاهن تلك الكنيسة، ذلك القس، وقد تعرف عليَّ. لقد كدت أسقطه أرضًا».

رأى أخي الرعب الذي ملأ عينيَّ لسماعي هذا الاعتراف. وتساءلتُ: لماذا لم يخبرني بذلك من قبل؟

«أخشى أن يُبلغ عنا. لذا، دعنا نغادر الآن. ما زال بإمكانهم أن يأتوا الليلة، وهم أيضًا قد يتعرفون علينا. لقد ظللت مستيقظًا أسمع أصواتًا في الخارج طوال الليل. إذا لم يأتوا الآن لا بد أنهم سيأتون في الصباح أو في أي وقت. سنذهب إلى السجن إذا عثروا علينا».

«ماذا نفعل إذن؟».

«يجب أن نغادر، أن نغادر. هذه هي الطريقة الوحيدة. هذه هي الطريقة الوحيدة لنحمي أنفسنا ووالدينا».

«وإلى أين نذهب؟».

قال، وقد شرع في البكاء: «إلى أي مكان. اسمع، ألا تعرف أنهم سيعثرون علينا قبل الصباح؟».

أردت أن أقول شيئًا، لكن لم تخرج مني كلمات. استدار وبدأ يفتح سحَّاب حقيبة.

عندما رفع رأسه ثانيةً ورآني لا زلت واقفًا في مكاني قال: «ألن تتحرك من مكانك الآن؟».

قلت: «لا. إلى أين نذهب؟».

تهدَّج صوته: «سيبحثون هنا في الصباح، فور أن تصفو السماء، وسيجدوننا». توقف قليلًا، وجلس على حافة السرير لأقل من ثانية، ثم وقف ثانيةً: «سيجدوننا»، وهز رأسه بشكل خطير.

«لكنني خائف يا أوبي. ما كان علينا أن نقتله».

«لا تقل هذا. لقد قتل شقيقَينا. إنه يستحق الموت».

قلت يائسًا، والنشيج يخنق كلماتي: «أبي سيُحضر لنا محاميًا، لا يجب أن نغادر يا أوبي. لا تجعلنا نذهب».

«اسمع، لا تكن غبيًّا. الجنود سيقتلوننا! لقد جرحنا رجُلهم، سيطلقون علينا النار، مثل «جديون أوركار»(10)، ألا تعرف؟». توقف حتى يصلني سؤاله. «تخيل ماذا سيحدث لماما. هذا نظام عسكري، جنود أباتشا. لنذهب إلى مكان ما، ربما إلى قريتنا لفترة ثم نكتب لهما من هناك. ساعتها يمكنهما أن يرتبا للقائنا، أن يأخذانا إلى إيبادان، ومن هناك إلى كندا».

غمرت كلماته الأخيرة مخاوفي لبرهة.

أعلنتُ: «حسنًا».

«جهِّز حقيبتك إذن، بسرعة، بسرعة».

انتظَرني حتى أضع أغراضي في الحقيبة.

«بسرعة، بسرعة. أسمع صوت أمي، إنها تصلي، ربما تأتي إلى هنا لرؤيتنا».

اشرأب بأذنه على الباب متنصتًا على صوت أيٍّ منهم، بينما رحت أنا أدس كل ملابسي في حقيبة ظهر، وأضع أحذيتنا في أخرى. وقبل أن أعرف ماذا يحدث، قفز من الشباك بحقيبته والأحذية وأصبح صورة ظليَّة لا أكاد أرى لها ذراعين.

همس من تحت النافذة: «ارمِ حقيبتك».

رميت الحقيبة، وقفزت خلفه، وسقطتُ على الأرض. رفعني أخي، وشرعنا نسير في الطريق الذي يقود إلى كنيستنا، مرورًا بالبيوت الغارقة في النوم. الليل مضاء بخفوت بمصابيح شرفات البيوت وبضعة أعمدة إنارة. أخي ينتظرني، ثم يجري وينتظر، ويهمس «هيا» أو «اركض» في كل مرَّة يتوقف فيها. وبينما كنا نركض، ازداد خوفي. أثقلت رؤى غريبة حركتي، بينما راحت الذكريات تنهض من مقابرها؛ بين حين وآخر كنت ألقي نظرة إلى الخلف في اتجاه بيتنا، حتى لم أعد أراه. خلفنا، يتخلل سنا القمر سماء الليل، ويرمي بصبغة رمادية على الطريق وعلى البلدة الغارقة في النوم. ومن مكان ما تعالت أصوات غناء، تصحبها طبول وأجراس، فوق الضجيج البعيد، ووصلت إلى أسماعنا.

قطعنا مسافة لا بأس بها، ومع أنه من الصعب تبين الطريق في الظلام، وقد أوشكنا على الوصول إلى وسط الحي، فقد

اخترقتني بحدة كلمات أبي: «من الآن فصاعدًا، قبل أن تفعلا أي شيء، فكرا فيها، في ما قد يسببه ذلك لها. وعندها، اتخذا قراركما»، غارسةً قضيبًا طائشًا في طريقي. فقدتُ توازني مثل عربة قطار خرجت عن القضبان، وراح قلبي يصفِّر، ووجدت نفسي على الأرض.

سألني أخي، وهو يستدير: «ماذا حدث؟».

قلت: «أريد أن أرجع».

«ماذا؟ بنجامين، هل أنت مجنون؟».

«أريد أن أرجع».

عندما اقترب مني، خفت أن يحاول جرِّي، فصحتُ: «لا، لا، لا تأتِ، لا تأتِ. فقط اتركني أرجع».

تقدَّم إلى الأمام ثانيةً، لكنني وقفت على قدميَّ مترنحًا. كانت رُكبتاي مجروحتين، وكنت أعرف أنهما تدميان.

صاح: «انتظر! انتظر!».

توقفتُ.

قال، وهو يرفع يديه مستسلمًا: «لن أمسك».

خلع حقيبة ظهره، ووضعها على الأرض، واتجه ناحيتي. مد ذراعيه ليعانقني، لكن فور أن أصبحَت يداه حول رقبتي، حاول أن يسحبني إلى الأمام، لكنني وضعت ساقي بين ساقيه مثلما كان بوجا يفعل بمهارة، وأسقطته بحركة مقصٍّ. سقطنا متمددين معًا. وبينما كنا نتصارع، ظل يُلح عليَّ أن نرحل معًا، وأنا أتوسل إليه أن يتركني أرجع إلى والدينا - أقول إنني لا أريدهما أن يقلقا علينا. خلَّصتُ نفسي في النهاية، وابتعدت وقميصي نصف ممزق.

«بِنْ!»، صاح بعد أن ركضتُ مبتعدًا عنه.

بدأت أنشج بلا كابح، أنا الآخر. حدق فيَّ، وفمه مفتوح. أدرك أخي أنني عازم على العودة، فقد كان يعرف بعض الأمور.

قال بصوت مرتجف: «إن لم تأتِ معي، فأخبرهما إذن. أخبر بابا وماما أنني... هربت».

كان يتكلم بصعوبة، وقلبه ينفطر من الحزن.

«قل لهما إننا - أنت وأنا - فعلنا ذلك من أجلهما».

في لمح البصر، عدتُ إليه، وتشبثتُ بجسده، فاحتضنني ووضع يده خلف رأسي، على الجانب المستطيل من فروة رأسي. ظل أوبمبي لوقت طويل ينشج على كتفي، ثم تحرَّر مني، وتحرك إلى الخلف من دون أن يدير وجهه عني. أسرع حتى ابتعد قليلًا، ثم توقف، وصاح: «سأكتب لك».

ابتلعه الظلام، واندفعتُ إلى الأمام، وصحت: «لا، لا تذهب يا أوبي، لا تذهب، لا تتركني»، لكنه لم يعد هناك؛ لا أثر له في الظلام.

ناديت بصوت عالٍ، وأنا أندفع محمومًا إلى الأمام: «أوبي!»، لكنه لم يتوقف، لم يبدُ أنه سمعني. تعثرت، وسقطت، ثم جاهدت لكي أقف. «أوبي»، ناديته بصوت أعلى، بيأس أعلى في ظلمة الليل وأنا أدخل الطريق. عن يساري، وعن يميني، ومن أمامي، ومن خلفي، لم يكن له أثر. لا صوت، لا أحد في الجوار. لقد رحل!

ارتميت على الأرض، ورُحت أبكي من جديد.

جديون أوركار: ضابط نيجيري قام بمحاولة انقلابية فاشلة ضد نظام الرئيس إبراهيم بابانغيدا سنة 1990. (المترجم).

17
الفراشة

أنا، بنجامين، كنت فراشة.

هذا الكائن الهش ذو الجناحين، الذي يستدفئ بالنور، لكنه سرعان ما يفقد أجنحته ويسقط على الأرض. عندما مات شقيقاي، إيكينا وبوجا، شعرت كأن المظلة القماشية التي كثيرًا ما آوتني تحتها تمزَّقت من فوق رأسي، لكن عندما هرب أوبمبي، سقطتُ من الفضاء، مثل فراشة اقتُلعت أجنحتها من جسدها وهي في الهواء، وأصبحت كائنًا عاجزًا عن الطيران، لا يسعه إلا أن يزحف.

لم يسبق لي أن عشت من دون إخوتي. لقد نشأت وأنا أراقبهم، وأكتفي باتباع خطاهم، بأن أعيش نسخة من حيواتهم المبكرة. لم يسبق لي فعل أي شيء من دونهم، خصوصًا أوبمبي الذي، وقد اكتسب الكثير من الحكمة من الكبيرين وقطَّر معارف أوسع عبر الكتب، تركني متوكلًا عليه تمام التوكل. لقد عشت معهم، واعتمدت عليهم كثيرًا، حتى إنه لم يسبق أن تشكَّلتْ فكرة صلبة في عقلي قبل أن تطفو أولًا في رؤوسهم. وحتى بعد موت إيكينا وبوجا، عشت كأنني لم أتأثر؛ لأن أوبمبي ملأ فراغ غيابهم، مُقدِّمًا إجابات على أسئلتي. لكنه، هو أيضًا، رحل الآن، وتركني عند عتبة باب كنت أرتجف لدخوله. لا أقول إنني خفت من التفكير أو الحياة لنفسي، بل لم أكن أعرف كيف، ولم أكن مستعدًّا لذلك.

عندما رجعتُ، بدت غرفتنا ساكنة، وفارغة، ومظلمة. تمددت على الأرض أبكي، فيما كان أوبمبي يجري، وحقيبته على ظهره، والأخرى الصغيرة، حقيبة «غانا يجب أن ترحل»[(11)]، في يده. وبينما ارتفع الظلام تدريجيًّا عن أكوري، ظل يجري، ويلهث، ويتعرق. لا بد أنه جرى متذكرًا قصة «كليمنس فوريل» المسماة «إلى حيث تحمله قدماه». لا بد أنه سلك طريقه في الشارع المظلم الساكن، ووصل إلى نهايته. ربما توقف هناك برهة لينظر إلى مفترق طرق، عاجزًا، للحظة، عن اختيار أي طريق يسلك. لكن مثل فوريل، لا بد أن الخوف من القبض عليه أخضعه، ولا بد أن ذلك الخوف أمدَّ عقله بأسباب القوة، مثل توربين يدوِّر الأفكار. لا بد أنه تعثَّر عدة مرَّات وهو يجري، أو سقط في حُفر، أو علق داخل الأجمة المتشابكة. لا بد أنه أصيب بالتعب والعطش، وأراد أن يشرب. لا بد أن العرق غمره، وأصبح جسده متسخًا. لا بد أنه واصل الجري، حاملًا شعار الخوف الأسود في قلبه، ربما الخوف مما سيحدث لي، أنا أخوه، الذي حاول أن يطفئ معه الحريق الذي حاصر بيتنا، وقد هدد هذا الحريقُ، في المقابل، بالتهامنا.

الأرجح أن أخي كان لا يزال يجري عندما صفا الأفق، واستيقظ شارعنا على هزة الأصوات، والصرخات العالية، والطلقات النارية، كما لو كان غزوًا من جيش معادٍ. أصوات تصرخ بالأوامر وتعوي، أذرع تدق على الأبواب، أقدام تضرب الأرض بقوة ووحشية، وأيدٍ تلوِّح بالبنادق والأسواط المصنوعة من جلود الأبقار. تجمعوا في كتلة واحدة - نصف دستة من الجنود - وبدأوا يقرعون بوابة بيتنا. ثم، فور أن فتح أبي، دفعوه جانبًا، وهم ينبحون مثل كلاب جريحة: «أين هما؟ أين هذان المجرمان الحَدَثان؟».

وصاح أحدهما: «قاتلان!».

مع تفجُّر الجلبة، صرخَت نكيم، بينما اندفعت أمي إلى باب غرفتي، وراحت تطرقه، وهي تنادي: «أوبمبي، بنجامين، استيقظا! استيقظا!». لكن وهي تنادي، تعالى وقع الأحذية في الداخل، واقتربت الأصوات منها. خرجت صيحة، صرخة، ثم صوت شخص يسقط على الأرض.

«أرجوكم! أرجوكم حضرات الضباط! إنهما بريئان، إنهما بريئان!».

«اخرسي! أين هذان الولدان؟».

ثم بدأ طرق الباب وركله بعنف.

«افتحا الباب أيها الولدان وإلا نسفت رأسيكما».

وفتحتُ المزلاج.

***

المرَّة التالية التي رجعت فيها إلى البيت كانت بعدما أخذوني بثلاثة أسابيع، بعد وقت طويل من دخولي العالم الجديد والمرعب والخالي من إخوتي. عدت لأتحمم. استطاع محامينا، السيد «باريستر بيودون»، بعد إلحاح من السيد بايو، أن يقنع القاضي أن يسمح لي بأن أُصطحب إلى هنا لأتحمم على الأقل. قالا إنهما لا يطلبان الخروج بكفالة، وإنما إطلاق سراح مشروط. أخبرني أبي أن أمي قلقة لأنني لم أتحمم منذ ثلاثة أسابيع. في ذلك الوقت، كلما نَقل لي شيئًا قالته، كنت أبذل جهدًا لكي أتخيل كيف قالته، لأنني طوال تلك الأسابيع الثلاثة، لم أرها تتكلم تقريبًا. لقد انتكست إلى الحالة التي أصابتها بعد وفاة شقيقيَّ، وابتُليَت بعناكب حزن غير مرئية! لكن على الرغم من أنها لم تتكلم، فقد بدا أن كل نظرة منها، وكل حركة من يدها، تحوي ألف كلمة. حاولت تجنبها، هي الجريحة بحزنها. لقد سمعت ذات مرَّة - بعد موت إيكينا وبوجا - شخصًا يقول إن الأم التي تفقد طفلًا تفقد جزءًا من نفسها. عندما وَضعتْ زجاجة فانتا في فمي قُبيل بدء جلسة المحاكمة الثانية، أردت أن أقترب منها، وأقول لها شيئًا، لكنني لم أستطع. مرتان خلال المحكمة خرجَت عن السيطرة، وصرخَت أو صاحت عاليًا. إحداهما بعد أن قال الادعاء، الذي يقوده رجل بشرته داكنة جدًّا وقد منحه رداؤه الأسود مظهر شيطان في فيلم سينمائي، إنني وأومبي متهمان بارتكاب جريمة قتل.

في اليوم السابق على أولى جلسات محاكمتي، عندما جاء باريستر بيودون لزيارتي، أشار عليَّ بأن أركز على شيء آخر وحسب، على النافذة، أو القضبان، أو أي شيء. كان الحراس، في زيهم الكاكي، قد أخرجوني لمقابلته، محاميَّ وصديق أبي القديم. كان يأتي دائمًا بابتسامات واثقة تزعجني أحيانًا. دخل هو وأبي إلى الغرفة الصغيرة، حيث أستقبل زواري، بينما شغَّل أحد الحراس ساعة إيقاف. المكان يفوح برائحة عطنة ذكَّرتني بمرحاض مدرستي - رائحة براز آسِن. وقد سبق أن قال لي باريستر بيودون ألا أقلق، لأننا سنربح القضية. وقال أيضًا إن تلاعبًا سوف يحدث لأننا أصبنا أحد الجنود. كان باريستر بيودون واثقًا دائمًا، لكن في ذلك اليوم الأخير من محاكمتي العاجلة، لم يكن مبتسمًا كالعادة، بدا عابسًا وجادًّا، وكانت خريطة المشاعر المنبسطة على وجهه مبهمة ومستغلقة. عندما جاء إلى حيث أقف مع أبي في زاوية قاعة المحكمة، بعدما كشف لي أبي عن لغز إصابة عينه، قال: «سنفعل ما بوسعنا، ونترك الباقي بين يدي الرب».

عدنا إلى البيت في شاحنة القس كولينز، حيث جاء لاصطحابي مع أبي والسيد بايو، الذي ترك أسرته تمامًا في إيبادان، عائدًا إلى أكوري بين حين وآخر، على أمل أن يطلقوا سراحي فيأخذني معه إلى كندا، حيث يعيش مع أطفاله. تعرفتُ عليه بالكاد؛ إذ اختلف شكله كثيرًا عن ذلك الرجل الذي رأيته في آخر مرَّة عندما كنت في الرابعة أو نحو ذلك. بدت بشرته أفتح كثيرًا، ومَسحات من الشعر الرمادي جعَّدت جانبي رأسه. أصبح يتوقف بين العبارات كما يدوس السائق على الفرامل، ببطء، ثم يزيد سرعته ثانيةً.

ركبنا الشاحنة، التي تحمل اسم الكنيسة، «كنيسة جماعات الرب، فرع أرارومي، أكوري»، وقد كُتب عليها شعارها بالبنط العريض: «تعال كما أنت، وغادر إنسانًا جديدًا». تكلموا معي قليلًا، لأنني أجيب باختصار، وأكتفي بإيماءات من رأسي. منذ يوم اقتيادي إلى السجن لأول مرَّة، بدأت أتجنب الكلام مع والدي والسيد بايو. لم أكن أحتمل مواجهتهما. الخلاص الذي حلم به أبي - فكرة الحياة الجديدة في كندا - هشمته تهشيمًا، وكانت تلك ضربة قوية بالنسبة إليه، حتى إنني كثيرًا ما تساءلتُ كيف لا يزال يحافظ على قشرة هادئة وكأنه رابط الجأش. رحت أُفضي بمخاوفي إلى المحامي، وهو رجل له صوت رفيع مثل امرأة، فيطمئنني أكثر من أي شخص آخر، بأنهم سيطلقون سراحي، ويتبع ذلك بلازمة «بعد وقت قصير».

لكن، بينما نحن نتجه إلى البيت، عجزتُ عن احتجاز السؤال الذي ظل يدق في عقلي، فقلت: «هل عاد أومبي؟».

قال السيد بايو: «لا، لكنه سيرجع قريبًا». أوشك أبي أن يقول شيئًا، لكن السيد بايو أسكته بأن أضاف: «لقد أرسلنا إليه. سيرجع».

أردت أن أسأل أين عثروا عليه، لكن أبي قال: «نعم، صحيح». انتظرتُ، ثم سألت أبي عن سيارته.

«أخذها بودي ليصلحها»، كانت إجابته السريعة. استدار وواجهني في عينيَّ، لكنني أشحت بوجهي سريعًا، فقال: «بها مشكلة في وصلة الكهرباء».

قالها بالإنجليزية لأن السيد بايو، الذي ينتمي إلى اليوروبا، لا يعرف الإغبو. أومأت برأسي. لقد وصلنا إلى طريق مليء بالحفر حتى إن القس كولينز، مثل غيره من السائقين، كان يميل إلى جانب الطريق ليهرب من الحفر ذات الفوهات الواسعة. وبينما كان يناور على تخوم شريط من الأجمة، احتكت مجموعة من سيقان النباتات - معظمها عشبة الفيل - بجسد الشاحنة.

سأل السيد بايو: «هل يعاملونك معاملة حسنة؟».

كان يجلس معي في المقعد الخلفي، والمسافة بيننا مملوءة بالدفاتر، وكتيبات مسيحية، وإعلانات كنسية، معظمها يحمل الصورة نفسها للقس كولينز وهو يمسك بميكروفون.

قلت: «نعم».

مع أن أحدًا لم يضربني أو يتنمر عليَّ، فقد شعرت أنني أكذب؛ إذ كانت هناك تهديدات وشتائم. في اليوم الأول داخل السجن، وسط دموعي وضربات قلبي المحمومة التي لم تجد عزاءً. ناداني أحد الحراس بـ«القاتل الصغير»، لكنه اختفى سريعًا بعد أن تركوني في الزنزانة الفارغة الخالية من النوافذ، التي لم أكن أرى شيئًا من بين قضبانها إلا زنازين أخرى فيها رجال، يجلسون مثل حيوانات محبوسة في أقفاص. بعض الزنازين تبدو خالية، إلا من السجناء، لكن زنزانتي تضم فرشة بالية، ودلوًا بغطاء أقضي فيه حاجتي، وبرميل ماء يُملأ مرَّة كل أسبوع. يشغل الزنزانة المواجهة لزنزانتي رجل فاتح البشرة، وجهه وجسده مغطيان بالجروح والندوب والأوساخ، ما منحه مظهرًا مريعًا. يجلس في أحد أركان الزنزانة، يحدق ساهمًا في الجدار، وتعبيراته خاوية، ومتخشبة. لاحقًا، سيصبح هذا الرجل صديقًا لي.

سألني القس كولينز بعد أن رددت بالإيجاب على سؤال السيد بايو: «بِنْ، هل تقصد أنك لم تُضرب على الإطلاق؟».

قلت: «لا يا سيدي».

قال أبي: «بِنْ، قل لنا الحقيقة». وألقى بنظره إلى الخلف: «أرجوك، قل لنا الحقيقة».

التقت أعيننا ثانية، وفي تلك المرَّة لم أستطع أن أشيح ببصري. وبدلًا من الكلام، شرعت أبكي.

مد السيد بايو يده إلى رأسي، وبدأ يجذبني ناحيته قائلًا: «آسف، آسف، **ما سو كو مو** - كُف عن البكاء». كان يجد متعة في الكلام بلغة اليوروبا معي ومع إخوتي. في المرَّة الأخيرة التي زار فيها نيجيريا، في 1991، كان يحب أن يمزح حول حقيقة أنني وإخوتي، مجرد أطفال، نعرف اليوروبا، لغة أكوري، أفضل من والدينا.

«بِنْ»، ناداني القس كولينز بصوته الرقيق، والشاحنة تقترب من حيِّنا.

أجبته: «سيدي».

رفع إحدى يديه عن عجلة القيادة: «أنت رجل عظيم، وستكون رجلًا عظيمًا، حتى لو وضعوك هناك في النهاية، وآمل ألا يحدث، ولن يحدث ذلك بمشيئة الرب...».

وقاطعه أبي: «نعم، آمين».

«لكن إن حدث ذلك، فاعلم أنه لن يكون هناك شيء أعظم، شيء أكبر، من أن تعاني لأجل إخوتك. لا! لن يكون هناك شيء أعظم. يقول ربنا: «ليس لأحد حب أعظم من هذا: أن يعاني لأجل أحبائه»».

وصاح أبي منغِّمًا، وهو يومئ برأسه: «نعم! صحيح جدًّا».

«إن وضعوك هناك، فأنت لا تعاني من أجل أصدقاء، ولكن من أجل إخوتك».

وجاء الرد على ذلك صدامًا بين «نعم» مدوية من أبي، وجعجعة بلكنة أجنبية من السيد بايو: «تمامًا، تمامًا يا حضرة القس».

وكرر القس: «لا شيء».

ازدادت الـ«نعم» المنغَّمة من أبي صخبًا، حتى إنها أسكتت القس تمامًا. عندما انتهى أبي، شكر القس، بحرارة وجدية. ثم ظللنا صامتين لبقية الرحلة. ومع أن خوفي من السجن اشتدَّ، فقد ارتحت لفكرة أنني سأواجه مصيري، أيًّا كان، من أجل شقيقيَّ. كان شعورًا غريبًا.

عند وصولنا إلى البيت، شعرت بنفسي آنية فخار محطمة مليئة بالتراب. كان ديفيد يتسكع، ويراقبني من بعيد، لكنه يتجنب عينيَّ ويندفع إلى الخلف كلما اقتربتُ منه لأتناول يده. تحركتُ في أرجاء البيت مثل غريب وضيع وجد نفسه فجأة في بلاط ملكي. رحت أخطو على الأرض بحذر، ولم أدخل غرفتي. كل خطوة أخطوها تعيد إليَّ الماضي بصورة ملموسة تأخذ بتلابيبي. ضايقتني قليلًا الأيام التي قضيتها على الأرض غير الممهدة للزنزانة التي تشبه القفص، حيث احتجزت لأيام عديدة، لا يرافقني إلا كتاب، وضايقني تأثير الحجز على والديَّ، خصوصًا أمي، وضايقني عدم معرفة مكان أخي. فكرتُ، وأنا أتحمم، فيما كشفه لي أبي في المحكمة في الأسبوع السابق، عندما سحبني، قبل الجلسة، إلى ركن من القاعة، وقال بنبرة خطيرة: «هناك شيء يجب أن تعرفه». لاحظتُ أنه كان يبكي. عندما ابتعدنا عن مسامع الباقين، أومأ لي وكَبَت ابتسامة في محاولة لإخفاء حزنه. رفع رأسه مرَّة أخرى لينظر إليَّ، وحرك إصبعه إلى طرف عينيه ليمسح الدموع. خلع نظارته وحدق فيَّ بعينه المعطوبة. كان نادرًا ما يخلع النظارة منذ عودته بضمادة على عينه، وندبة على الجانب الأيسر من وجهه. أمال رأسه إلى الأمام، وأمسك بيدي وهمس: «**جي ني**، أزيكيوي»، قالها بإغبو بارعة. «ما فعلته عظيم. **جي نتي، إيه**. لا تندم عليه، لكن أمك لا يجب أن تعرف كلمة مما أقوله لك الآن».

أومأت برأسي.

قال بالإنجليزية، وصوته ينخفض: «حسنًا. لا يجب أن تعرف. اسمع، هذا الشيء في عيني ليس مياهًا بيضاء، لقد كان...». سكتَ، وراح يرمقني بنظرة ثابتة: «المجنون الذي قتلتماه فعلها بي».

«ماذا؟!»، صرختُ عاليًا، جاذبًا انتباه المحيطين بنا، حتى أمي رفعت رأسها من مكانها بجانب ديفيد، ويداها تحيطان بجسدها الهش.

«قلت لك ألا تصرخ»، قالها أبي مثل طفل خائف، وعيناه تنظران في اتجاه أمي. «تعرف، بعد أن جاء هذا المجنون إلى القداس الخاص بشقيقيك، شعرتُ بأذى بالغ، شعرتُ بالعار، وشعرت أنه نكَّل بنا بما يكفي. أردت أن أقتله بيدي، حيث لن يفعل أحد ذلك من أجلي، لا الناس ولا الحكومة. ذهبت بسكين، لكن بينما كنت أتقدم ناحيته، رماني بمحتويات وعاء كبير في وجهي. هذا الرجل الذي قتلتماه كاد أن يعميني».

طوى يديه معًا، فيما أحاول استيعاب ما يخبرني به، وصورته يوم عاد حادة في ذهني وكأنها الحاضر. نهض وسار عبر القاعة، بينما وجدت نفسي أفكر كيف يسبح السمك في «أومي-ألا»، وكيف يبقى في مكانه عالقًا على الرغم من التيارات.

عندما انتهيتُ من حمَّامي، مسحت جسدي بفوطة أبي، ثم لففتها حولي، ورحت أتذكر ما أخبرني به أبي سابقًا، قبل أن نأتي إلى البيت.

«لقد حصل بايو على تأشيرة كندا لكليكما. لو لم يحدث ما حدث، لكنتما الآن في طريقكما إلى هناك».

بدأت أغتم مجددًا، وعدت إلى غرفة الجلوس بعد حمَّامي باكيًا. كان السيد بايو جالسًا في مواجهة أبي، ويداه مستندتان على ركبتيه، وعيناه مركزتان بالكامل على وجه أبي.

قال السيد بايو: «اجلس. يا بُني، عندما تذهب إلى هناك اليوم، لا تخف. لا تخف على الإطلاق. أنت طفل، والرجل

الذي قتلته لم يكن مجنونًا فحسب، بل مجنونًا أساء إليك. سيكون من الخطأ أن يسجنوك على ذلك. اذهب إلى هناك، وقل لهم ما فعلت، وسيطلقون سراحك». سكت ثم تابع: «لا، لا، لا تبكِ».

قال أبي: «أزيكيوي، قلت لك لا تبكِ».

قال السيد بايو: «لا يا إيمي، انتظر، إنه مجرد طفل. سيطلقون سراحك، وسآخذك إلى كندا في اليوم التالي. أنا ما زلت هنا لهذا السبب، أنتظرك. هل تسمع؟».

أومأت برأسي.

«إذن، امسح عينيك من فضلك».

ذِكره لكندا خرق قلبي ثانيةً. فكرة أنني كنت قريبًا إلى هذه الدرجة من الذهاب إلى الأماكن التي رأيتها في الصور التي أرسلها لنا، أو الحياة في بيت مصنوع من الخشب، والأشجار الجرداء التي تقف تحتها ابنتاه، كيمي وشايو، في وضعية التصوير فوق دراجتين، و«التعليم الغربي»، الظاهرة التي أتلهف عليها، والشيء الوحيد الذي نشأتُ وأنا أفكر أنه يمكن أن يجعل أبي سعيدًا، تتسرب من قبضتي. هذا الشعور بضياع الفرصة اكتسحني، حتى إنني، من دون تفكير، نزلت على ركبتيَّ، وقبضت على ساقيه، وشرعت أقول: «أرجوك يا سيد بايو، خذني الآن، لماذا لا تأخذني الآن؟».

للحظة، تبادل النظرات مع أبي، عاجزين عن الكلام.

توسلت وأنا أحك كفيَّ معًا: «بابا، أرجوك قل له أن يأخذني الآن. قل له أن يأخذني الآن. أرجوك يا بابا!».

ردًّا على ذلك، دفن أبي رأسه في كفيه، باكيًا. ولاح لي للمرَّة الأولى أن أبي، أبانا، الرجل القوي، لم يكن بوسعه مساعدتي؛ لقد أصبح عُقابًا مدجَّنًا، بمخالب مكسورة ومنقار ملتوٍ.

«بِنْ، اسمع»، شرع السيد بايو يقول، لكنني لم أكن أسمع. كنت أفكر في الطيران في طائرة حقيقية، محلقًا مثل طائر في السماء. وسوف يمضي وقت طويل بعدما تكلم قبل أن أتذكر ما قاله: «لا أستطيع أن آخذك الآن، أنت تعرف، سوف يقبضون على أبيك. علينا أن نواجههم أولًا. لا تقلق، سيطلقون سراحك. ليس أمامهم خيار آخر».

مد يده إلى يدي، ودس فيها منديلًا وهو يقول: «امسح دموعك، أرجوك».

دفنت رأسي في المنديل حتى أنسحب بعيدًا - ولو للحظة - عن عالم أصبح الآن بحيرة من النيران تهدد بالتهامي، أنا الفراشة الصغيرة التي لا حول لها ولا قوة.

«غانا يجب أن ترحل»: في عام 1983 أصدر الرئيس النيجيري شيهو شاغاري أمرًا بترحيل جميع الأجانب الذين لا يحملون أوراقًا رسمية، وكان معظمهم من غانا (مئات الآلاف). واستخدم المهاجرون حقائبهم المميزة، ذات التصميمات الملونة المخططة والمربعة، لحمل أغراضهم. ولكثرة استخدام هذه الحقائب في تلك الأيام، أصبح الاسم «غانا يجب أن ترحل» (Ghana Must Go) أشبه بـ«علامة تجارية» تصف هذا النوع من الحقائب. (المترجم).

18

البلشون

ديفيد ونكيم كانا طائري بلشون.

تلك الطيور البيضاء، شبيهة الصوف، التي تظهر في أسراب ما بعد العاصفة، أجنحتها ناصعة، وحياتها نقية. ومع أنهما في وسط العاصفة، فقد خرجا في النهاية بأجنحة مفرودة، محلِّقين في الهواء، بعدما تغير كل ما كنت أعرفه.

أول من تغيَّر أبي: المرَّة التالية التي رأيته فيها نَمت له لحية رمادية. كان ذلك يوم إطلاق سراحي، ولم أكن قد رأيته لا هو ولا أي من أسرتي على مدار ست سنوات. عندما جاؤوا أخيرًا، لاحظت أنهم جميعًا تغيروا، فما عدت أعرفهم. وأحزنني ما صار عليه أبي - رجلًا ضامرًا نحيلًا دُقَّت حياته دقًّا، وكأنما بيد حداد، فأصبحت على هيئة منجل. حتى صوته راكَم حشرجة ما، وكأن بقايا الكلمات التي ظلت طويلًا حبيسة كهف فمه أصابها الصدأ، وصارت تتناثر في أشتات صغيرة على طرف لسانه كلما فتح فمه ليتكلم. ومع أنه مرَّ بالكثير من الإجراءات الطبية على مدى السنوات الماضية، فقد استعصت التغييرات على الوصف الكامل.

أمي، أيضًا، كبرت كثيرًا. مثل أبي، تراكم ثقلٌ ما، كما الغصَّة خلف صوتها، جعل كلماتها تخرج كأنها تخوض في الأوحال، كما تؤثر السمنة في مشية الشخص، فتجعله يمشي الهوينى. بينما نحن جالسون على مقعد خشبي داخل مقر السجن في انتظار التوقيع الأخير للمأمور، حكى لي أبي كيف عادت ترى العناكب، بعدما غادرتُ أنا وأوبمبي البيت، لكنها سرعان ما تعافت. رحت أنظر وهو يتكلم إلى الحائط المقابل الذي عُلقت عليه صور لرجال كريهين في بزَّات رسمية، وعبارات نعي مطبوعة على ملصقات رخيصة. بدا الطلاء الأزرق واهنًا، وباهتًا، ومغطى بالعفن من فرط الرطوبة. تركتُ عينيَّ تركزان على ساعة الحائط، لأنني لم أكن قد رأيت ساعة منذ وقت طويل. كانت الخامسة واثنتين وأربعين دقيقة، بينما العقرب الصغير يتحرك في اتجاه السادسة.

لكن من بينهم جميعًا، أدهشني بصورة أكبر التغيير الذي لاحظته على ديفيد. عندما رأيته، أذهلني كيف اكتسب جسد بوجا بالضبط. لم يكن هناك فارق تقريبًا، غير أنه، بينما اتسم بوجا بالحيوية، بدا ديفيد خجولًا وملجومًا نوعًا ما. بعد المجاملات الأولية التي تبادلناها في مقر السجن، لم يتكلم إلا عندما اقتربَت سيارتنا من قلب البلدة. لقد أصبح في العاشرة. ظل هو الطفل نفسه، الذي لأجله، في الشهور المشهودة التي انتهت بولادته (وولادة نكيم)، كانت أمي كثيرًا ما تنطلق في غناء أغنية تظن أنها تمنح الطفل الذي لم يولد بعد فرحة، وصدقنا جميعًا ذلك وقتها. عندما تبدأ في الغناء والرقص نتجمع أنا وإخوتي، إذ كان صوتها فاتنًا. يقوم إيكينا بدور الطبال، يطبل بالملاعق على الطاولة. وبوجا هو عازف الناي، يصدر أصواتًا مثل الناي بفمه. وأوبمبي هو الصفَّار، يصفر اللحن. وكنت أنا المشجع، أصفق على الإيقاع. بينما تكرر أمي اللازمة:

إيوغوغو إيوغو إيوغوغو،

كائني جي نا نكي بيشوبو	هيا نذهب للمُطران
نا فايف أكولا	فالساعة أصبحت الخامسة
إيه يني إيوي مئيوي بون	أنا حزينة لأن
آ إيفيئم أكوراكو	الغسيل لا يزال رطبًا
نوائم بون آ-أفو	لكن يريحني أن أعرف
نائيوي أهولي	أن الطفل في رحمي سعيد

لقد تملكتني لهفة قوية لأن أجذب ديفيد إليَّ وأعانقه، عندما قال أبي فجأة، وكأنه يجيب على سؤال مني: «هدمٌ، في كل مكان».

لقد رأى ونشًا في مكان بعيد يقوِّض منزلًا، وقد تجمع الناس حوله. ورأيت أنا مشهدًا مشابهًا في مكان ما قبلها، بالقرب من المرحاض العمومي المهجور.

سألته: «لماذا؟».

قال ديفيد، من دون أن ينظر إليَّ: «يريدون أن يجعلوا من هذا المكان مدينة. الحاكم الجديد أمر بهدم معظم البيوت».

أخبرني أحد الوعَّاظ، وهو الشخص الوحيد الذي سُمح له بزيارتي، عن التغيير في الحكومة. بسبب سنِّي في ذلك الوقت، اعتبرني القاضي غير جدير بعقوبة السجن المؤبد أو الإعدام. وكنت، أيضًا، غير جدير بسجن الأحداث لأنني ارتكبت جريمة قتل. وهكذا، قرروا أن أقضي عقوبة الحبس، ثماني سنوات، من دون زيارات أو اتصال مع أسرتي. جلسة الحكم تلك، كلها، خُزنت في قنينة مُحكمة، وفي كثير من ليالي الزنزانة، بينما كان البعوض يئز حول أذني، كانت تمر بذهني لمحات مفاجئة من دار القضاء، ستارة خضراء تتموج، والقاضي جالس أمامي على المنصة العالية، وصوته عميق وأجش:

«... سوف تظل هناك حتى يعتبرك المجتمع بالغًا، قادرًا على التحكم في نفسك بطريقة متحضرة مقبولة للمجتمع والإنسانية. على ضوء هذا، وبالسلطة الممنوحة لي من قِبل نظام العدالة في جمهورية نيجيريا الفيدرالية، وبتوصية من المُحلِّفين بأن يُخفف الحكم بالرحمة، ولأجل والديك، السيد والسيدة أغوو، أصدر هنا حكمي عليك، يا بنجامين أزيكيوي أغوو، بالسجن ثماني سنوات من دون اتصال عائلي، حتى تصل، وأنت الآن في العاشرة، إلى سن النضج المتفق عليه مجتمعيًّا، البالغ ثمانية عشر عامًا. رُفعت الجلسة».

ثم أرى، وقد سيطر عليَّ الخوف، كيف نظرت إلى والدي، ورأيت ابتسامة تقفز على جبهته مثل «سرعوف مُصلِّي». فيما أمي، بصرخة عالية، ويداها اللتان انطلقتا كطائرة مروحية فوق رأسها، تتوسل إلى الرب في الأعالي ألا يظل صامتًا بينما يحدث ذلك لها، **ليس تلك المرَّة**. ثم عندما قيدني الحراس بالأصفاد، وبدأوا في دفعي تجاه المخرَج الخلفي، تضاءل إدراكي للأمور فجأة، وأصبح مثل إدراك طفل لم يتشكَّل بعد - جنين - وكأن كل مَن في القاعة زوارٌ جاؤوا لرؤيتي في عالمي الخاص وهم الآن يغادرون، وكأن من يُسحب بعيدًا ليس أنا، بل هم.

***

كانت سياسة السجن تسمح لوعَّاظ بزيارة النزلاء، وكان أحدهم، القس الإنجيلي أجايي، يأتي كل أسبوعين أو نحو ذلك، ومن خلاله ظللت مُطَّلعًا على ما يحدث في العالم الخارجي. لقد أخبرني، قبل أسبوع من معرفتي بقرب إطلاق سراحي، أنه في سياق أول تحوُّل في تاريخ نيجيريا من الحكم العسكري إلى الحكم المدني، قرر أولوسيغون أغاغو، أول حاكم لولاية أوندو التي تُمثل أكوري عاصمتها، إطلاق سراح بعض السجناء. وقال أبي إن اسمي كان على رأس القائمة. وقد تحدَّد يوم 21 مايو 2003 القائظ موعدًا للإفراج عني. لكن الحظ لم يكن من نصيب جميع السجناء؛ فبعد عام من دخولي السجن، في 1998، جلب لي القس أجايي أخبارًا أن الجنرال أباتشا، الدكتاتور، لقي مصرعه والزبَد يسيل من فمه، وتواردت أنباء عن أنه قُتل بتفاحة مسمومة، ثم بعدها بشهر بالضبط، ومع قرب إطلاق سراحه، تُوفِّي «M.K.O»، أبرز سجناء أباتشا وعدوه اللدود، بالطريقة نفسها تقريبًا، بعد أن تناول كوبًا من الشاي.

كانت المصائب قد بدأت تنزل على رأس «M.K.O» بعد أشهر قليلة من لقائنا به، عندما أُلغيت نتيجة انتخابات 1993 التي كان يُعتقد أنه فاز بها، ما أطلق سلسلة من الأحداث جعلت السياسة النيجيرية - وبطريقة غير مسبوقة - تنزلق على انهيار طيني. ذات يوم في العام التالي، ونحن مجتمعون في غرفة الجلوس لمشاهدة نشرة الأخبار على التلفزيون النيجيري، رأينا «M.K.O» محاصرًا في بيته في لاغوس بقوات من نحو مائتي جندي مدججين بالسلاح في دبابات ومدرعات عسكرية، ثم اقتيد في سيارة ترحيلات، واتهم بالخيانة، وبدأ حبسه الطويل. وعلى الرغم من أنني أعرف ما يعانيه «M.K.O» من مصائب، فقد نزل خبر موته عليَّ كلكمة ثقيلة. أتذكر كيف عجزتُ عن النوم في تلك الليلة، وكيف تمددتُ على الفراش، مغطى بالربَّا التي أعطتها لي أمي، مفكرًا في مكانة ذلك الرجل عندي وعند إخوتي.

عبرنا جزءًا من «أومي-ألا»، الجزء الأكبر في البلدة، فرأيت رجالًا يجدفون في مياه بلون الوحل، وصيادًا يرمي شبكة في النهر. كان صف طويل من أعمدة الإنارة مثبتًا في الحاجز الإسمنتي الذي يفصل بين حارتي الطريق. وبينما نتجه إلى البيت، راحت تفاصيل أكوري المنسية تفتح عيونها الميتة. لاحظت أن الطريق تغير كثيرًا، وأن أشياء عديدة قد تغيرت في السنوات الست الأخيرة في تلك المدينة التي فيها وُلدت، وفيها زُرعت قدماي. لقد وُسِّعت الطرق، وأزيح الباعة أمتارًا عديدة إلى الخلف من الشوارع الفوضوية، التي تضج عادة بالسيارات والشاحنات. وكان جسر علوي قد شُيد فوق الطريق على الجانبين. في كل مكان، ترى خليطًا متنافرًا من الباعة ينادون على بضائعهم، فيوقظون المخلوقات الصامتة التي زحفت إلى أعماق روحي. وأخذ رجل يرتدي قميص «مانشستر يونايتد» باهت اللون يجري حين توقفنا في اختناق مروري، ثم راح يضرب على السيارة، وهو يحاول أن يدفع رغيف خبز من النافذة المجاورة لأمي، فرفعَت الزجاج. وفي البعيد وراء نحو ألف سيارة تطلق نفيرها في اهتياج ونفاد صبر ثمة سيارة نقل بمقطورة تدور إلى الخلف ببطء تحت جسر المشاة العلوي، هذه السيارة الديناصورية هي التي أوقفت الطريق كله.

كل ما يتحرك حولي بدا لي متناقضًا أشد التناقض مع سنوات السجن، فكل ما أفعله هناك لا يتعدى القراءة، والتحديق، والصلاة، والبكاء، ومناجاة النفس، والأمل، والنوم، والأكل، والتفكير.

قلت: «أشياء كثيرة تغيرت».

«نعم»، قالتها أمي. رأيتها تبتسم الآن، وتذكرتُ، في ومضات، كيف عذَّبتها العناكب.

نظرت ثانية إلى الشوارع، وبينما كنا نقترب من البيت، وجدت نفسي أقول: «بابا، هل تقصد أن أوبمبي لم يعد على الإطلاق، طيلة تلك السنوات؟».

أجاب أبي بحدة، وهو يهز رأسه: «لا، ولا مرَّة واحدة».

أردت أن أرى عيني أمي عندما قال ذلك، لكنها أخذت تحدق من النافذة، وبدلًا من ذلك التقت عيناي بعيني أبي في المرآة العلوية. أردت أن أخبرهم أن أوبمبي كتب لي بضع مرَّات من بينين، وقال إنه يعيش الآن مع امرأة تحبه، اتخذته ابنًا لها. لقد استقل حافلة من أكوري، وسافر إلى مدينة بينين في الصباح التالي لمغادرته البيت. قال إنه فكر في بينين

ببساطة بسبب قصة «أوبا أوفونراموين»[12] العظيم، ملك بينين الذي تحدى الحكم الاستعماري البريطاني، فقرر أن يذهب إلى هناك. عندما وصل إلى المدينة، رأى امرأة تخرج من سيارة، فتوجه إليها بشجاعة، وذكر لها أنه ليس لديه مكان للمبيت، فرقَّت لحاله، وأخذته إلى بيتها حيث تعيش وحدها. كتب أن هناك أشياء سوف تحزنني إن أخبرني بها، وأشياء يظن أنني أصغر من أن أسمعها، وقد لا أفهمها، لكنه وعد أن يخبرني بها لاحقًا. الأشياء القليلة التي قال إنني يجب أن أعرفها، في الوقت الحالي، كانت هذه: المرأة مطلقة، وتعيش وحدها، وهو أصبح رجلًا. قال، في الخطاب نفسه، إنه حسب تاريخ إطلاق سراحي بالضبط - 10 فبراير 2005 - وإنه سيعود إلى أكوري في اليوم نفسه. قال إن إغبافي سوف يبقيه مطلعًا على التطورات، وبهذه الطريقة، سوف يعرف ما يحدث لي.

إغبافي هو من كان يوصل إليَّ خطاباته. قابل أخي إغبافي للمرَّة الأولى - بعد أول ستة أشهر في المنفى - عندما حاول أن يعود إلى الديار. كان قد قطع الرحلة، لكنه كان خائفًا جدًّا من دخول دارنا. وهكذا، توجه إلى إغبافي الذي حكى له كل شيء، ووعده بتوصيل خطاباته إليَّ. كتب لي كل شهر تقريبًا على مدى السنتين التاليتين، عبر إغبافي، الذي أعطى وقتها الخطابات لحارس شاب لكي يمررها لي عادةً مقابل رشوة. كنت غالبًا أرد على الخطابات فيما كان إغبافي ينتظر في الخارج. لكن بعد السنوات الثلاث الأولى، انقطع إغبافي عن الحضور فجأة، ولم أكتشف قَطُّ لماذا أو ماذا حل بأوبمبي. انتظرت لأيام وشهور وسنوات، لكن لا شيء. كل ما وصلني هو خطاب من أبي بين حين وآخر، وذات مرَّة من ديفيد. بدأت أقرأ الخطابات، وأعيد قراءتها، حوالي ستة عشر خطابًا، أرسلها لي أوبمبي، حتى أصبح محتوى الخطاب الأخير المؤرخ في 14 نوفمبر 2000، مُخزنًا في رأسي مثل ماء في جوزة هند:

اسمع يا بِنْ..

لا أستطيع مواجهة والدينا الآن وحدي. لا أستطيع. أنا الملوم على كل ما حدث، كل شيء. أنا من قلت لإيكي ماذا قال أبولو عندما عبرَت الطائرة من فوق رؤوسنا. أنا الملوم. كنت غبيًّا جدًّا، غبيًّا جدًّا. اسمع يا بِنْ، حتى أنت عانيت بسببي. أريد أن أذهب إليهما، لكني لا أستطيع مواجهتهما وحدي. سوف آتي يوم إطلاق سراحك حتى نقابلهما معًا، ونتوسل إليهما أن يسامحانا على كل ما فعلناه. أحتاجك لأن تكون هناك عندما آتي.

أوبمبي

بينما كنت أفكر في الخطاب، خطر لي أن أسأل عن إغبافي. ظننت أنني قد أعرف منه لماذا توقف أخي عن الكتابة. عندما سألتُ إن كان إغبافي لا يزال يعيش في أكوري، حدقت أمي فيَّ بدهشة مربكة.

قالت: «جارنا؟».

«نعم، جارنا».

هزت رأسها، وقالت: «لقد مات».

«ماذا؟»، شهقتُ.

أومأت برأسها. أصبح إغبافي سائق شاحنات مثل أبيه، ينقل الخشب من الغابات إلى إيبادان على مدى سنتين، وتُوفِّي في حادثة عندما زلت شاحنته وسقطت في حفرة تسبب فيها تآكلٌ مدمر.

كتمتُ أنفاسي وهي تحكي ذلك. لقد نشأت وأنا ألعب مع هذا الصبي، كان هناك منذ البداية، واصطاد في «أومي-ألا» معي أنا وإخوتي. بدا الأمر فظيعًا.

«متى حدث ذلك؟».

قالت أمي: «قبل عامين أو نحو ذلك».

«خطأ! عامان ونصف»، تدخَّل ديفيد.

رفعتُ رأسي عندما قال ذلك، وقد تملكني شعور متوهم بأن رأيت ذلك من قبل. ظننت للحظة أننا في عام 1992 أو

1993 أو 1994 أو 1995 أو 1996، وأن بوجا يصحح لأمي بالطريقة نفسها. لكن هذا لم يكن بوجا، كان شقيقه الذي يصغره كثيراً.

قالت أمي بنصف ابتسامة: «نعم، عامان ونصف».

صدمني موت إغبافي أكثر وأكثر، لأنني لم أفكر، في ذلك الوقت، في إمكانية أن يموت أي شخص أعرفه بينما أنا في السجن، لكن الكثيرين ماتوا. السيد بودي ميكانيكي السيارات كان أحدهم. قُتل في حادث سير هو الآخر. كتب أبي ذلك في خطاب، خطاب كدت أشعر فيه بغضبه. ولسوف تظل الأسطر الثلاثة الأخيرة من ذلك الخطاب، المشحونة والقوية، عالقة في ذاكرتي لسنوات طويلة:

> الشبان يلقون مصرعهم كل يوم في «شراك الموت» المسماة بالطرق، طرق سريعة مليئة بالحفر ومتضعضعة. مع ذلك، فهؤلاء البلهاء في «آسو روك» يزعمون أن البلد سوف ينجو. هنا تكمن القضية، أكاذيبهم هي القضية.

هرعت امرأة حبلى إلى نهر الطريق باستهتار، فتوقف أبي فجأة. لوحت المرأة معتذرة، وعبرت الطريق. سرعان ما دخلنا شارعًا قدَّرتُ أنه شارعنا. بدت الشوارع نظيفة، وانتصبت بنايات جديدة في كل مكان. بدا كأن كل شيء قد تجدد، وكأن العالم نفسه قد وُلد من جديد. كانت البيوت المألوفة تقفز فجأة إلى الأنظار مثل آفاق ترتفع من ساحة معركة حديثة. رأيت البقعة التي كانت تقف فيها شاحنة أبولو القديمة المتهالكة. كل ما تبقَّى بضع قطعٍ من المعدن، مثل أشجار ساقطة، متشابكة في حديقة من عشب الإيسان. ثمة دجاجة ترعى مع فراخها، تنقر الأرض بصورة آلية. تعجبت لهذا المنظر، وتساءلت ما الذي حدث للشاحنة، ومَن رفعها. بدأت أفكر في أوبمبي ثانيةً.

كلما اقتربنا من البيت، فكرت فيه، وهدَّدَت تلك الأفكار فرحتي الطفولية. بدأت أشعر أن أفكاري حول الغد المشمس - إذا لم يعد أوبمبي - لن تتنفس طويلًا، سوف تتقهقر وتحتضر، كرجل يتعثر بعدما اخترق الرصاص جسده. لقد أخبرني أبي أن أمي مقتنعة بأن أوبمبي مات. قال إنها دفنت صورة له قبل أربعة أعوام بُعيد عودتها من «مستشفى الأسقف هيوي التذكاري للصحة النفسية»، حيث احتُجزت لعام كامل. قالت إنها قد حلمت بأن أبولو قتَل أوبمبي مثلما قتل أخاه، طعنه برمح فثبَّته في الجدار. حاولت أن تسحبه من الجدار، لكنه ظل يحتضر بطيئًا أمام عينيها. وإذ اقتنعت بأن الحلم حقيقة، بدأت حدادها على أوبمبي، فراحت تنتحب، وترفض أن تهدأ. شعر أبي، الذي لم يكن مقتنعًا بالأمر، أن الأفضل أن يجاريها حتى تُشفى. كان صديقه، هنري أوبيالور، قد نصحه بأن يتركها لما تراه، إذ لم يكن من الحكمة مجادلتها. رفض ديفيد ونكيم السماح بذلك في البداية، قائلين إن أبولو مات، ولا يمكن أن يكون قد قتل أوبمبي. لكن أبي حذرهما، وسمح لهذه القناعة أن تبقى. تبعها إلى حيث دفنته بجوار إيكينا في جلسة أجبرته على حضورها، مهددة بالانتحار إذا لم يفعل. لكن ما دفنته لم يكن هو؛ كان صورة له.

كان أبي قد تغيَّر كثيراً، حتى إنه لم يعد ينظر في عيني من يتحدث إليه. كنت قد لاحظت هذا في قاعة استقبال السجن، حيث أخبرني بأمر أمي. كان رجلًا أقوى في الماضي، رجلًا منيعًا، دافع عن أبوته لهذا العدد الكبير من الأطفال بقوله إنه يريدنا أن نكون كثرة حتى يتنوع النجاح في الأسرة. يقول دائمًا: «أطفالي سوف يصبحون عظماء. سوف يصبحون محامين، أطباء، مهندسين - وهل ترى، ها هو أوبمبي أصبح جنديًا». ولسنوات طويلة ظل يحمل حقيبة الأحلام هذه. لم يعرف أن ما يحمله طيلة تلك الأيام كان حقيبة من أحلام غزتها الديدان، أحلام تحللت منذ زمن، وأصبحت ثِقلًا لا حياة فيه.

حل الظلام تقريبًا عند وصولنا إلى البيت. فتحَت البوابة فتاة أدركتُ على الفور - ولكن ليس من دون مشكلات - أنها نكيم. كانت تمتلك وجه أمي بالضبط، وكانت أطول كثيراً من فتاة في السابعة. كان شعرها مضفرًا ممتدًّا على ظهرها. عندما رأيتها، أدركت، فورًا، أنها وديفيد كانا طائري بلشون: تلك الطيور التي في بياض الثلج، وتُشبه الحمامات، وتظهر بعد العاصفة، وتطير في أسراب. ومع أن كليهما ولِد قبل العاصفة التي زعزعت أسرتنا، فإن أحدًا منهما لم يرتجَّ بها حقًّا.

مثل رجل ينام وسط عاصفة عنيفة، ظلا نائمين على طول الخط. وحتى عندما شعرا بأثر من العاصفة - أثناء المنفى الطبي الأول لأمي - لم يكن ذلك إلا أثرًا واهنًا، لا يكفي حتى لإيقاظهما.

لكن طيور البلشون عُرفت بشيء آخر كذلك: إذ كانت إشارة أو بشارة بالأوقات الطيبة. هناك اعتقاد أنها تنظف الأظافر أفضل من أي مِبرد أظافر. عندما كنا نراها تطير في السماء نحن وأطفال أكوري، كنا نهرع ونرفرف بأصابعنا وراء السرب الأبيض المحلِّق على ارتفاع منخفض فوق رؤوسنا، ونكرر المقولة: «يا بلشون، يا بلشون، اهبط عليَّ».

وكلما رفرفت بأصابعك أقوى، تسارعت الأغنية. وكلما رفرفت بأصابعك وغنيت أقوى وأسرع، أصبحت أظافرك أكثر بياضًا ونقاء ونصاعة. بينما أفكر في تلك الأشياء، اندفعت أختي إلى ذراعيَّ، وأعطتني حضنًا دافئًا، وهي تنطلق في النشيج، وتقول، وتكرر: «حمدًا للرب على سلامتك يا بِنْ، يا أخي».

كان لصوتها وقع الموسيقى في أذني. وقف والداي وأخي ديفيد خلفنا، بجوار السيارة، يراقبوننا. كنت أحتضنها، وأغمغم بأنني سعيد لعودتي، عندما سمعتُ شخصًا يصفِّر عاليًا مرتين. رفعتُ رأسي ورأيت، في تلك اللحظة، الانعكاس المبهم لشخص يتحرك، يعبر سور الدار بالقرب من البئر حيث انتُشل بوجا، قبل سنوات طويلة. وأربكني المشهد.

قلت، وأنا أشير في اتجاه العتمة: «شخص ما هناك».

لكن أحدًا لم يتحرك، وكأنهم لم يسمعوني. وقفوا جميعًا في مكانهم، يراقبون، وذراع أبي حول أمي، وابتسامة ساطعة ممتدة على وجه ديفيد. شعرتُ كأنهم يطلبون مني، بأعينهم، أن أكتشف ذلك الشيء، أو كأنهم يظنونني واهمًا. لكنني نظرت في الاتجاه، حيث تعارك شقيقاي قبل سنوات، فرأيت انعكاس ساقين تتسلقان السور. اقتربت أكثر، وقد استيقظت دمدمات قلبي المحمومة في صحوة جديدة.

سألت بصوت عالٍ: «مَن هناك؟».

لم أسمع كلمة في البداية، ولم أرَ حركة أو شيئًا. استدرت إلى أسرتي من خلفي لأسأل مَن هناك، لكنهم جميعًا كانوا ثابتين في بقعة واحدة، يحدقون فيَّ، غير راغبين في النطق بكلمة. لقد أبهجهم الظلام إلى أقصى حد، وشكلوا ستارة سوداء من الصور الظليَّة. استدرت ثانيةً إلى البقعة، ورأيت الظل يعلو على الجدار، ثم يثبت في مكانه.

قلت ثانيةً: «مَن هناك؟».

ثم أجابت الهيئة، وسمعتُ الإجابة عالية وواضحة، وكأن لا قضية، ولا قضبان، ولا أيدي، ولا أصفاد، ولا حواجز، ولا سنوات، ولا مسافات، ولا زمن قد فصل بين آخر مرَّة سمعت فيها صوته والآن؛ وكأن كل تلك السنوات التي مرَّت لم تكن إلا مسافة بين خروج صيحة وتلاشيها. بمعنى: اللحظة التي أدركتُ فيها أنه هو، واللحظة التي سمعته يقول فيها: «هذا أنا، أوبي، أخوك».

للحظة، ظللت واقفًا في مكاني، بينما بدأت هيئته تتحرك في اتجاهي. قفز قلبي مثل طائر حر عند التفكير في أنه هو، أخي بشحمه ولحمه، الذي ظهر الآن حقيقيًّا كما كان من قبل، مثل بلشون بعد عاصفة. وبينما كان يتقدَّم في اتجاهي، تذكرت كيف أنه في المحكمة، في يوم حسابي الأخير، رأيت ما بدا لي رؤيا حول عودته. قبل أن أعتلي المنصة في ذاك اليوم، لاحظ أبي أنني بدأت أبكي ثانيةً، فجذبني جانبًا إلى زاوية من قاعة المحكمة، بالقرب من الجدار الزبرجدي الهائل.

همس لي فور وصولنا إلى هناك: «هذا ليس وقت بكاء يا بِنْ، هذا ليس وقت...».

أجبته: «أعرف يا بابا، أنا فقط حزين لأجل ماما. أرجوك أخبرها أننا آسفون».

قال: «لا يا أزيكيوي، اسمع. ستذهب إلى هناك مثل الرجل الذي ربَّيته. ستذهب مثل الرجل الذي كنته عندما رفعتَ السلاح لتثأر لشقيقَيك». انحدرت دمعة على أنفه وهو ينحت تمثالًا غير مرئي لرجل ضخم بيديه: «ستقول لهم كيف حدث كل ذلك، ستقولها مثل الرجل الذي ربَّيته، جبارًا، عتيًّا، مثل.. تذكُر.. مثل...».

توقَّف، وأصابعه شاردة على رأسه الحليق، باحثًا في عقله عن الكلمة التي بدا أنها قد سقطت إلى مؤخرة عقله.

في النهاية، نطقت شفتاه المرتعشتان: «مثل الصياد الذي كنته ذات يوم». هزني: «هل تسمعني؟ أقول هل

تسمعني؟».

لم أرد. لم أستطع. وقد لاحظت ازدياد الهرج في الخارج، واقتراب الحراس المسؤولين عني. أخذ المزيد من الناس يتدفقون إلى المحكمة، معظمهم صحفيون بكاميرات. رآهم أبي، فارتفع صوته بإلحاح: «بنجامين، لن تخذلني».

كنت أبكي بكاءً حرًّا الآن، وقلبي يدق.

«هل تسمعني؟».

أومأت برأسي.

لاحقًا، بعد أن جلس الحضور في القاعة، ووصف الادعاء الضبع تفاصيل جراح أبولو (... ثقوب متعددة من خطاف صيد وُجدت على جسد الضحية، كسر في الرأس، ثقب في الوعاء الدموي في الصدر...)، طلب القاضي أن يسمع دفاعي.

عندما شرعتُ أتكلم، بدأت كلمات أبي - «جبارًا، عتيًّا» - تكرر نفسها في رأسي. استدرت ونظرت إلى والديَّ، اللذين جلسا معًا، وديفيد إلى جوارهما. نظر إليَّ أبي، وأومأ برأسه، ثم حرك فمه بطريقة جعلتني أرد بإيماءة من رأسي. وفور أن رآني أومئ، ابتسم. ساعتها تركتُ الكلمات تتدفق مني، وصوتي يعلو فوق الصمت الموحش لقاعة المحكمة وأنا أبدأ كما أردت دائمًا أن أبدأ.

«كنا صيادين. هكذا أصبحنا أنا وإخوتي...».

أطلقت أمي صرخة عالية ثاقبة أربكت المحكمة، مثيرةً جلبة في الجلسة. جاهد أبي لكي يغطي فمها بيده، وتوسلاته الهامسة أن تتصرف كأم صدحت عاليًا. ذهب الانتباه كله إليهما، بينما تحوَّل صوت أبي من الاعتذار: «أنا متأسف جدًّا يا صاحب السيادة» إلى «**نني، بيكو، إبيزينا، إيمي نائيفي آ** - لا تبكي، لا تفعلي ذلك». لكنني لم أنظر إليهما. أبقيت عينيَّ على الستائر الخضراء التي كانت تغطي فتحات الشبابيك الكثيفة المكسوة بالتراب عاليًا فوق مستوى المقاعد. دفقة ريح قوية أزاحتها بلُطف فبدت للحظة مثل رايات خضراء. أغمضت عينيَّ، بينما استمرت الجلبة، وانسحبتُ إلى ظلمة شاملة. في الظلام رأيت صورة ظليَّة لرجل يحمل حقيبة ظهر، ويسير عائدًا إلى البيت، تمامًا كما غادره. كان قد اقترب من البيت، ويكاد يصل، عندما طرق القاضي بمطرقته على الطاولة ثلاث مرَّات وجأر: «بإمكانك الآن أن تُكمل».

فتحتُ عينيَّ، وتنحنحتُ، وبدأتُ كل شيء من جديد.

أوبا (الملك) أوفونراموين: ملك قبلي على مملكة بينين، قاوم بعثات الغزو البريطانية حتى أطيح به عام 1897. (المترجم).

شكر وعرفان

مع أن «**الصيادون**» لا تحمل اسمًا سوى اسمي، فقد أُنتجت عبر جهود كثيرين:

أونسال أوزونلو، المدرس العظيم والقارئ المبكر، أبي التركي. بهبود محمد زاده، أقرب أصدقائي، الذي لا تُقدَّر أخوته بثمن. ستافرولا، التي شهدت معظم أجزاء هذه المسيرة. نيكولاس ديلبانكو، المُعين، الراعي، مدرس العادات الطيبة. إيلين بولاك، القارئة التي تمتلك عيني نسر، التي نقشت بقلمها الأحمر على حواف الصفحات. كريستينا، التي غيرت تعليقاتها المسارات. أندريا بوشامب، المعينة الطيبة. لورنا غوديسون، موفرة السكِينة والحب...

جيسيكا كريغ، الوكيلة من الطراز الأول، المرشدة السياحية، والصديقة التي أشعر بالراحة بين يديها. إيلينا لابن، المستحوذة والمحررة، اليد غير المرئية وراء كل صفحة، صاحبة الإيمان العظيم. جودي كلين، جالبة الفرحة، المحررة. آدم فرويدنهايم، الناشر فريد الطراز، الذي، حتى في أقصى انشغالاته، لا يتخلى عنك. هيلين زيل، التي تفيض على الكُتَّاب من خيراتها...

بِل كليغ، المشجع المبكر، المبشر بأطيب الأشياء. بيتر ستينبرغ، أول من نقل الكلمة. أماندا باور، السريعة. ليندا شوغنيسي، الوكيلة التي طرحت الكتاب طولًا وعرضًا. بيتر هو دافيز، نافخ البوق البارع. إيميكا أوكافور. بيرنا ساري. أغنس كروب، «دي دبليو جيبسون» والبارعون في «دار ليديغ» (أماندا كورتن، فرانسيسكو هاغينبك، مارك باستور، ساسكيا جين، إيفا بوني والجميع). جماعتي من الأدباء الرائعين والكُتَّاب العظام وهيئة التدريس في «برنامج هيلين زيل للكتاب» في جامعة ميتشغان الذين ازرقَّت جلودهم من الأقلام...

بابا، الأب لكثيرين. ننيم، الأم لحشدٍ. خالتي، المؤرخة. أخواتي - ماريا، جوي، كيليتشي، بيس. إخوتي - مايك، تشينازا، تشووكوما، تشارلز، بسالم، لاكي، تشيديبيري. هذه الرواية من أجلكم، تقديرًا لكم...

إلى كل أولئك الذين عجزت عن ذكرهم، لاعتبارات المساحة، تعرفون أن أيديكم كانت هنا، وأشكركم بقدر شكري لمن ذكرتهم هنا. ولقرائي، مائة مرَّة ومرَّة.